لمزيد من الكتب والأبحاث زوروا موقعنا مكتبة فلسطين للكتب المصورة
https://palstinebooks.blogspot.com

شرح وتعليق فضيلة الشيخ

محمد بن صالح العثيمين

شرح كتاب

حلية طالب العلم

فضيلة الشيخ

بكر أبو زيد

ألفا
للنشر والتوزيع

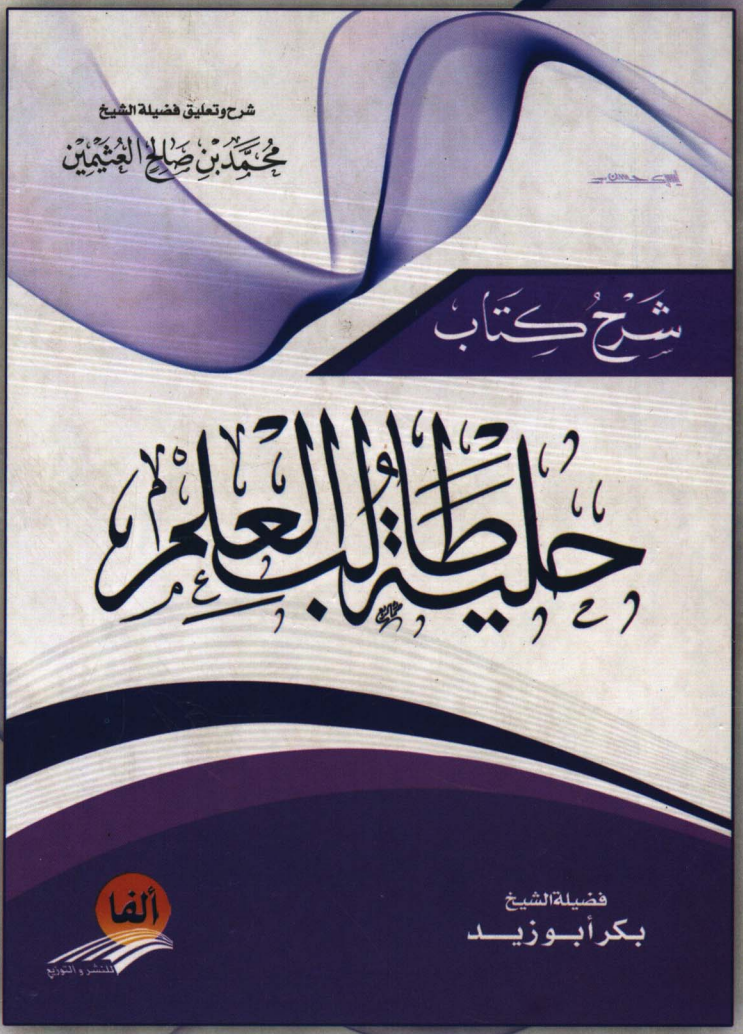

ت وفاكس: 0020233888593
موبايل: 0020101099805
Email:alfa_eg@yahoo.com
info@alfa_publishing.com
www.alfa_publishing.com

ألفا
للنشر و التوزيع

شرح كتاب

حلية طالب العلم

فضيلة الشيخ

بكر أبو زيد

شرح وتعليق فضيلة الشيخ

محمد بن صالح العثيمين

ألفا

للنشر والتوزيع

شرح كتاب

حلية طالب العلم

الطبعة الأولي

1430هـ- 2009 م

رقم الإيداع 2009/10770

جميع حقوق الملكية الأدبية و الفنية محفوظة

لشركة ألفا للنشر و الإنتاج الفني و يحظر طبع ، أو تصوير ، أو ترجمة،أو اعادة تنضيد للكتاب كاملاً أو مجزءاًأو تسجيله على أشرطة كاسيت ، أو إدخاله على الكمبيوتر، أو برمجته على أسطوانات ضوئية ، إلا بموافقة الناشر الخطية الموثقة .

ألفا - للنشر والتوزيع

ت وفاكس: 0020233888593

موبايل: 0020101099805

Email:alfa_eg@yahoo.com

info@alfa_publishing.com

www.alfa_publishing.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

إن الحمدَ للهِ نَحْمَدُه ونَسْتَعِينُه ونَسْتَغفرُه، ونَعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا، ومِن سيئاتِ أعمالِنا، مَن يَهْدِه اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فلا هاديَ له.

وأشْهَدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شَريكَ له، وأشْهَدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١]

أما بعد:

يقول النبي ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»

ويقول ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين». **فإن العلم والفقه في الدين - من خلال أخذ الدين من نبعيه الصافيين القرآن والسنة -هو الطريق الوحيد للوصول إلى عبادة الله عزَّ وجلَّ عبادة صحيحة، ولقد ضَلَّت فرق شَتَّى بسبب جهلها وبُعدها عن منهج الله عزَّ وجلَّ.**

وإن من الكتب التي جمعت الكثير من الفوائد الكثيرة التي لا غِنى لطالب العلم عنها كتاب: «حلية طالب العلم» لفضيلة الشيخ بكر أبو زيد - حفظه الله وبارك في عمره - .

ولما كان لهذا السفر العظيم من الأهمية بمكان، قام العلَّامة محمد بن صالح بن عثيمين -رحمه الله - بالتعليق عليه، وشرح الكثير من فوائده، جعله الله سبحانه وتعالى في ميزان حسناته، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

أما عن عملنا في الكتاب؛ فقد استعنا بالله تعالى وقمنا بما يلي:

١- تصحيح الكتاب تصحيحًا لغويًّا مع ضبط بعض الألفاظ، إن احتيج إلى ذلك.

٢- تخريج الآيات القرآنية.

٣- تخريج الأحاديث النبوية والآثار مع الحكم على جُلِّها من حيث الصحة والضعف والحسن بمعرفة أهل الفن، وبخاصة العلاَّمة الألباني، رحمه الله.

٤- تخريج الأبيات الشعرية من مصادرها، وذكر نبذة عن قائلها.

٥- التعريف بالأعلام والمشاهير في ترجمة موجزة لهم، وعزو القارئ إلى مصادر الترجمة لمن أراد الاستزادة.

٦- صياغة بعض عبارات الكتاب، وحذف العبارات المكررة، وإضافة بعض الألفاظ الضرورية للسياق ووضعها بين معكوفين للأمانة العلمية.

٧- تعريف المصطلحات اللغوية وغيرها من مصادرها المتخصصة.

نسأل الله العلي العظيم أن يوفقنا إلى ما فيه الخير، وأن يجعل عملنا هذا خالصًا لوجهه الكريم، وأن يغفر لنا تقصيرنا، فإن الكمال والعصمة لكتاب الله وحده.

والحمد لله رب العالمين

الناشر

نبذة مختصرة
عن الشيخ بكر أبو زيد

اسمه: بكر بن عبد الله أبو زيد من قبيلة بني زيد، القبيلة القضاعية المشهورة في وسط نجد، وهو من مدينة شقراء ثم الداودمي، حيث ولد فيها في أول شهر ذي الحجة عام ١٣٦٤هـ.

نشأته: نشأ نشأة كريمة، في بيت صلاح وثراء وعراقة نسب.

دراسته: درس في الكُتَّاب ثم التحق بالمدرسة الابتدائية، وأكملها في مدينة الرياض حيث واصل جميع مراحل التعليم الابتدائي، ثم المعهد العلمي، ثم كلية الشريعة، ثم المعهد العالي للقضاء.

مشايخه: كان بجانب دراسته النظامية يتلقى العلم عن عدد من المشايخ، فأخذ اللغة عن الشيخ صالح بن عبد الله بن مطلق، القاضي المتقاعد في الرياض، وكان يحفظ من «مقامات الحريري» خمسًا وعشرين مقامة بشرحها لأبي العباس الشريفي، وقد ضبطها عليه وأخذ علم الميقات، وحفظ منظومته المتداولة على ألسنة المشايخ، وقد انتفع انتفاعًا بالغًا من رحلته إلى مدينة رسول الله ﷺ منذ عام ١٣٨٣هـ؛ حيث أخذ علم الميقات أيضًا عن بعض المشايخ، ولازم شيخه سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز -رحمه الله - وقرأ عليه عددًا من الرسائل، ودرس عليه كتاب الحج من «المنتقى» في المسجد الحرام، ولازم شيخه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله - المتوفى في ١٣٩٣هـ عشر سنين دأبًا في المسجد النبوي، وفَّى دروسه فيه في عصر رمضان، وفي منْزله، وقرأ عليه بعض تفسيره لـ «أضواء البيان»، والجزء الأول من «آداب البحث والمناظرة» ومواضيع من «المذكرة» في أصول الفقه، وعلم النسب في كتاب ابن عبد البر «القصد والأمم في أنساب العرب والعجم» ونبذ سواها.

وقد أثر فيه الشيخ -رحمه الله - تأثيرًا بالغًا، وهو الذي حبب إليه النظر في «لسان العرب» وأصول اللغة العربية، حتى صار لها التأثير الظاهر عليه في أسلوبه، وبيانه. وبالجملة؛ فقد كان مختصًا به، وتخرج على يديه.

إجازاته العلمية: كان مغرمًا بتحصيل الإجازات العلمية في كتب السنة، وله ثبت في هذا، وقد تخرج من كلية الشريعة عام ١٣٨٨هـ منتسبًا وكان ترتيبه: الأول من بين

الخريجين.

وظائفه: اختير للقضاء فعمل قاضيًا في محكمة المدينة النبوية الكبرى، منذ عام ١٣٨٨هـ حتى نهاية ١٤٠٠هـ، وفي عام ١٣٩٠هـ عيِّن مدرسًا بالمسجد النبوي الشريف، فدرس فيه الفرائض، والحديث، واستمر حتى عام ١٤٠٠هـ، ثم عيِّن بعدها بسنة وكيلاً بوزارة العدل، واستمر في الوكالة حتى عام ١٤١٣هـ، وعين أيضًا عضوًا لمجلس القضاء الأعلى بهيئته العامة، ثم ممثلاً للمملكة في مجمع الفقه الإسلامي الدولي، وعين رئيسًا له منذ عام ١٤٠٥هـ، حتى تاريخه، وعيِّن أيضًا عام ١٤٠٥هـ عضوًا في المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي، وفي عام ١٤١٣هـ عيِّن عضوًا في هيئة كبار العلماء، وعضوًا في اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، وفي أثناء عمله في القضاء واصل الدراسة منتسبًا في المعهد العالي للقضاء، فتحصل منه على العالمية -الماجستير- والعالمية العالية -الدكتوراه.

مؤلفاته:

وللشيخ بكر حفظه الله مؤلفات عده تمتاز بالدقة في البحث، والجزالة في الأسلوب، طُبع منها نحو خمسين مؤلفًا منها:

١- ابن القيم حياته وآثاره وموارده.
٢- التقريب لعلوم ابن القيم.
٣- فقه النوازل. مجلدان.
٤- معجم المناهي اللفظية.
٥- طبقات النسابين.
٦- معرفة النسخ الحديثية.
٧- التحديث فيما لا يصح به حديث.
٨- حلية طالب العلم، وهو أصل هذا الشرح الذي نقدمه لكم.
٩- التعالم.
١٠- الرقابة على التراث.
١١- تقريب الألقاب العلمية.
١٢- آداب طالب الحديث من الجامع للخطيب.
١٣- التراجم الذاتية.
١٤- العزاب من العلماء وغيرهم.
١٥- تسمية المولود.

١٦- عقيدة ابن أبي زيد القيرواني والرد على من خالفها.
١٧- تصنيف الناس بين الظن واليقين.
١٨- حكم الانتماء.
١٩- هجر المبتدع.
٢٠- التحذير من مختصرات الصابوني في التفسير.
٢١- براءة أهل السنة من الواقع في علماء الأمة.
٢٢- خصائص جزيرة العرب.
٢٣- جزء في مسح الوجه باليدين بعد الدعاء.
٢٤- جزء في زيارة النساء للقبور.
٢٥- بدع القراء.
٢٦- لا جديد في أحكام الصلاة.
٢٧- تحقيق كتاب «الجد الحثيث في بيان ما ليس بحديث» للعامري.
٢٨- تحقيق اختيارات ابن تيمية للبرهان -ابن القيم.
٢٩- أذكار طرفي النهار.
٣٠- تحريف النصوص.
٣١- المثامنة في العقار.
٣٢- آداب الهاتف. وغير ذلك.

نسأل الله سبحانه وتعالى للشيخ بكر التوفيق، وأن يحفظه، وينفع به المسلمين، كما نسأله تعالى أن يجزي شيخنا ابن عثيمين - رحمه الله - خير الجزاء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مقدمة المؤلف

قال الشيخ بكر - حفظه الله -:

الحمد لله، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، اللهم صلِّ وسلم عليه، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهداه. أما بعد:

فأقيد معالم هذه «الحلية» المباركة عام ١٤٠٨هـ، والمسلمون - ولله الحمد- يعايشون يقظة علمية، تتهلل لها سبحات الوجوه، ولا تزال تنشط -متقدمة إلى الترقي والنضوج - في أفئدة شباب الأمة مجدها ودمها المجدد لحياتها، إذ نرى الكتائب الشبابية تترَى، يتقلبون في أعطاف العلم مثقلين بحمله؛ يعلون منه وينهلون؛ فلديهم من الطموح، والجامعية، والاطلاع المدهش، والغوص على مكنونات المسائل، ما يفرح به المسلمون نصرًا، فسبحان من يُحيي ويميت قلوبًا.

☆ الشـــــرح ☆

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله - تعليقًا على هذه المقدمة:

نحن قررنا هذا بعد مشاورتكم واقتراحاتكم، وذلك لأن طالب العلم إذا لم يتحل بالأخلاق الفاضلة، فإن طلبه للعلم لا فائدة فيه.

لابد أن الإنسان كلما علم شيئًا من الفضائل، أو من العبادات أن يقوم به، فإن لم يفعل فهو والجاهل سواء، بل الجاهل أحسن حالاً منه؛ لأن هذا ترك الفضل عن عمد بخلاف الجاهل؛ ولأن الجاهل ربما ينتفع إذا علم، بخلاف من علم ولم ينتفع؛ فلهذا أحث نفسي وإياكم على التحلي بالأخلاق الفاضلة، والصبر، والمصابرة، والعفو، والإحسان، بقدر المستطاع.

هذا بغضِّ النظر عن الوصية الكبرى وهي الوصية بتقوى الله عزَّ وجلَّ التي قال تعالى فيها:

﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

أما مؤلف هذه الحلية فهو أخونا الشيخ بكر أبو زيد، وهو من أكابر العلماء، ومن المعروفين بالحزم والضبط والنَّزاهة؛ لأنه تولى مناصب كثيرة، وكل عمله فيها يدل على أنه أهل لما تولاه، وهو الآن مع لجنة الفتوى التي يرأسها سَماحة الشيخ عبد العزيز بن باز في الرياض، ومع هيئة كبار العلماء، فنسأل الله لنا وله التوفيق.

ثم إن كلامه في غالب كتبه، كلام يدل على تضلعه في اللغة العربية، ولهذا يأتي أحيانًا بألفاظ تحتاج إلى مراجعة؛ [أعني] مراجعة قواميس اللغة، والذي يظهر أنه لا يتكلف ذلك؛ لأن كلامه سلس ومستقيم، وهذا يدل على أن الله تعالى أعطاه غريزة في اللغة العربية، لم ينلها كثير من العلماء في وقتنا الحاضر، حتى إنك تكاد تقول: إن هذا الفصول كمقامات الحريري، ومقامات الحريري معروفة لأكثركم؛ مقامات جيدة، وفيها مواعظ، وفيها كثير من الكلمات اللغوية التي يستفيد الإنسان منها.

لكن؛ لابد لهذه النواة المباركة من السقي والتعهد في مساراتِها كافة؛ نشرًا للضمانات التي تكف عنها العثار والتعثر في مثانِي الطلب والعمل؛ من تَموجات فكرية، وعقدية، وسلوكية، وطائفية، وحزبية . . .

☆ الشـــــرح ☆

هذا ما قاله صحيح، فإنه في الآونة الأخيرة، حصل -ولله الحمد- من الشباب طموحات واسعة في شتى المجالات، لكنها تحتاج -كما قال - إلى ضمانات وكوابح تضمن بقاء هذه النهضة، وهذا الطموح؛ لأن كل شيء إذا زاد عن حده؛ فإنه سوف يرجع إلى جذره. وإذا لم يضبط ويكبح؛ فإنه يكون دمارًا، وربما يكون دمارًا في المجتمع، وربما يكون دمارًا حتى على صاحبه في قلبه، أرأيتم الخوارج[1] عندهم من الإيمان بمحبة كون المسلمين على الحق ما لا يوجد في غيرهم، لكن هذا قد زاد حتى كفَّروا المسلمين، وأئمة المسلمين وخرجوا عليهم، فصاروا -كما قال النبي ﷺ:

(١) ١- الخوارج: هم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد قصة التحكيم، وهم فرق شتى يجمعهم تكفير علي، وعثمان، والحكمين، وأصحاب الجمل، وتكفير مرتكب الكبيرة، وأنه مخلد في النار، والخروج على الأئمة إذا جاروا وظلموا، وقد عرفوا بعدة أسماء منها: الخوارج والحرورية، والشراة. «التبصرة في الدين» (ص٢٦)، و«الفرق بين الفرق» للبغدادي (ص٥٤).

«يمرقون من الإسلام كما يَمرق السهمُ من الرمية[١]» **فأنت: اضبط قلبك إذا رأيت أنه سوف ينفر بعيدًا، وسوف يسلك مسلكًا صعبًا، فعليك أن ترده وأن تعرف أن المقصود إقامة دين الله، لا الانتصار للغيرة وثورة النفس، ومعلوم أنه إذا كان هذا هو المقصود -أعني: الانتصار لدين الله - فإن الإنسان سوف يسلك أقرب الطرق إلى حصول هذا المقصود، ولو بالمهانة إذا دعت الحاجة إلى ذلك اهـ.**

وقد جعلت طوع أيديهم رسالة في «التعالم» تكشف المندسين بينهم، خشية أن يردوهم، ويضيعوا عليهم أمرهم، ويبعثروا مسيرتَهم في الطلب، فيستلوهم وهم لا يشعرون، واليوم أخوك يشد عضدك ويأخذ بيدك، فاجعل طوع بنانك رسالةَ تحمل «الصفة الكاشفة[٢]» **لحليتك، فها أنذا أجعل سن القلم على القِرطاس، فاتل ما أرقم لك أنعم الله بك عينًا:**

لقد تواردت موجبات الشرع على أن التحلي بمحاسن الآداب، ومكارم الأخلاق، والهدي الحسن، والسمت الصالح: سِمة أهل الإسلام.

☆ الشـــــرح ☆

الشيخ بكر يقول: واليوم أخوك يشد عضدك ويأخذ بيدك فاجعل طوع بنانك:

فيها التفات من الغيبة إلى الحضور، هذا ليس معتادًا عند العلماء في مؤلفاتِهم العلمية، ولكن كما قلنا أولاً: إن الشيخ يعتمد على البلاغات اللغوية. ومعلوم أن الانتقال في الأسلوب من غيبة إلى خطاب، أو من خطاب إلى غيبة، أو من مفرد إلى جمع؛ حيث صح الجمع -من المعلوم - أن هذا سوف يوجب الانتباه؛ لأن الإنسان إذا كان يسير بأسلوب معين مستمرًا عليه انسابت نفسه، لكن إذا جاء شيء يغير الأسلوب، سوف يتوقف وينتبه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: ١٢] فقال: ﴿أَخَذَ ٱللَّهُ﴾هذه غيبة، و﴿وَبَعَثْنَا﴾: هذه حضور. اهـ.

---

(١) أخرجه أحمد برقم (١١٤٧٥)، والبخاري برقم (٣٣٤٤)، ومسلم برقم (١٠٦٤)، وأبو داود في السنة برقم (٤٧٦٤)، والنسائي برقم (٤١١٢)، من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) الصفة الكاشفة: هذه من مصطلحات كتب المواد لـ «لسان العرب»، ومنه ما في مادة (ظبأ) من «القاموس». قال الزبيدي في «تاج العروس» (١/ ٣٣٢): والظبأة: هي الضبع (العرجاء) صفة كاشفة. اهـ.

وأن العلم -وهو أثمن دُرَّة في تاج الشرع المطهر - لا يصل إليه إلا المتحلي بآدابه، المتخلي عن آفاته.

☆ الشـــــرح ☆

المتحلي، والمتخلي فيها جناس ناقصٌ؛ لاختلاف بعض الحروف، ولكن مع ذلك الشيخ راعى هذا. اهـ

ولهذا عناها العلماء بالبحث والتنبيه، وأفردوها بالتأليف، إما على وجه المعلوم لكافة العلوم، أو على وجه الخصوص، كآداب حملة القرآن الكريم، وآداب المحدث، وآداب المفتي، وآداب القاضي، وآداب المحتسب، وهكذا . . . والشأن هنا في الآداب العامة لمن يسلك طريق التعلم الشرعي.

☆ الشـــــرح ☆

ويشمل أيضًا لمن يسلك طريق التعلم، فالآداب هنا: للمتعلم وللمعلِّم حتى المتعلم له آداب يجب أن يعتنى بها. اهـ. وقد كان العلماء السابقون يلقنون الطلاب في حِلَق العلم آداب الطلب، وأدركت خبر آخر العقد في ذلك، في بعض حلقات العلم في المسجد النبوي الشريف، إذ كان بعض المدرسين فيه يدرس طلابه كتاب الزرنوجي (م سنة ٥٩٣هـ) رحمه الله تعالى المسمى: «تعليم المتعلم طريق التعلم» فعسى أن يصل أهل العلم هذا الحبل الوثيق الهادي لأقوم طريق، فيدرج تدريس هذه المادة في فواتح دروس المساجد، وفي مواد الدراسة النظامية، وأرجو أن يكون هذا التقييد فاتحة خير في التنبيه على إحياء هذه المادة التي تُهذِّب الطالبَ، وتسلك به الجادة في آداب الطلب، وحمل العلم، وأدبه مع نفسه، ومع مدرسه ودرسه وزميله، وكتابه وثمرة علمه، وهكذا في مراحل حياته، فإليك حلية تحوي مجموعة آداب، نواقضها مجموعة آفات، فإذا فات أدب منها اقترف المفرط أدبٌ من آدابها، فمقل ومستكثر، وكما أن هذه الآداب درجات صاعدة إلى السنة فالوجوب، فنواقضها دركات هابطة إلى الكراهة فالتحريم.

☆ الشـــــرح ☆

يعني هو ذكر الآداب؛ فيكون ضدها إذا كانت مسنونة - يكون ضدها - مكروه، وإن كانت واجبة فضدها محرم، ولكن هذا ليس على إطلاقه؛ لأن ليس ترك كل مسنون يكون مكروهًا. وإلا لقلنا: إن كل من لم يأت بالمسنونات في الصلاة يكون قد فعل مكروهًا، لكن إذا ترك أدبًا من الآداب الواجبة فإنه يكون فاعل محرم في نفس ذلك الأدب فقط؛ لأنه ترك فيه واجبًا، وكذلك إذا كان مسنونًا، وتركه؛ فينظر إذا تضمن تركه إساءة أدب مع المعلم، أو مع زملائه؛ فهذا يكون مكروهًا؛ لا لأنه تركه لكن لأنه لزم منه إساءة الأدب.

والحاصل: أنه لا يستقيم أن نقول: كل من ترك مسنونًا فقد وقع في المكروه، أو كل من ترك واجبًا فقد وقع في المحرم. يعني: على سبيل الإطلاق، بل يقيد هذا. اهـ.

ومنها ما يشمل عموم الخلق من كل مكلف، ومنها ما يختص به طالب العلم، ومنها ما يدرك بضرورة الشرع، ومنها ما يعرف بالطبع، ويدل عليه عموم الشرع، من الحمل على محاسن الآداب، ومكارم الأخلاق، ولم أعنِ الاستيفاء، لكن سياقتها تجري على سبيل ضرب المِثال، قاصدًا الدلالة على المهمات، وهذا المجمل ففصلته، فإذا وافقت نفسًا صالحة لها، تناولت هذا القليل فكثرته، وهذا المجمل ففصلته، ومن أخذ بها انتفع ونفع، وهي بدورها مأخوذة من أدب من بارك الله في علمهم، وصاروا أئمة يهتدي بِهم، جمعنا الله بِهم في جنته آمين.

بكر بن عبد الله أبو زيد
في (٥/ ٨/ ١٤٠٨هـ)

الفصل الأول
آداب الطالب في نفسه

١- العلم عبادة:

أصل الأصول في هذه الحلية، بل ولكل أمرٍ مطلوب علمك بأن العلم عبادة، قال بعض العلماء: العلم صلاة السرّ وعبادة القلب.

☆ الشـــــرح ☆

العلم عبادة لا شك فيه، بل هو من أجل العبادات، وأفضل العبادات، حتى إن الله تعالى جعله في كتابه قسيمًا للجهاد في سبيل الله - الجهاد المسلح - فقال جل وعـــــلا: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

ليتفقهوا: يعني: بذلك الطائفة القاعدة، ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون، وقال النبي ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين»[(١)]، فإذا رزقك الله الفقهَ في دينك، والفقه هنا يعني به العلم بالشرع فيدخل؛ فيه علم العقائد والتوحيد وغير ذلك، فإذا رأيت أن الله مَنَّ عليك بِهذا فاستبشر خيرًا؛ لأن الله تعالى أراد بك خيرًا. وقال الإمام أحمد: العلم لا يعدله شيء لمن صحت نيته. قالوا: وكيف تصح النية يا أبا عبد الله؟ قال: ينوي رفع الجهل عن نفسه وعن غيره اهـ.

وعليه فإن شرط العبادة: إخلاص النية - لله عزَّ وجلَّ - لقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ الآية [البينة: ٥] وفي الحديث الفرد المشهور عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إنما الأعمال بالنيات...» الحديث[(٢)]،

---

(١) أخرجه أحمد برقم (١٦٧٨٠)، والبخاري برقم (٧١)، ومسلم برقم (٣٧)، وابن ماجه برقم (٢٢/ ٢٢١) من حديث معاوية رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري برقم (١)، ومسلم برقم (١٩٠٧).

فإن فقد العلم إخلاص النية، انتقل من أفضل الطاعات إلى أحط المخالفات، ولا شيء يحطم العلم مثل: الرياء؛ رياء شرك، أو رياء إخلاص، ومثل التسميع، بأن يقول مسمعًا: علمت وحفظت... وعليه فالتزم التخلص من كل ما يشوب نيتك في صدق الطلب.

☆ الشـــــرح ☆

إذا قال القائل: بما يكون الإخلاص في طلب العلم؟ يكون في أمور:

١- أن تنوي بذلك امتثال أمر الله؛ لأن الله تعالى أمر بذلك فقال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩] وحث ﷺ على العلم، والحث على الشيء يستلزم محبته والرضا به والأمر به.

٢- أن تنوي بذلك حفظ شريعة الله؛ لأن حفظ شريعة الله يكون بالتعلم، ويكون بالحفظ في الصدور، ويكون كذلك بالكتابة .. كتابة الكُتب.

٣- أن تنوي بذلك حماية الشريعة، والدفاع عنها؛ لأنه لولا العلماء ما حُمِيت الشريعة، ولا دافع عنها أحد؛ ولهذا نجد مثلاً شيخ الإسلام ابن تيمية[1]، وغيره من أهل العلم الذين تصدوا لأهل البدع، وبينوا بُطلان بدَعهم، نرى أنَّهم حصلوا على خير كثير.

٤- أن تنوي بذلك اتباع شريعة محمد ﷺ؛ لأنك لا يمكن أن تتبع شريعته حتى تعلم هذه الشريعة .. هذه أمور أربعة كلها يتضمنها قولنا: إنه يجب الإخلاص لله في طلب العلم. اهـ.

---

(١) هو شيخ الإسلام، تقي الدين أبو العباس، أحمد بن الشيخ الإمام العلامة شهاب الدين عبد الحليم، ابن الإمام العلامة مجد الدين أبي البركات عبد السلام بن أبي محمد عبد الله بن أبي القاسم الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله بن تيمية الحراني.
وتيمية: يقال: إنها محمدة، وكانت واعظة، فنسب إليها، وعرف بها، ولهذا أطلق على هذه الأسرة «آل تيمية». ولد شيخ الإسلام بحران يوم الاثنين عاشر أو ثاني عشر ربيع الأول سنة ٦٦١هـ. كان يدرك العلوم خطًا، وكاد يستوعب السنن والآثار حفظًا، إن تكلم فهو حامل رايته، وإن أفتى في الفقه فهو مدرك غايته، أو بالحديث فهو صاحب علمه وذو روايته، أو حاضر بالملل والنحل لم يرَ أوسع من نحلته، ولا أرفع من درايته، يرزق في كل علم على أبناء جنسه.
توفي ليلة الاثنين ٢٠ من ذي القعدة سنة ٧٢٨هـ. أنظر: «الدرر الكامنة» لابن حجر (١/ ١٥٤-١٧٠)، مختصر طبقات علماء الحديث (٢٠٠-٢٠٢) الأعلام العلية للبزار (٧٢-٧٦).

وعليه، فالتزم التخلص من كل ما يشوب نيتك في صدقِ الطلب؛ كحب الظهور، والتفوق على الأقران، وجعله سُلَّمًا لأغراض وأغراض؛ من جاه، أو مال، أو تعظيم، أو سُمعة، أو طلب محمدة، أو صرف وجوه الناس إليك، فإن هذه وأمثالها إذا شابت النية أفسدتْها، وذهبت بركة العلم، ولهذا يتعين عليك أن تحمي نيتك من شوب الإرادة لغير الله تعالى، بل وتحمي الحِمى.

☆ الشـــــرح ☆

وهذا ما قاله صحيح، حماية النية من هذه المقاصد السيئة، فهو صحيح، ومن طلب علمًا، وهو مما يبتغي به وجه الله لا يريد إلا أن ينال عرضًا من الدنيا، لم يجد رائحة الجنة -نسأل الله العافية- ثم إن هذه المحمدة والجاه والتعظيم وانصراف وجوه الناس إليك ستجده إن حصَّلت العلم، وإن كانت نيتك سليمة، فهو أقرب إلى حصول هذا لك.

وللعلماء في هذا أقوال ومواقف بينت طرفًا منها في المبحث الأول من كتاب «التعالم»، ويزاد عليه نَهي العلماء عن الطبوليات؛ وهي المسائل التي يراد بِها الشهرة.

وقد قيل: زلة العالم مضروب لها الطبل.

وعن سفيان [١] رحمه الله تعالى أنه قال: كنت أوتيت فَهم القرآن، فلما قبلت الصُّرَّة سلبته[٢]، فاستمسك رحمك الله تعالى بالعروة الوثقى العاصمة من هذه الشوائب.

☆ الشـــــرح ☆

س: لماذا سُميت بالطبوليات؟

لأنَّها مثل الطبل لها صوت ورنين، فهذا إذا جاء في مسألة غريبة عند الناس، واشتهرت عنه؛ كأنَّها صوت الطبل فهذه يسمونَها الطبوليات، ولم أسمع بِهذا لكن وجهها واضح اهـ.

---

(١) هو أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، قال شعبة وابن عيينة وغيرهم من العلماء: سفيان أمير المؤمنين في الحديث. وقال ابن المبارك: كتبت عن ألف ومائة شيخ ما كتبت عن أفضل من سفيان. ولد سنة (٩٧ هـ)، وقيل غير ذاك، وتوفي بالبصرة سنة (١٦١هـ). «مشاهير علماء الأمصار» للبستي (ص ١٦٩)، و«تذكرة الحفاظ» (١/ ٢٠٣-٢٠٧).

(٢) أخرجه الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» ١/ ٣٦٧(٨٤٣).

هذا سفيان يقول: كنت أوتيت فَهم القرآن فلما قبلت الصُّرة سلبته.

الصرة: يعني: من السلطان لما أعطاه سلب فهم القرآن، وهؤلاء هم الذين يدركون الأمور؛ ولهذا يتحرز السلف من عطايا السلطان، ويقولون: إنَّهم لا يعطوننا إلا ليشتروا ديننا بدنياهم، فتجدهم لا يقبلونَها، ثم إن السلاطين فيما سبق قد تكون أموالهم مأخوذة من غير حِلِّها فيتورعون عنها -أيضًا- من هذه الناحية.

ومن المعلوم أنه لا يجوز للعالم أن يقبل هَدِية السلطان، إذا كان يريد السلطان أن تكون هذه العطية مطيَّة له، يركبها متى شاء بالنسبة لهذا العالم، أما إذا كانت أموال السلطان نزيهة، ولم يكن يقبل الهدية منه ليبيع دينه بها؛ فقد قال النبيﷺ لعمر: «ما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائله فخذه، وما لا فلا تتبعه نفسك»[(١)].

وغرض سفيان - رحمه الله - من ذلك التحذير من هذا وتبكيت نفسه على ما صنَعَ.

بأن تكون مع بذل الجهد في الإخلاص شديدَ الخوف من نواقضه عظيمَ الافتقار والالتجاء إليه سبحانه، ويؤثر عن سفيان الثوري - رحمه الله تعالى - قوله: ما عالجت شيئًا أشد عليَّ من نيتي[(٢)]

☆ الشـــــرح ☆

وفي معنى ذلك... ما أدري هل هو قول آخر أو نقل بالمعنى؟.. يقول: ما عالجت نفسي على شيء أشد من معالجتها على الإخلاص. وهذا بمعنى كلام سفيان: لأن الإخلاص شديد؛ ولهذا من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه؛ فإنه يدخل الجنة، وهو أسعد الناس بشفاعة النبي ﷺ[(٣)].

وعن عمر بن ذرٍّ أنه قال لوالده: يا أبي ما لك إذا وعظت الناس أخذَهم البكاءُ، وإذا وعظهم غيرك لا يبكون؟ فقال: يا بُنَيَّ ليست النائحةُ الثكلَى مثل النائحة المستأجرة. وفقك الله لرشدك آمين[(٤)]

---

(١) أخرجه أحمد برقم (١٣٦)، والبخاري باب من أعطاه الله شيئًا من غير مسألة (١٤٠٤)، ومسلم في إباحة الأخذ لمن أعطى (١٠٤٥).

(٢) أخرجه الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي» ١/ ٣١٧ (٦٩٢)، وأبو نعيم في «الحلية» ٧/ ٥، ٦٢.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٣٧٣ (٨٨٤٥)، والبخاري في «بدء الخلق» الحديث (٩٩)، والنسائي في «الكبرى» (٥٨٤٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه ابن أبي عاصم في «الزهد» (١/ ٣٥٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١١٠، ١١١).

☆ الشـــــرح ☆

الله أكبر هذا مثل عظيم، النائحة الثكلى؛ يعني: التي فقدت ولدها، فهذه تبكي بكاءً من القلبِ، والنائحة المستأجرة لا يؤثر نوحها ولا بكاؤها؛ لأنَّها تصطنع البكاء، ولكن مثل هذا الكلام الذي يرد عن السلف، يجب أن نحسن الظن بِهم، وأنَّهم لا يريدون بذلك مدح أنفسهم، وإنَّما يريدون بذلك حثَّ الناس على إخلاص النية والبعد عن الرياء، وما أشبه ذلك، وإلا لكان هذا تزكية للنفس واضحة، والله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ لكن السلف - رحمهم الله - لعلمنا بمقامِهم وإخلاصهم يجب أن نحمل ما ورد عنهم مما يحتمل هذا المعنى الفاسد أن نحمله على المعنى الصحيح.

٢- الخصلة الجامعة لخيري الدنيا والآخرة، محبة الله تعالى، ومحبة رسوله ﷺ وتحقيقها بتمحض المتابعة، وقَفو الأثر للمعصوم، قال الله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

☆ الشـــــرح ☆

لا شك أن المحبة لها أثرٌ عظيمٌ في الدفع والمنع، إذ إن المحب يسعى غاية جهده في الوصول إلى المحبوب، فيطلب ما يرضيه وما يقربه منه، ويسعى غاية جهده في اجتناب ما يكرهه محبوبه، ويبتعد عنه، ولهذا ذكر ابن القيم[١] في (روضة المحبين) أن كل الحركات مبنية على المحبة، كل حركات الإنسان، وهذا صحيح، لأن الإرادة لا تقع من شخص عاقل إلا لشيء يرجو نفعه أو دفع ضره، وكل إنسان يحب ما ينفعه، ويكره ما يضره، فالمحبة في الواقع هي القائد والسائق إلى الله عزَّ وجلَّ، تقود الإنسان وتسوقه.

وانظر إلى الذين كَرِهوا ما أنزل الله كيف قال الله تعالى [فيهم]: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد: ٩] صارت نتيجتهم الكفر؛ لأنَّهم كرهوا ما

---

(١) هو شيخ الإسلام، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي، الشهير بـ «ابن القيم»، وُلد سنة (٦٩١هـ)، ومات سنة (٧٥١هـ)، انظر«البداية والنهاية» (٤/٢٤٦، ٢٤٧).

أنزل الله، فالمحبة - كما قال الشيخ - هي الجامعة لخيري الدنيا والآخرة، أما محبة الرسول ﷺ فإنها تحملك على متابعته ظاهرًا وباطنًا؛ لأن الحبيب يقلد محبوبه، حتى في أمور الدنيا، تجده يقلد محبوبه؛ تجده مثلًا يقلده في اللباس، وفي الكلام، حتى في الخط، نحن نذكر بعض الطلبة في زماننا لما كنا نطلب [العلم]، كانوا يقلدون الشيخ عبد الرحمن السعدي[1] في خطه، مع أن خطه - رحمه الله - ضعيف؛ لا تستطيع أن تقرأه، ولكن من شدة محبتهم له قلدوه، فالإنسان كلما أحب شخصًا، حاول أن يكون مثله في خصاله، فإذا أحببت النبي ﷺ؛ فإن هذه المحبة سوف تقودك إلى اتباعه - صلوات الله وسلامه عليه - ثم ذكر الآية التي يسميها علماء السلف «آية المحنة» يعني: الامتحان لأن قومًا ادعوا أنَّهم يحبون الله، فقال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾. والجواب المتوقع، فاتبعوني تصدقوا في دعواكم، لأن الشرط والمشروط، إن كنتم تحبون الله فاتبعوني تصدقوا في دعواكم أنكم تحبون الله، لكن جاء الجواب: ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[2].

إشارة إلى أن الشأن كل الشأن أن يحبك الله - عزَّ وجلَّ - هذا هو الثمرة، وهو المقصود، لا أن تحب الله، لأن كل إنسان يدعي ذلك، وربما يكون ظاهرك محبة الله، لكن في قلبك شيء لا يقتضي أن الله يحبك، فتبقى غير حاصل على الثمرة.

وبالجملة: فهذان أصل هذه الحلية، ويقعان منها موقع التاج من الحلة، فيا أيها الطلاب ها أنتم هؤلاء تربعتم للدرس وتعلقتم بأنفَسِ علِق - طلب العلم - فأوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى في السر والعلانية، فهي العدة، وهي مهبط الفضائل، ومتنَزل المحامد، وهي مبعث القوة، ومِعراج السمو، والرابط الوثيق على القلوب عن الفتن، فلا تفرطوا.

☆ الشـــــرح ☆

صدق رحمه الله وعفا عنا وعنه، ويدل لهذا قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [سورة الأنفال: ٢٩]. تفرقون به بين الحق والباطل، وبين الضار والنافع، وبين الطاعة والمعصية، وبين أولياء الله وأعداء الله، إلى غير

---

(١) هو الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي، من قبيلة بني تميم، وُلد في عنيزة عام (١٣٠٧هـ)، توفي سنة ١٣٧٦هـ. «الأعلام» (٣/ ٢٤٠).

(٢) انظر «تفسير» ابن جرير الطبري (٦ / ٢٠٢)، و«تفسير» ابن أبي حاتم (٢ / ٢٠٥).

ذلك... وتارة يحصل هذا الفرقان بوسيلة العلم؛ يفتح الله على الإنسان من العلوم، وييسر له تحصيلها أكبر ممن لا يتقي الله، وتارة يحصل له هذا الفرقان بما يلقيه الله تعالى على قلبه من الفِراسة، قال النبي ﷺ: «إن يكن فيكم محدثون فعمر»[١]. فالله تعالى يجعل لمن اتقاه فراسة، يتفرس بها؛ فتكون موافقة للصواب، فقوله تعالى: ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾. يشمل الفرقان بوسائل العلم والتعلم، والفرقان بوسائل الفراسة، والإلهام؛ إن الله تعالى يلهم الإنسان التقي ما لا يلهم غيره، وربما يظهر لك هذا في مجراك في طلب العلم، تمر بك أيام تجد قلبك خاشعًا منيبًا إلى الله، مقبلاً إليه، متقيًا له؛ فيفتح الله عليك مفاتح، ومعارف كثيرة، وتمرُّ بك أيام غفلة ينغلق قلبك، وكل هذا تحقيق لقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [سورة الأنفال: ٢٩]. ثلاثة فوائد، وإذا غفر الله للعبد -أيضًا- فتح الله عليه أبواب المعرفة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥، ١٠٦]. ولهذا قال بعض العلماء: ينبغي للإنسان إذا استفتى أن يقدم استغفار الله، حتى يبين له الحق؛ لأن الله قال: ﴿لِتَحْكُمَ﴾ ثم قال: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾.

٢-كن على جادة السلف الصالح:

كن سلفيًا على الجادة، طريق السلف الصالح من الصحابة رضي الله عنهم، فمَن بعدهم ممن قَفَا أثرهم في جميع أبواب الدين؛ من التوحيد والعبادات ونحوها، متميزًا بالتزام آثار رسول الله ﷺ وتوظيف السنن على نفسك، وترك الجدال والمِراء، والخوض في علم الكلام، وما يجلب الآثام، ويصد عن الشرع.

☆ الشـــــرح ☆

هذه من أهم ما يكون؛ أن الإنسان يكون على طريق السلف الصالح في جميع أبواب الدين؛ من التوحيد، والعبادات، والمعاملات... وغيرها، كذلك

(١) أخرجه أحمد برقم (٢٤٣٣٠)، والبخاري برقم (٣٤٨٦)، والترمذي برقم (٣٦٩٣) من حديث أبي هريرة والترمذي من حديث عائشة.

أيضًا: ترك الجدال والمِراء؛ لأن الجدال والمراء هو الباب الذي يقفل طريق الصواب، فإن الجدال والمراء يحمل المرء على أن يتكلم وينتصر لنفسه فقط، حتى لو بان له الحق، تجده إما ينكره، وإما يؤوله على وجه مُستكْرَه؛ انتصارًا لنفسه، وإرغامًا لخصمه على الأخذ بقوله، فإذا رأيت من أخيك جدالاً ومراءً بحيث يكون الحق واضحًا، ولكنه لم يتبعه؛ ففِر منه فرارك من الأسدِ، وقل: ليس عندي إلا هذا واتركه.

وكذلك الخوض في علم الكلام، فالخوض في علم الكلام -أيضًا- مضيعة للوقت لأنَّهم يتكلمون بأشياء من أوضح الأشياء؛ مرَّ عليَّ اليوم في دراسة بعض الطلبة، يقول: ما هو العقل؟ حد لي العقلَ؟ عرف العقل لغة واصطلاحًا وشرعًا وعرفًا؟ هذا ليس له تعريف، هل يحتاج العقل إلى أن يوضح؟ لا يحتاج، لكن علم الكلام أدخل علينا هذه الأشياء، فيقعد الواحد مدة ماذا يُعنَى بالعقل؟ سبحان الله، الظاهر أنه يجلس يفكر في تعريف العقل؛ فيصير مجنونًا؛ لأن أهل الكلام، صدوا الناس عن الحق، وعن النهج السلفي البسيط بما يوردونه من الشبهات، والتعريفات، والحدود... وغيرها، وانظر إلى كلام الشيخ - رحمه الله - في«الرد على المنطقيين» يتبين لك الأمر أو في «نقض المنطق» وهو مختصرٌ وأوْضَحُ لطالب العلم، فيتبين لك ما هم عليه من الضلال، ما الذي حمل علماء جهابذة على أن يسلكوا باب التأويل في باب الصفات إلا علم الكلام: لو كان كذا لكان كذا، لو كان مستويًا على العرش حقيقة لزم أن يكون محدودًا، لماذا؟ لأن العرش محدود، لو كان يرى لزم أن يكون في جهة وإذا كان في جهة لزم أن يكون جسمًا، وهلم جرًّا، يعطونك من هذا الكلام الذي يضيعك وهم يظنون أنَّهم يهدونك سواء السبيل، فإذن؛ من المهم لطالب العلم أن يترك الجدال والمِراء، وأن يترك ما يرد على ذهنه من الإيرادات، اترك هذه الأشياء لا تتنطع، اجعل علمك سهلاً ميسرًا؛ يعني: يأتي الأعرابي، يأتي على بعيره، يسأل النبي ﷺ على مسائل الدين، ثم ينصرف بدون مناقشة[1]؛ لأنه ليس عنده إلا التسليم، أما المناقشات والمراء والجدال فهذا يضرُّ الإنسان، فالشيخ بكر جزاه الله خيرًا - يعني - ألمح إلى هذا الأمر، وما يجلب الآثام، ويصدّ عن الشرع.

---

(١) لحديث طلحة بن عبيد الله، الذي أخرجه البخاري في الإيمان في الزكاة من الإسلام برقم (٤٦)، ومسلم في بيان الصلوات (١١)، وأبو داود في الصلاة (٣٩١).

قال الذهبي - رحمه الله تعالى - وصحَّ عن الدارقطني أنه قال: ما شيء أبغض إليَّ من علم الكلام. قلت: لم يدخل الرجل أبدًا في علم الكلام ولا الجدل ولا خاض في ذلك، بل كان سلفيًا[1]. اهـ.

☆ الشـــــرح ☆

يعني بذلك الدارقطني، يعني يبغضه مع أنه لم يدخل فيه، لكن لما له من نتائج سيئة، وتطويل بلا فائدة، وتشكيك فيما هو متيقن، وإرباك للأفكار، وهجر للآثار، ولهذا ليس شيء - فيما أرى - أضرّ على المسلمين في عقائدهم من علم الكلام، والمنطق وكثير من علماء الكلام الكبار أقرُّوا في آخر حياتِهم أنَّهم على دين العجائز، ورجعوا إلى الفِطرة الأولى؛ لما علموا من علم الكلام.

قال شيخ الإسلام - رحمه الله - في «الفتوى الحموية»: وأكثر من يخاف عليهم الضُّلال، هم المتوسطون من علماء الكلام؛ لأن من لم يدخل فيه فهو في عافية منه، ومن دخل فيه وبلغ غايته فقد عرف مضاره وبطلانه ورجع. وصدق رحمه الله، وهذا هو الذي يخاف في كل علم، يخاف من «الأنصاف» الذين لم يعرفوا الطريقَ، لأنَّهم لم يروا أنفسهم أنهم لم يدخلوا في العلم، فيتركوه لغيرهم، ولم يبلغوا غاية العلم والرسوخ فيه، فيُضِلُّون ويُضلون، لكن علم الكلام خطير؛ لأنه يتعلق بذات الرب - عزَّ وجلَّ سبحانه - وصفاته، ولأنه يبطل النصوص تمامًا، ويحكم العقل، ولهذا كان من قواعدهم؛ أن ما جاء في النصوص من صفات الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

قسم أقرَّه العقل: فهذا نقرُّه بدلالة العقل لا بدلالة السمع.

وقسم نفاه العقل: فيجب علينا نفيه دون تردد؛ لأن العقل نفاه ولكن عقل من؟ قال الإمام مالك - رحمه الله -: ليت شِعري، بأي عقل يوزن الكتاب والسنة أوَ كُلَّما جاءنا رجل أجدل من رجل أخذنا بقوله، وتركنا من أجله الكتاب والسنة؟! هذا لا يمكن.

القسم الثالث: ما لم يرد العقل بنفيه ولا إثباته، فمن قال: إن شرط الإثبات دلالة العقل. قال: يرد؛ لأن العقل لم يثبته. ومن قال: إن من شرط قبوله ألاَّ يرده العقل قال: إنه يقبل وأكثرهم يقول: إنه يرد، ولا يقبل؛ لأن من شرط إثباته أن يدل عليه

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٦ / ٤٥٧).

العقل، وبعضهم توقف، قالوا: إذا لم يثبته العقل ولم ينفه؛ فالواجب علينا أن نتوقف، وكل هذه قواعد ما أنزل الله بها من سلطان، ضلُّوا بها وأضلُّوا - والعياذ بالله -وارتبكوا وشكوا وتحيروا، ولهذا أكثر الناس شكًّا عند الموت هم أهل الكلام عند الموت - والعياذ بالله - يترددون، فيقولون: هل الله جوهر أو عرض؟ هل هو قائم بنفسه أو بغيره؟ هل يفعل أو لا يفعل؟ هكذا عند الموت؛ فيموت وهو شاك، نسأل الله السلامة والعافية، لكن؛ إذا كانت طريقته، طريقة السلف الصالح، سهل عليه الأمر، ولم يرد على قلبه شك، ولا تشكيك، ولا تردد. اهـ.

وهؤلاء هم أهل السنة والجماعة المتبعون آثار رسول الله ﷺ وهم كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى:

وأهل السنة: نقاوة المسلمين، وهم خير الناس للناس. اهـ.

☆ الشـــــرح ☆

لكن يا إخوان، اعلموا أن من المتأخرين من قال: إن أهل السنة ينقسمون إلى قسمين: مفوضة ومؤولة، وجعلوا الأشاعرة، والماتريدية، وأشباههم من أهل السنة، وجعلوا المفوضة هم السلف فأخطئوا في فهم السلف وفي منهجهم؛ لأن السلف لا يفوضون المعنى إطلاقًا، بل قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: إن القول بالتفويض من شرِّ أقوال أهل البدع، والإلحاد. واستدل بذلك بأننا إذا كنا لا ندري معاني ما أخبر الله به عن نفسه من أسماء وصفات -إذا كنا لا ندري- جاءنا الفلاسفة، فيقولون: أنتم جهال، ونحن الذين عندنا العلم. ثم تكلموا بما يريدون، وقالوا: المراد بالنص كذا وكذا. ومعلوم أن معنى للنص خير من توقف فيه، وأنه ليس له معنى فانتبهوا لهذا، إن بعض الناس يرى أن أهل السنة والجماعة يدخل فيهم المتكلمون من الأشاعرة والماتريدية وغيرهم، ويقسمون أهل السنة إلى قسمين مفوضة ومؤولة، ثم يقولون - من العجب العجاب -: طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم. سبحان الله! كيف تكون طريقة السلف أسلم؟ وطريقة الخلف أعلم وأحكم، وهل يمكن أن تكون طريقة أعلم وأحكم وليست بأسلم، بل يلزم من كونه طريقة الخلف أعلم وأحكم، أن تكون أسلم - بلا شك - لأن شخصًا يقول: هذا النص له معنى، وأنا مؤمن به أعلم، بلا شك وأحكم من شخص يقول: والله ما أدري وهي عندي بِمنْزلة أ، ب، ت، ما أدري، فلا سلامة إلا بالعلم والحكمة؛ العلم الحق واتباع الحق الحكمة، اتباع الحق والعلم أيضًا، فهذا تناقض عظيم ولهذا كان القول الصحيح في هذه العبارة: إن طريقة السلف أسلم وأعلم وأحكم. جعلنا الله وإياكم على هذا الطريق. اهـ.

فالزم السبيل ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]

☆ الشـــــرح ☆

ويلزم من كوننا نحث الطلبة على منهج السلف، يلزم من ذلك تحريضهم على معرفة منهج السلف، أليس كذلك؟ فنطالع: الكتب المؤلفة في هذا كـ«سير أعلام النبلاء» وغيره، حتى نعرف طريقهم، ونسلك هذا المنهج القويم، أما أن نقول: نتبع السلف. ولكن لا ندري ماذا يفعلون، فهذا نقص بلا شك. اهـ.

٣- ملازمة خشية الله تعالى:

التحلي بعمارة الظاهر والباطن بخشية الله تعالى، محافظًا علي شعائر الإسلام، وإظهار السنة، ونشرها بالعمل بِها، والدعوة إليها، دالًا على الله بعلمك وسَمتك وعملك، متحليًا بالرجولة، والمساهلة، والسمت الصالح، ومِلاك ذلك خشية الله تعالى؛ ولهذا قال الإمام أحمد - رحمه الله تعالى -: أصل العلم خشية الله تعالى.

☆ الشـــــرح ☆

وهذا الذي قاله الإمام أحمد صحيح: أصل العلم خشية الله. وخشية الله هي الخوف من الله المبني علي العلم والتعظيم؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]. فالإنسان إذا علم الله عزَّ وجلَّ حق العلم، وعرفه حق المعرفة؛ فلا بد أن يقوم في قلبه خشية الله؛ لأنه إذا علم ذلك، علم عن رب عظيم، عن رب قوي، عن رب قاهر، عن رب عالم بما يسر ويخفي الإنسان، فتجده يقوم بطاعة الله عزَّ وجلَّ أتم قيام، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾.

قال العلماء: الفرق بيّن الخشية والخوف: أن الخشية تكون من عظم المخشي والخوف من ضعف الخائف، وإن لم يكن المخوف عظيمًا؛ ولهذا يخاف الصبي من فتى أكبر منه قليلاً، لكن الأكبر من هذا الفتى هل يخاف الفتى أم لا؟ يا جماعة، الصبي الصغير له سنتان يخاف من صبي له ست سنوات، أهل هذا الخوف لِعظم المخوف أم لصغر الخائف؟ بل [لصغر] الخائف، طيب، هذا الذي له ست سنوات يخاف ممن له عشر سنوات، إذًن ليس عظيمًا، فالفرق بين الخشية والخوف، أن الخشية تكون من عظم المخشي، والخوف من نقص الخائف؛ ولهذا بعض الناس يخاف من لا شيء؛ لكونه رعديد؛ أي: جبان يخاف من كل شيء، ولهذا يضرب

المثل بالرجل يقال: هو يخاف من ظلاله. يمشي مثلاً في القمر فيرى ظلاله؛ فيقول: هذا واحد لحقني. ثم يهرب، وهذا الظلال معه وتنقطع رجليه وهو يقول: أما نجوت من هذا الرجل؛ لأنه جبان.

فالحاصل: أن الخشية أعظم من الخوف [1]، ولكن قد يقال: خف الله [قال تعالى]: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران: ١٧٥] وهذا في مقابلة فعل هؤلاء الذين يخافون من الناس. اهـ.

فالزم خشية الله في السر والعلن، فإن خير البرية من يخشَى الله تعالى، وما يخشاه إلا عالم، إذن فخير البرية هو العالم، ولا يغب عن بالك أن العالم لا يعد عالمًا إلا إذا كان عاملاً، ولا يعمل العالم بعِلْمِه إلا إذا لزمته خشية الله.

وأسند الخطيب البغدادي[2]- رحمه الله تعالى - بسند فيه لطيفة إسنادية، برواية آباء تسعة، فقال[3]: أخبرنا أبو الفرج عبد الوهاب بن عبد العزيز بن الحارث بن أسد بن الليث بن سليمان بن الأسود بن سفيان بن زيد بن أكينة بن عبد الله التميمي - من حفظه - قال: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت علي بن أبي طالب يقول: هتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل اهـ.

وهذا اللفظ بنحوه مرويٌّ عن سفيان الثوري -رحمه الله تعالى- ا هـ.

---

(١) الخوف في اللغة: القرع والهم. انظر «القاموس المحيط» (٣/ ١٤٤)، وخَشِي بالكسر. خشية الخالق، وهذا المكان «أخشى» من ذاك أي: أخوف. انظر«القاموس المحيط» (٤/ ٣٢٦) والخوف عبارة عن تألم القلب بسبب توقع مكروه في المستقبل. انظر «الرسالة القشيرية» (١/ ٣٤٢، ٣٤٣). والخشية: أخص من الخوف، فهي خوف مقرون بمعرفة. انظر «مدارج السالكين» لابن القيم (١/ ٥١٢).

(٢) هو الحافظ المؤرخ أحمد بن علي بن ثابت البغدادي أبو بكر، أحد الأئمة الأعلام، وصاحب التواليف المنتشرة في الإسلام، من أشهرها تاريخ بغداد، توفي رحمه الله ببغداد سنة (٤٦٣هـ). «سير أعلام النبلاء» (١٨/ ٢٧٠).

(٣) =انظر «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر(١/ ٧٠٧)، رقم (١٢٧٤)، و«ذم من لا يعمل بعلمه» برقم (١٥) لابن عساكر، وانظر إسناد «لسان الميزان» (٤/ ٢٦، ٢٧) للحافظ ابن حجر. (الشيخ بكر)

☆ الشـــــرح ☆

قوله - وفقه الله -: لا يعد عالمًا يعني: عالمًا ربانيًا، وأما كونه عالمًا ضد الجهل؛ فهذا يقال، فيقال: إن الذي ألف «المنجد» رجل نصراني وفيه من معرفة اللغة العربية شيء كثير وإن كان فيه غلطات كثيرة، وأشياء تؤخذ عليه من الناحية الدينية، لكن العالم الذي يعمل بعلمه، هو الذي يصدق عليه أنه عالم رباني، إلا أنه يربي نفسه أولاً ثم يربي غيره ثانيًا. اهـ. تعريف العالم الرباني.

إذًا لابد من العمل بما يعلم، لأنه إذا لم يعمل بعلمه صار من أول من تسعَّر بِهم النار يوم القيامة[١]:

وعالم بعلمه لم يعملن معذبًا من قبل عُبَّاد الوثن

هذه واحدة، إذا لم يعمل بعلمه أورث الفشل في العلم، وعدم البركة، ونسيان العلم، لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾. وهذا النسيان يشمل النسيان الذهني والعلمي، قد يكون معنى ينسونه ذهنيًا، أو ينسونه: يتركونه، لأن النسيان في اللغة العربية، يطلق بمعنى الترك[٢]، أما إذا عمل الإنسان بعلمه فإن الله تعالى يزيده هدى، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾. ويزيده تقوى؛ ولهذا قال: ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾. وإذا عمل بعلمه ورثه الله تعالى علم ما لم يعلم، ولهذا روي عن الإمام عليٍّ رضي الله عنه قال: هتف العلم بالعمل؛ فإن أجابه وإلا ارتحل.

وتروى هذه اللفظة: العلم يهتف بالعمل - يعني: يدعوه - فإن أجاب وإلا ارتحل. من الذي يرتحل؟ العلم، وهذا واضح؛ لأنك إذا عملت بالعلم، تذكرته كلما عملت، وأضرب لكم مثلاً برجل عرف صفة الصلاة من السنة فصار يعمل بِها كلما صلى؟ هل ينسى ما علم، لا ينسى؛ لأنه تكرر عليه، لكن لو ترك العمل به ينسى،

---

(١) لحديث أبي هريرة رضي الله عنه: «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به فعرفه نعمه، فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: فلان جريء، فقد قيل. ثم أُمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار...) أخرجه أحمد (٨٢٦٠)، ومسلم برقم (١٩٠٥)، والترمذي برقم (٢٣٨٢)، وقال: هذا حديث حسن غريب، والنسائي برقم (٢٣).

(٢) انظر «المفردات في غريب القرآن» للراغب الأصفهاني (ص٤٩٣).

وهذا دليل محسوس على أن العملَ بالعلم يوجب ثبات العلم، ولا ينساه. اهـ.

٤- دوام المراقبة:

التحلي بدوام المراقبة لله تعالى في السرِّ والعلن. سائرًا إلى ربك بين الخوف والرجاء، فإنَّهما للمسلم كالجناحين للطائر، فأقبل على الله بكليتك، وليمتلئ قلبك بمحبته، ولسانك بذكره، والاستبشار والفرح والسرور بأحكامه وحكمه، سبحانه.

☆ الشـــــرح ☆

هذا من المهم [وهو] دوام المراقبة لله، وهذا من ممرات الخشية، أن الإنسان يكون دائمًا يعبد الله كأنه يراه، يقوم في الصلاة فيتوضأ، وكأنه ينفذ قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾. يقوم يتوضأ، وكأنه ينظر إلى رسول الله ﷺ وهو يتوضأ ويقول: «من توضأ نحو وضوئي هذا»[1]. كمال المراقبة، وهو أمر مهم.

وقوله:

يكون سائرًا بين الخوف والرجاء فإنَّهما للمسلم كالجناحين للطائر. هذا أحد الأقوال في هذه المسألة، وهي: هل الأَوْلى للإنسان أن يسير إلى الله بين الخوف والرجاء أم يغلب جانب الخوف على جانب الرجاء؟

الإمام أحمد رحمه الله يقول: ينبغي أن يكون خوفه ورجاءه واحدًا؛ فأيُّهما غلب هلك صاحبه. ومن العلماء من يفصل، ويقول: إذا هممت بطاعة، فغلب جانب الرجاء، فإنك إذا فعلتها قَبِلَ الله منك ورفعك بِها درجات من أجل أن تقوى، وإذا هممت بمعصية فغلِّب جانب الخوف حتى لا تقع فيها، فعلى هذا يكون التغليب لأحدهما بحسب حال الإنسان، ومنهم من قال: بحسب الحال على وجه آخر، فقال: أما في المرض فيغلب جانب الرجاء؛ لأن النبي ﷺ قال: «لا يموتن أحدكم إلى وهو يحسن الظن بربه»[2]. ولأنه إذا غلب في حال المرض جانب الخوف، فربما يدفعه ذلك إلى القنوط من رحمة الله، وفي حال الصحة يغلّب جانب الخوف؛ لأن الصحة مَدعاة للفساد، كما قال الشاعر الحكيم:

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٤١٨، ٤١٩)، والبخاري برقم (١٥٩، ١٦٠)، ومسلم برقم(٢٢٦).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده برقم «١٤٠٥٧»، وأبو داود برقم (٣١١٣)، ومسلم برقم (٢٨٧٧)، وابن ماجه (٤١٦٧).

إن الشباب والفراغ والجده مفسدة للمرء أي مفسده[١]

يعني مفسدة عظيمة، والذي أرى أن الإنسان يجب أن يعامل حاله لما تقتضيه الحال، وإن أقرب الأقوال في ذلك أنه إذا عمل خيرًا فليغلب جانب الرجاء، وإذا هم بسيئة فليغلب جانب الخوف، وهذا أحسن ما أراه في هذه المسألة الخطيرة العظيمة، طيب؛ إذا قال قائل: تغليب جانب الرجاء، هل يجب أن يكون مبنيًا على سبب صالح للرجاء أو يكون رجاء المفلسين؟

الأول: يعني إنسان -مثلاً- يعصي الله دائمًا وأبدًا ويقول: رحمة الله واسعة. هذا غلط؛ لأن إحسان الظن بالله، ورجاء الله، لابد أن يكون هناك سبب ينبني عليه الرجاء، وإحسان الظن، وإلا كان مجرد أمنية، والتمني كما يقول عامة أهل نجد، يعني: العوام من أهل نجد يقولون: التمني رأس مال المفاليس. أتعرفون المفاليس من هم؟ هم الذين ليس عندهم شيء؛ فيقول: إن شاء الله سأتاجر، وسيصير عندي أموال وأشياء عظيمة. فهذه حكيت لنا والله أعلم، هل تصح أم لا ؟ لكن، يعني: حال الأولين وبلاهتهم، يعني يمكن أن تكون هكذا والله أعلم. اهـ.

٥-خفض الجناح ونبذ الخيلاء والكبرياء:

تحل بآداب النفس؛ من العفاف، والحلم، والصبر، والتواضع للحق، وسكون الطائر من الوقار، والرزانة، فخفض الجناح، متحملاً ذل التعلم لعزة العلم، ذليلاً للحق.

☆ الشـــــرح ☆

قوله: تحل بآداب النفس من العفاف والحلم والصبر والتواضع للحق. لأن المقام يقتضي هكذا، أن يكون عند طالب العلم عفة عما في أيدي الناس، وعفة عما يتعلق بالنظر المُحَرَّم، وحلم لا يعاجل بالعقوبة إذا أساء إليه أحد، وصبر على ما يحصل من الأذى مما يسمعه إما من عامة الناس، وإما من أقرانه، وإما من معلمه؛ فليصبر وليحتسب، والتواضع للحق، وكذلك للخَلْقِ، يتواضع للحق، بمعنى أنه متى بان له الحق خضع ولم يبغ سواه بديلاً، وكذلك للخَلْق، فكم من طالب فتح على معلمه أبوابًا ليست على بالٍ منه، ولا تحقرن شيئًا.

---

(١) البيت لأبي العتاهية. انظر «ربيع الأبرار ونصوص الأخبار» للزمخشري.

وقوله: وسكون الطائر من الوقار، والرزانة، وخفض الجناح.. هذه أيضًا ينبغي لطالب العلم أن يبتعد عن الخفة، سواء كان في مشيته، أو في تعامله مع الناس، وألا يكثر من القهقهة التي تُميت القلب، وتذهب الوقار[١]، بل يكون خافضًا للجناح، متأدبًا بالآداب التي تليق بطالب العلم.

وقوله: متحملاً ذل التعلم لعزة العلم. هذا جيد؛ يعني: أنك لو أذللت نفسك للتعلم؛ فإنما تطلب عزها بالعلم، فيكون تذليلها بالتعلم؛ لأنه ينتج ثمرة طيبة. اهـ.

وعليه فاحذر نواقض هذه الآداب، فإنَّها مع الإثم تقيم على نفسك شاهدًا على أن في العقل علة، وعلى حرمان من العلم والعمل به، فإياك والخُيلاء، فإنه نفاق وكبرياء، وقد بلغ من شدة التوقي منه عن السلف مبلغًا.

☆ الشـــــرح ☆

الخيلاء[٢]هذه تحدث للإنسان طالب العلم، وللإنسان كثير المال، وللإنسان سديد الرأي، وكذلك في كل نعمة أنعمها الله على العبد، ربما يحصل عنده خيلاء، والخيلاء: هي الإعجاب بالنفس مع ظهور ذلك على هيئة البدن، كما جاء في الحديث: «من جَرَّ ثوبه خيلاء»[٣] فالإعجاب يكون بالقلب فقط؛ فإن ظهرت آثاره فهو خيلاء.

وقوله: إنه نفاق وكبرياء. أما كونه كبرياء فواضح، وأما كونه نفاقًا فلأن الإنسان يظهر بمظهر أكبر من حجمه الحقيقي، وهكذا المنافق يظهر بمظهر المخلص الناصح وهو ليس كذلك. اهـ.

ومن دقيقه مما أسنده الذهبي[٤] في ترجمة عمرو بن الأسود العنسي، المتوفَى في

---

(١) لحديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لا تكثر الضحك، فإن كثرة الضحك تميت القلب». رواه ابن ماجه برقم (٤١٩٣)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢/ ٣٢) برقم (٥٠).

(٢) الخيلاء: التكبر عن تحيُّل فضيلة تراءت للإنسان من نفسه، ومنه يتأول لفظ الخيل لما قيل: إنه لا يركب أحد فرسًا إلا وجد نفسه نحوه (ص٦٩)، المفردات «مختار الصحاح» للرازي (ص ١١٥)، مادة (حبل).

(٣) أخرجه أحمد برقم (٤٨٨٤)، والبخاري برقم (٤٧٨٤)، ومسلم برقم (٢٠٨٥)، وأبو داود برقم (٤٠٨٥)، والنسائي برقم (٥٣٢٨-٥٣٣٠).

(٤) هو محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن الذهبي شمس الدين أبو عبد الله الحافظ، مؤرخ الإسلام العلامة المحقق المصنف صاحب التصانيف البديعة في التاريخ والرجال وغيرها، شافعي المذهب من غير تقيد، تتلمذ على شيخ الإسلام ابن تيمية، وتأثر به خصوصًا في الاعتقاد، وتتلمذ على الحافظ المزي، وزامل ابن القيم وابن كثير، توفي رحمه الله سنة (٧٤٨هـ). «فوات الوفيات» (٣/ ٣١٥).

خلافة عبد الملك بن مروان[١] - رحمه الله تعالى -: أنه كان إذا خرج من المسجد قبض بيمينه على شماله، فسئل عن ذلك، فقال: مخافة أن تنافق يدي.

الله أكبر، من القائل؟ الذهبي.

قلت: يمسكها خوفًا من أن يخطر بيده في مشيته، فإن ذلك من الخيلاء.

☆ الشـــــرح ☆

يخطر بيده يعني: يحركها تحريكًا معيَّنًا يدل على أنه عنده كبرياء، وعنده خيلاء، فيقبض بيمينه على شماله لئلا تتحرك.

قوله: ومن دقيقة: الحذر من نواقض هذه الآداب التي ذكرها.

وهذا العارض عرض للعنسي - رحمه الله تعالى - واحذروا داء الجبابرة - الكبر- فإن الكبر والحرص والحسد أول ذنب عُصِي الله به.

فتطاولك على معلمك كبرياء، واستنكافك عمن يفيدك ممن هو دونك كبرياء، وتقصيرك عن العمل بالعلم حمأة كبر وعنوان حرمانٍ.

العلم حرب للفتى المتعالي كالسيل حرب للمكان العالي

☆ الشـــــرح ☆

احذر داء الجبابرة وهو الكبر[٢]، وقد فسره النبي ﷺ بأحسن تفسير، وهو أن الكبر بَطَرُ الحق وغَمْط الناس[٣]. يعني: احتقارهم وازدراؤهم.

---

(١) هو الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، من أعاظم الخلفاء ودهاتهم، وُلد سنة ٢٦هـ، ونشأ في المدينة فقيهًا متعبدًا ناسكًا، استعمله معاوية على المدينة وعمره ست عشرة سنة، ولي الخلافة سنة ٥٦هـ، وتوفي بدمشق سنة ٨٦هـ. «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٢٤٦)، و«وفيات الأعيان» (٢/ ٣٠٥).

(٢) الكبر: الحالة التي يتحقق بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره، وأعظم التكبر؛ التكبر على الله بالامتناع من قبول الحق، والإذعان له بالعبادة، والاستكبار. انظر «المفردات في غريب القرآن» للراغب الأصفهاني (ص٤٢٣، ص٤٢٤).

(٣) لحديث عبد الله بن مسعود، أخرجه أحمد (٣٦٤٤)، ومسلم برقم (٩١)، وأبو داود برقم (٤٠٢)، =والترمذي برقم (١٩٩٩) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، وابن ماجه في الزهد برقم(٤١٧٣).

وقوله: إن الكبر والحرص والحسد أول ذنب عصى الله به يريد فيما نعلم لأننا نعلم أن أول من عصى الله عزَّ وجلَّ هو الشيطان حين أمره الله سبحانه وتعالى أن يسجد لآدم لكن منعه الكبرياء، فأبى واستكبر، وقال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١]. وقال: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ [الإسراء: ٦٢]. وقال لما أمره ربه أن يسجد قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

فقوله: إنه أول ذنب عصي الله به. يعني باعتبار ما نعلم وإلا فإن الله عزَّ وجلَّ قال للملائكة: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾. قال أهل العلم: إنما قال الملائكة ذلك؛ لأنه كان على الأرض أمة من قبل آدم وبنيه كانوا يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، ثم ذكر أمثلة:

قال: تطاولك على معلمك كبرياء. التطاول: يكون باللسان، ويكون أيضًا بالانفعال، قد يمشي مع معلمه وهو يتبختر، ويقول: فعلت وفعلت. وكذلك أيضًا: استنكافك عمن يفيدك ممن هو دونك كبرياء، وهذا أيضًا يقع لبعض الطلبة إذا أخبره أحد بشيءٍ وهو دونه في العلم استنكف ولم يقبل.

وقوله: تقصيرك عن العمل بالعلم حمأة كبر وعنوان حرمان. نسأل الله العافية لأن هذا نوع من الكبر، ألاَّ تعمل بالعلم.

وقوله: العلم حرب للفتى المتعالي. يعني: أن الفتى المتعالي لا يمكن أن يدرك العلم؛ لأن العلم حرب له كالسيل حرب للمكان العالي، صحيح... نعم... المكان العالي ينفض عنه السيل يمينًا وشمالًا، ولا يستقر عليه.

فالزم - رحمك الله - اللصوق إلى الأرض، والإزراء على نفسك، وهضمها، ومراغمتها عن الاستشراف لكبرياء، أو غطرسة، أو حب ظهور، أو عجب... ونحو ذلك من آفات العلم القاتلة له، المذهبة لهيبته، المطفئة لنوره، وكلما ازددت علمًا أو رفعة في ولاية، فالزم ذلك، تحرز سعادة عظمى، ومقامًا يغبطك عليه الناس.

وعن عبد الله بن الإمام[1] الحجة الراوية في الكتب الستة بكر بن عبد الله المزني

---

(١) هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل، نشأ في بيت والده الإمام أحمد، وتربى على يده، وسمع منه كل حديثه، ولذا صار من أكثر الناس رواية عن أبيه، قال عنه الخطيب الغدادي: كان ثقةً ثبتًا، متقنًا. اهـ. ولد سنة عشرة ومائتين، وتوفي سنة تسعين ومائتين.
«طبقات الحنابلة» (١/ ٨٦).

- رحمهما الله تعالى، قال: سمعت إنسانًا يحدث عن أبي، أنه كان واقفًا بعرفة، فرقَّ، فقال: لولا أني فيهم لقلت: قد غفر الله لهم. خرجه الذهبي، ثم قال: قلت: كذلك ينبغي للعبد أن يزدري على نفسه ويهضمها[١].

☆ الشـــــرح ☆

وهذه العبارات التي تطلق عند السلف بمثل هذا يريدون به التواضع وليسوا يريدون أنَّهم يغلبون جانب سوء الظن بالله عزَّ وجلَّ أبدًا، لكنهم إذا رأوا ما هم عليه، خافوا وحذروا، وجرت منهم هذه الكلمات وإلا فإن الأولى بالإنسان أن يحسن الظن بالله، ولا سيما في هذا المقام - في مقام عرفة - الذي هو مقام دعاء وتضرع لله عزَّ وجلَّ، ويقول مثلاً: إن الله لم ييسر لي الوصول إلى هذا المكان إلا من أجل أن يغفر لي، وإني أسأله المغفرة، والله تعالى يقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾. لكن تكررت مثل هذه العبارات عند السلف من باب التواضع وسوء الظن بالنفس، لا بالله عزَّ وجلَّ. اهـ.

٦- القناعة والزهادة:

التحلي بالقناعة والزهادة، وحقيقة الزهد: الزهد بالحرام والابتعاد عن حِمَاه، بالكف عن المشتبهات وعن التطلع إلى ما في أيدي الناس.

☆ الشـــــرح ☆

التحلي بالقناعة من أهم خصال طالب العلم، يعني: أن يقتنع بما أتاه الله عزَّ وجلَّ، ولا يطلب أن يكون في مصافِّ الأغنياء والمترفين؛ لأن بعض طلبة العلم وغيرهم، تجده يريد أن يكون في مصاف الأغنياء والمترفين، فيتكلف النفقات في المأكل والمشرب والملبس والمفرش، ثم يثقل كاهله بالديون، وهذا خطأ، بل عليك بالقناعة؛ فإنه زاد المسلم، وأما الزهادة فيقول: حقيقة الزهد، الزهد بالحرام والابتعاد عن حِماه بالكف عن المشتبهات، وكأنه أراد بالزهد هنا: الورع؛ لأن هناك ورعًا وزهدًا، والزهد: أعلى مقامًا من الورع؛ لأن الورع: ترك ما يضر في الآخرة، والزهد: ترك ما لا ينفع في الآخرة، فبينهما فرق، الفرق الذي بينهما: المرتبة التي

---

(١) «السيرة» (٤/ ٥٣٤) (الشيخ بكر).

ليس فيها ضرر، وليس فيها نفع، فالورع لا يتحاشاها، والزاهد يتحاشاها ويتركها، لأنه لا يريد إلا ما ينفعه في الآخرة. اهـ.

ويؤثر عن الإمام الشافعي[١] -رحمه الله تعالى-: لو أوصى الإنسان لأعقل الناس، صرف إلى الزهاد.

☆ الشـــــرح ☆

الله أكبر يعني: في الوصية: لو قال: أوصيت لأعقل الناس، يصرف إلى من؟ إلى الزهاد؛ لأن الزهاد هم أعقل الناس، حيث تجنبوا ما لا ينفعهم في الآخرة، وهذا الذي قاله - رحمه الله - ليس على إطلاقه؛ لأن الوصايا والأوقاف والهبات والرهون وغيرها ترجع إلى معناها في العرف؛ فإذا كان أعقل الناس في عرفنا هم الزهاد، صرف لهم ما أوصى به للزهاد، وإذا كان أعقل الناس هم ذوو المروءة والوقار والكرم في المال والنفس صرف إليهم. اهـ.

وعن محمد بن الحسن الشيبانِي[٢]-رحمه الله تعالى- لما قيل له: ألا تصنف كتابًا في الزهد؟ قال: قد صنفت كتابًا في البيوع[٣]. يعني: الزاهد من يتحرز عن الشبهات، والمكروهات، في التجارات، وكذلك في سائر المعاملات والحِرَف.

☆ الشـــــرح ☆

لما طلب منه أن يصنف كتابًا في الزهد قال: قد صنعت كتابًا في البيوع؛ لأن من عرف البيوع وأحكامها، وتحرز عن الحرام، واستحل الحلال؛ فإن هذا هو الزاهد. اهـ.

---

(١) هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع، ولد سنة (٥٠ هـ) وتفقه على مسلم بن خالد الزنجي، وسفيان بن عيينة بمكة، وعلى مالك بالمدينة رحمه الله، ألف الشافعي رسالة في الأصول، وهو أول من صنف في هذا العلم، توفي رحمه الله سنة (٢٠٤ هـ). «طبقات الشافعية» للسبكي (١/ ١٩٠).

(٢) هو محمد بن الحسن بن فرقد، أبو عبد الملك الشيباني، الكوفي، فقيه العراق، وصاحب أبي حنيفة، ولي القضاء للرشيد بعد أبي يوسف، كان ذكيًا يضرب به المثل، قيل للإمام أحمد: من أين لك هذه المسائل الدقاق؟ قال: من كتب محمد بن الحسن. توفي سنة تسع وثمانين ومائة بالري. «سير أعلام النبلاء» (٩/ ١٣٤).

(٣) «تعليم المتعلم» للزرنوجي (ص ٢٨). (الشيخ بكر).

وعليه، فليكن معتدِلا في معاشه بما لا يشينه، بحيث يصون نفسه ومن يعول، ولا يرد مواطن الذلة والهَون، وقد كان شيخنا محمد الأمين الشنقيطي[١] المتوفى في سنة ١٣٩٣/١٢/١٧هـ -رحمه الله تعالى- متقلِّلا من الدنيا، وقد شاهدته لا يعرف فئات العملة الورقية، وقد شافهني بقوله: لقد جئت من البلاد - شنقيط - ومعي كنْز قل أن يوجد عند أحد، وهو القناعة، ولو أردت المناصب، لعرفت الطريق إليها، ولكني لا أوثر الدنيا على الآخرة، ولا أبذل العلم لنيل المآرب الدنيوية، فرحمه الله تعالى رحمة واسعة آمين.

☆ الشـــــرح ☆

هذا الكلام من الشيخ الشنقيطي وأشباهه من أهل العلم لا يريدون بذلك تزكية النفس، إنما يريدون بذلك نفع الخَلْقِ، أن يقتدي الناس بِهم، وأن يكونوا على هذا الطريق؛ لأننا نعلم هذا من أحوالهم - أي: من أحوال العلماء - ولأنَّهم لا يريدون تزكية النفس، وهم أبعد الناس عن ذلك، وهو - رحمه الله - كما ذكره الشيخ بكر - من الزهاد إذا رأيته لا تقول إلا أنه رجل من أهل البادية، حتى [العباءة]؛ تجد أن عليه عباءة عادية، ما فيها هذا الزي، وكذلك الثياب ولا تجده يهتم بِهندمة نفسه وثيابه رحمه الله. اهـ.

٧-التحلي برونق العلم:

حسن السَّمت، والهدي الصالح، من دوام السكينة، والوقار، والخشوع، والتواضع، ولزوم المحجة، بعمارة الظاهر والباطن، والتخلي عن نواقضها.

☆ الشـــــرح ☆

هذا قد يكون فرعًا لما سبق؛ فإن حسن السَّمت والهدي الصالح، من دوام السكينة، والوقار والخشوع والتواضع قد سبق الإشارة إليها؛ فإنه ينبغي لطالب العلم أن يكون أسوة صالحة في هذه الأمور. اهـ.

---

(١) هو العلامة محمد بن الأمين بن المختار الجنكي الشنقيطي، وُلد عام ١٣٢٥هـ في شنقيط، وبها ترعرع، فحفظ القرآن وهو صغير، ودرس بعض المختصرات الفقهية والنحوية، ثم توسع في طلبه للعلم، حتى أصبح يشار إليه بالعلم والفقه، جاء إلى مكة لأداء فريضة الحج وقرر البقاء بجوار الحرمين، وتنقل في عدة مناصب علمية، واستقر به المقام أخيرًا بالمدينة، حيث درس بها كثيرًا في الجامعة الإسلامية والحرم النبوي إلى أن مات رحمه الله سنة ١٣٩٣هـ. للمزيد عن ترجمته يُنظر «أضواء البيان» (١/ ٩٩٣).

وعن ابن سيرين[١] -رحمه الله تعالى- قال: كانوا يتعلمون الهدي كما يتعلمون العلم.

وعن رجاء بن حيوة[٢]- رحمه الله تعالى - أنه قال لرجل: «حدثنا ولا تحدثنا عن متماوت ولا طعَّان». رواهما الخطيب في «الجامع»[٣]، وقال: «يجب على طالب الحديث أن يتجنب اللعب، والعبث، والتبذل في المجالس، بالسخف، والضحك، والقهقهة، وكثرة التنذُّر، وإدمان المزاح والإكثار منه، فإنما يستجاز من المزاح بيسيره ونادره وطريفه، والذي لا يخرج عن حد الأدب، وطريقة العلم، فأما متصله، وفاحشه، وسخيفه، وما أوغر الصدور وجلب الشرّ، فإنه مذموم، وكثرة المزاح والضحك تضع من القَدْرِ وتزيل المودة». اهـ[٤].

☆ الشـــــرح ☆

هذا من أحسن ما قيل في الآداب - آداب طالب العلم - أن يتجنب اللعب، والعبث، إلا ما جاءت به الشريعة كاللعب برمحه، وسيفه، وفرسه؛ لأن ذلك يعينه على الجهاد في سبيل الله، وكذلك في وقتنا الحاضر اللعب بالبنادق الصغيرة، التي يسمونَها «بندق أبو حبة» هذا لا بأس به، وكذلك العبث، وهو أن يفعل فعلاً لا داعي له، أو يقول قولاً لا داعي له، كذلك التبذل في المجالس بالسخف، والضحك، والقهقهة، وكثرة التنادر، وإدمان المزاح، والإكثار منه، لا سيما عند عامة الناس، أما عند أصحابك وأقرانك فالأمر أهون، لكن عند عامة الناس، إياك أن تفتح على نفسك بابَ الامتهانِ، فإن ذلك تذهب الهيبة من قلوب الناس، فلا يهابونك ولا يهابون العلم الذي [تأتي] به. اهـ.

وقد قيل: مَنْ أكثر مِنْ شيءٍ عُرِفَ به. فتجنب هاتيك السقطات في مجالستك

---

(١) هو محمد بن سيرين الأنصاري، أبو بكر بن أبي عمارة البصري، ثقة، ثبت، عابد، كبير القدر، كان لا يرى الرواية بالمعنى، مات سنة عشر ومائة. «وفيات الأعيان» (٢/ ٨١).

(٢) هو الإمام القدوة رجاء بن حيوة أبو المقدام الكندي الشامي التابعي الفقيه الوزير العادل، كان شريفًا نبيلاً، وكان أفقه أهل الشام في عصره، توفي سنة (١١٢هـ). «وفيات الأعيان» (٢/ ٣٠١).

(٣) هو الحافظ المؤرخ أحمد بن علي بن ثابت البغدادي، أبو بكر أحد الأئمة الأعلام، توفي رحمه الله ببغداد سنة ٤٦٣هـ. «سير أعلام النبلاء» (١٨/ ٢٧٠).

(٤) الجامع للخطيب البغدادي (١/ ١٥٦). (الشيخ بكر).

ومحادثتك، وبعض من يجهل يظن أن التبسط في هذا أريحية. وعن الأحنف بن قيس قال: جنبوا مجالسنا ذكر النساء والطعام، إني أبغض الرجل يكون وصَّافًا لفرجه وبطنه[١]

☆ الشـــــرح ☆

الله المستعان!! صحيح؛ لأن هذا يشغل عن طلب العلم، مثل أن يقول: أكلت البارحة أكلًا حتى ملأت البطن، وما أشبه ذلك من الأشياء التي لا داعي لها، أو يتكلم فيما يتعلق بالنساء، أما إذا كان يتكلم بما يكون بينه وبين أهله، فذلك من أشَرِّ الناس منزلة عند الله يوم القيامة[٢]، الرجل يكون مع أهله، ثم يصبح يحدِّث الناس بما فعل؛ فإن هذا من أشر الناس منْزلة عند الله عزَّ وجلَّ.

وفي كتاب «المحدث الملهم» أمير المؤمنين عمر بن الخطاب[٣] رضي الله عنه في القضاء: ومن تزين بما ليس فيه، شانه الله، وانظر شرحه لابن القيم رحمه الله تعالى.

☆ الشـــــرح ☆

يقول - رحمه الله - وفي كتاب «المحدث الملهم»: محدث؛ يعني به عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ لأن النبي ﷺ قال: «إن يكن فيكم محدثون فعمر»[٤]، والمراد: الملهم؛ الذي يلهمه الله عزَّ وجلَّ وكأنه يحدث بالوحي، وقد أشكل هذا على بعض العلماء، حيث قالوا: إن هذا يقتضي أن عمر أفضل الصحابة؛ لأنه قال: «إن يكن فيكم محدثون فعمر». لكن أجاب شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - بأن عمر إنما يتلقى الإصابة بواسطة، أما أبو بكر فيتلقاها بلا واسطة، وعلى هذا فيكون أفضل من عمر ومن رأى تصرف أبي بكر رضي الله عنه في مواقع الشدة، علم أنه أقرب للصواب من عمر، ففي كتاب الصُّلح[٥] الذي وقع بين النبي ﷺ وقريش،

---

(١) «سير أعلام النبلاء»، (٤/ ٩٤) (الشيخ بكر).

(٢) لحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «شر الناس منْزلة عند الله يوم القيامة، الرجل يفضي إلى المرأة، وتفضي إليه، ثم ينشر سرَّها». أخرجه مسلم برقم (١٤٣٧)، وأبو داود برقم (٤٨٧٠).

(٣) «إعلام الموقعين» (٢/ ١٦١، ١٦٢). (الشيخ بكر).

(٤) =تقدم تخريجه.

(٥) رواه البخاري (٣١٨١، ٣١٨٢)، ومسلم برقم (١٧٨٥).

وراجع عمر فيه رسول الله ﷺ وأجابه ثم راجع أبا بكر فأجابه بما أجابه به رسول الله ﷺ، حرفًا بحرف، وفي قتال أهل الردة[١].

وكذلك في تنفيذ جيش أسامة بن زيد[٢]، وكذلك في تثبيت الناس يوم وفاة النبي ﷺ[٣] كل هذا يدل على أن أبا بكر أصوب رأيًا من عمر؛ لكن الذي أظهر عمر رضي الله عنه هو طول خلافته، وتفرغه لأمور المسلمين العامة والخاصة، وكان مشتهرًا بذلك رضي الله عنه؛ ولهذا نحن نقول: أيهما أكثر رواية للحديث أبو هريرة أم أبو بكر؟

أبو هريرة، هل يعني ذلك أن أبا هريرة رضي الله عنه أكثر تلقيًا للحديث من الرسول ﷺ من أبي بكر؟

لا، لكن أبا بكر لم يحدث بما روى عن الرسول ﷺ، وإلا فأبو بكر صاحب رسول الله ﷺ صيفًا وشتاء، ليلاً ونهارًا، سفرًا وإقامةً؛ فهو أكثر الناس تلقيًا عنه، وأعلم الناس بأحواله، ولكن لم يتفرغ ليجلس للناس ليعرفهم بما رواه عن النبي ﷺ.

فالحاصل أن بِهذا يبين الجواب أن الحديث «إن يكن فيكم محدثون فعمر» يقول في الكتاب الذي كتبه أبو موسى إليّ في القضاء: من تزين بما ليس فيه شانه الله. الله أكبر!!! هذا حقيقة، إذا تزين إنسان بأنه طالب علم وقام يضرب الجبلين بعضهما ببعض، وكل من أتاه يسأله من مسائل العلم، شمر عن أكمامه، وقال: أنا صاحبها، هذا حلال، وهذا واجب، وهذا فرض كفاية، وهذا فرض عين، وهذا يشترط فيه كذا وكذا، وهذا ليس له شروط، وقام يفصِّل ويجمِل، ولكن يأتيه طالب علم صغير، ويقول: أخبرنا عن كذا؛ فإذا بالله يفضحه ويبين أنه ليس بعالم، وكذلك من تزين

---

(١) لحديث أبي هريرة رضي الله عنه، الذي رواه البخاري، قال: لما توفي رسول الله ﷺ وكان أبو بكر رضي الله عنه، وكفر من كفر من العرب، فقال عمر: فكيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله»؟ رواه البخاري برقم (٣٩٩، ٤٠٠)، ومسلم برقم (٢٠-٢٢).

(٢) لحديث عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ بعث بعثًا وأمَّر عليهم أسامة بن زيد، فطعن الناس في إمارته، فقال رسول الله ﷺ: «إن تطعنوا في إمارته، فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وايم الله إن كان لخليقًا، وإن هذا لمن أحب الناس إليَّ بعده». رواه البخاري برقم (٣٧٣٠)، ومسلم برقم (٢٤٢٦).

(٣) رواه البخاري برقم (٣٦٦٧-٣٦٧٠) من حديث عائشة وابن عباس - رضي الله عنهم -.

بعبادة أظهر للناس أنه عابد فلابد أن يفضحه الله عزَّ وجلَّ، لابد أن ينكشف، أعاذنا الله وإياكم من الرياء... آمين -«المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور»[١].

ومهما تكن عند امرئٍ من خليقة وإن خالها تخفَى على الناس تعلم[٢]

ومهما يكتم الناس فالله يعلمه، وسيفضح من لا يعمل من أجله، فهذه العبارة من عمر رضي الله عنه: زن بِها جميع أعمالك، من تزين بما ليس فيه شانه الله.

قال الشيخ بكر أبو زيد وفقه الله: وانظر شرحها لابن القيم رحمه الله: شرحها ابن القيم في كتاب «إعلام الموقعين» شرحًا طويلاً، حتى تكاد تقول: إن جميع الكتاب هو ثلاث مجلدات كبار، كان شرحًا لهذا الحديث، وإن لم يكن شرحًا لألفاظه، لكن شرح لألفاظه من وجه، وشرح لمعانيه وحكمه من وجه؛ فلهذا أشار بكر أبو زيد إلى أن ينظر إلى هذا الشرح. اهـ.

٨- تَحلَّ بالمروءة[٣]:

التحلي بـ (المروءة)، وما يحمل إليها من مكارم الأخلاق، وطلاقة الوجه، وإفشاء السلام، وتحمل الناس، والأنفة من غير كبرياء، والعزة في غير جبروت، والشهامة في غير عصبية، والحمية في غير جاهلية.

☆ الشـــــرح ☆

يقول: التحلي بالمروءة. فما هي المروءة؟

حدها الفقهاء - رحمهم الله - في كتاب الشهادات قالوا: هي فعل ما يجمله، ويزينه، واجتناب ما يدنسه، ويشينه. وهذه عبارة عامة، كل شيء يجملك عند الناس، ويزينك ويكون سببًا للثناء عليك فهو مروءة، وإن لم يكن من العبادات، وكل شيء بالعكس فهو خلاف المروءة.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٢١٩)، ومسلم برقم (٢١٢٩، ٢١٣٠)، وأبو داود برقم (٤٩٩٧) من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما.

(٢) البيت لزهير بن أبي سلمى وهو في ديوانه برقم (٥٨)، وكان حكيم الشعراء في الجاهلية.

(٣) فيها مؤلفات مفردة. انظر: معجم الموضوعات المطروقة (ص٣٩٢). (الشيخ بكر).

ثم ضرب لهذا مثلًا فقال: من مكارم الأخلاق، فما هو كرم الخلق؟ [هو] أن يكون الإنسان دائمًا متسامحًا، وأن يتسامح في موضع التسامح، ويأخذ بالعزم في موضع العزيمة.

ولذلك جاء الدين الإسلامي وسطًا بين التسامح الذي تضيع به الحقوق، وبين العزيمة التي ربما تحمل على الجَوْر، فنضرب مثلًا بالقصاص، وهو قتل النفس بالنفس، يذكر أن بني إسرائيل انقسمت شرائعهم في القصاص إلى قسمين:

قسم أوجب القتل، ولا خيار لأولياء المقتول فيه، وهي شريعة التوراة؛ لأن شريعة التوراة تميل إلى الغِلظة والشدة.

وقسم آخر أوجب العفو، وقال: إنه إذا قتل الإنسان عمدًا فالواجب على أوليائه التسامح، هكذا نقرأ في الكتب المنقولة... لم أقف على نص فيه وإلا فإن الأصل أن شريعة الإنجيل هي شريعة التوراة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥].

لكن فيما ينقل عن بني إسرائيل نسمع هذا، فجاء الدين الإسلامي وسطًا، وجعل الخيار لأولياء المقتول، إن شاءوا قتلوا قصاصًا، ولهم الحق، وإن شاءوا عفوا مجانًا، وإن شاءوا أخذوا الديَة، فصار الأمر في ذلك واسع، ومعلوم أن كل عاقل يخير في مثل هذه الأمور، سيختار ما فيه المصلحة العامة، يقدمها على كل شيءٍ.

فمثلًا إذا كان هذا الرجل شريرًا - أعني: القاتل - وأولياء المقتول يحبون المال، وقالوا: نريد أن نعفو إلى الدية؛ لأننا محتاجون ليس عندنا مال. نقول: هذه ليست من الحكمة، انظروا إلى المصالح العامة، وأنتم إذا تركتم شيئًا لله عوضكم الله خيرًا منه، اقتلوا هذا القاتل، ولهذا أوجب شيخ الإسلام ابن تيمية تبعًا للإمام مالك - رحمه الله - أوجب قتل القاتل غِيلة حتى لو عفا أولياؤه، حتى لو كان له صغار يحتاجون إلى المال فإنه يقتل؛ لأن القتل الغيلة لا يمكن التخلص منه، إذ إن الإنسان اغتيل في حال لا يمكن أن يدافع عن نفسه، والمغتال مفسد في الأرض [قال تعالى]: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣٣].

إذن مكارم الأخلاق ما هي؟ هي أن يتخلق الإنسان بالأخلاق الفاضلة الجامعة بين العفو والإحسان؛ فيأخذ بالحزم في موضع الحزم، وباللين واليسر في موضع اللين واليسر وطلاقة الوجه، أيضًا طلاقة الوجه من مكارم الأخلاق، وهل مثلًا أطلق وجهي لكل إنسان، حتى لو كان من أجرم المجرمين؟

لا . . . على حسب الحال، أطلق الوجه في ستة من تسعة ما معنى هذا؟

يعني في الثلثين والثلث دعه لما تقتضيه الحال، ليكن سَمْتُكَ طلاقة الوجه، هذا أحسن شيءٍ تجذب الناس إلى نفسك، ويحبك الناس، ويستطيعون أن يفضوا إليك ما يفضون من أسرارهم، لكن إذا كنت عبوسًا تعض على شفتك السفلى، فإن الناس يهابونك ولا يستطيعون أن يتكلموا معك، لكن إذا اقتضت الحال ألَّا تطلق الوجه فافعل؛ ولهذا لا يلام الإنسان على العبوس له مطلقًا، ولا يمدح على تركها مدحًا مطلقًا.

إفشاء السلام[١]: يعني نشره وإظهاره على من؟ على كل أحد؟

لا ليس على كل أحدٍ، على من يستحق أن يسلم عليه، على المسلم وإن كان عاصيًا وإن كان زانيًا، وإن كان سارقًا، وإن كان مرابيًا وإن كان يشرب الخمر، [فأي] مسلم، ألقي عليه السلام، يقول النبي ﷺ: «لا يحل للمؤمن أن يهجر أخاه المؤمن فوق ثلاث - أو قال: أخاه فوق ثلاث - يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»[٢]. فإن فعل المؤمن منكرًا، ولا سيما إن كان منكرًا عظيمًا، يخشى منه أن يتفتت المجتمع الإسلامي، فحينئذ يكون هجره واجبًا إن نفع الهجر، وإنما أقول ذلك لئلا يرد علينا قصة كعب بن مالك[٣] رضي الله عنه حين تخلف عن غزوة تبوك؛ فإن الرسول ﷺ أمر بِهجره، أمر أن يهجره الناس فهجروه، وصاروا لا يتكلمون معه، حتى إنه ذات يوم تسوَّر حديقة أبي قتادة رضي الله عنه،وهو ابن عمه وأحب الناس إليه، فسلم على أبي قتادة فلم يرد عليه السلام، فسلم ثانية؛ فلم يرد عليه السلام، فسلم ثالثة؛ فلم يرد عليه السلام، فقال: أنشدك الله، هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ يعني كيف تهجرني، وأنا أحب الله ورسوله؟ هل تعلم يعني ألم تعلم ولم يرد عليه، ما قال (نعم)، ولا: (لا)، قال: الله ورسوله أعلم. . . ما أجاب؟ لماذا؟ لأنه النبي ﷺ أمره، ولو أمرهم أن يفعلوا أكبر من ذلك لفعلوا، المهم أن الصحابة هجروه؛ لأنه تخلف عن غزوة تبوك، وكان هجرهم بأمر من رسول الله

---

(١) لحديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أَوَلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم». أخرجه أحمد (٩٠٦١)، ومسلم برقم (٥١٩٣)، والترمذي برقم (٢٦٨٩)، وابن=ماجه برقم (٦٨).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٠٧٧)، ومسلم برقم (٢٥٦)، وأبو داود برقم (٤٩١١) من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري برقم (٢٧٥٧)، ومسلم برقم (٢٧٦٩)، وأبو داود برقم (٤٦٠٠).

ﷺ تصوروا يا إخوان، يأتي ويسلم على الرسول ﷺ فيقول: لا أدري.. أحرك شفتيه برد السلام أم لا.. يعني هو لا يسمع الردّ قطعًا، لكن لا يدري هل حرك شفتيه أم لا، ولكن الرسول يحبه؛ لأن كَعبًا إذا قام يصلي، جعل النبي ﷺ يسارقه النظر، فهل هذا الهجر الذي وقع من الصحابة لكعب بن مالك، هل أثر أم لم يؤثر؟

أثر رجوعًا عظيمًا إلى الله عز وجل ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ [التوبة: ١١٨]. ظنوا: بمعنى أيقنوا لجئوا إلى الله، ففرج الله عنهم، فهذا أثر تأثيرًا عظيمًا، وحصل به مصلحة عظيمة، تتلى قصتهم في كتاب الله، يقرؤها المسلمون كلهم في صلواتهم، وفي خلواتهم، يذكرونَهم كلما مروا بذكرهم، هذه فائدة عظيمة، ثم فيها محنة عظيمة أيضًا لكعب، جاءه كتاب من ملك غسان، فقال له في الكتاب: إنه بلغنا أن صاحبك قَلَاكَ، يعني: أبغضك، وهجرك، وتركك؛ فَالْحق بنا نواسك. يعني: ائت إلينا نجعلك مثلنا، كأنه يشير أن يجعله ملك غسان، فماذا فعل؟ رأى هذه الفتنة عظيمة، ذهب بالورقة فسجر بِها التَّنور، يعني: أحرقها حرقًا تامًا، كراهة لها ولما تضمنته، ولئلا تغلبه في المستقبل، حتى يجيب لهذا الطلب، وهكذا يكون الإيمان، وهذه ولا شك أنَّها محنة عظيمة، حصلت من أجل هذه القصة.

فالحاصل أن إفشاء السلام الأصل فيه [ماذا]؟

الأصل فيه أنه عام لكل واحد من المسلمين، إلا من جاهر بمعصية، وكان من المصلحة أن يهجر فليهجر، أما غير المسلمين، فقد قال النبي ﷺ: «لَا تَبْدَءُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى بِالسَّلَامِ»[1]. فيحرم علينا أن نبدأ اليهود والنصارى، ومن سواهم أخبث منهم، فلا نبدأهم بالسلام، وإن سلموا، فردوا عليهم لقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ﴾ [النساء: ٨٦]. فإذا قالوا: السلام عليكم. تقول: عليكم السلام؛ صراحة؛ لأن الآية ناطقة بذلك: ﴿فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ﴾، ولأن النبيْ ﷺ إنما أمر أن نقول: وعليكم. لأنَّهم يقولون: السام عليكم كما جاء ذلك مصرِّحًا به في حديث عبد الله بن عمر قال: «إن اليهود - أو قال: أهل الكتاب - يقولون: السام عليكم، فإذا سلموا فقولوا: وعليكم»[2].

---

(١) أخرجه أحمد برقم(٧٦٠)، ومسلم برقم(٢١٦٧)، والترمذي برقم(٢٧٠١).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٢٨٥)، ومسلم برقم (٢١٦٤)، وأبو داود برقم (٥٢٠٦)، والترمذي في «السير» برقم (١٦٠٣)، والنسائي برقم (٣٧٨.٣٨٠).

هل يستثنى من ذلك شيء آخر؟

يعني الطالب لا يفشي السلام مع إخوانه وزملائه؛ لأن الخواطر والقلوب سليمة، والسلام محبة، وبشاشة، وتقبل وقبول، فلا حاجة...

فيقول: فيغني ما في القلوب عن التعبير، ما تقولون في هذا الاستثناء؟

لا ليس صحيحًا ولا يكفي، هذا استثناء باطل، الطلبة فيما بينهم أحق الناس بإفشاء السلام، ويستثنى من ذلك أيضًا عند بعض الناس من خالفك في المنهج، ووافقك في الهدف، عند بعض الناس لا تسلم عليه، ففي هذا الوقت زُمَرٌ ولا نقول أحزابًا، زمر بعضهم ينتمي إلى جماعة دون الأخرى، لكن ليت أن بعضهم سَلَمٌ لبعض، بل بالعكس هم - والعياذ بالله - متناحرون بالألسن، ولا أدري لو حصلوا أن يتناحروا بالسيوف، أيفعلون أم لا؟ الله أعلم!

لكن بالألسن متناحرون، يسبُّ بعضهم بعضًا، وينفر بعضهم من بعض، ويمضي أوقاتًا كثيرة في مجالس عديدة للقَدْحِ في الطائفة الأخرى، مع أن الهدف واحد، كلهم يريدون الوصول إلى تحقيق العبادة، وإلى الإقبال إلى الله عزَّ وجلَّ، وربما يكون هناك من أهل البدع المصرِّحين بمخالفة السنة من لا يتكلمون عليهم، وهذه محنة.... محنة لمسناها في بعض الزُّمر التي كل طائفة أو كل زمرة تنحاز إلى شيء معين أو على منهج معين فتجد بعضهم يضلل بعضًا وهذه محنة، فمثل هذه الزمر يجب أن يسلم بعضهم على بعض، ويجب أن ينصح بعضهم بعضًا، وأن يبين كل واحد لأخيه ما هو مخطئ فيه حتى يصحح الخطأ وتتألف القلوب، وأما أن تضرب القلوب بعضها ببعض - والعياذ بالله - من أجل اختلاف في المنهج، مع اتحاد في الهدف فهذا غلط عظيم. اهـ.

وعليه فتنكب (خوارم المروءة) في طبع، أو قول، أو عمل، من حرفة مهينة، أو خلة رديئة؛ كالعجب، والرياء، والبطر، والخيلاء، واحتقار الآخرين، وغشيان مواطن الريب.

☆ الشـــــرح ☆

نعم... لما ذكر المروءة أنه ينبغي لطالب العلم أن يتحلى بها، قال: (تنكب يعني ابعد عن خوارم المروءة في طبع، أو قول، أو عمل)، يعني: في طباعك، حاول أن تكون طباعك ملائمة للمروءة ومن المعلوم أنه ليس التكحل في العينين كالكحل،

وليس التطبع كالطبع، لكن الإنسان مع ممارسة الشيء ربما يكون الكسب غريزة، والتطبع طبيعة، وإلا فإن الإنسان لو حاول ما يحاول من الأخلاق، وطبعه ليس كذلك، سيجد صعوبة لكن مع التمرن يحسن أو تحسن حاله، وهذا مجرب، فقد سمعنا عن بعض الناس الذي كان بعيدًا عن العلم، وعن طلب العلم، له أخلاق سيئة، ثم لما مَنَّ الله عليه بالعلم والهداية، صارت أخلاقه طيبة؛ لأنه مرَّن نفسه على هذه الأخلاق، حتى صارت كأنَّها من طباعه وغرائزه.

قوله: (من حرفة مهينة، أو خلة رديئة).. الخلة[1] يعني الخصلة، والحرف المهينة: كل ما يحترف الإنسان من عمل، ثم ضرب لذلك أمثلة بقوله: كالعجب[2]، أن يعجب الإنسان بنفسه فإذا استنبط فائدة، قال: هذه الفائدة ما شاء الله، أنا استنبطتها، وهذه لا يستنبطها أكبر عالم، ثم أعجب بنفسه، ورأى نفسه كبيرًا، وانتفخ.

الرياء: أن يرائي الناس، بأن يتكلم في العلوم أمامهم، حتى يروا أنه عالم فيقال: هذا عالم.

البطر: رد الحق وهذه تحصل في المجادلات والتعصب لرأي من الآراء، أو مذهب من المذاهب، تجده يَغمِط الآخرين، يرد الحق؛ لأنه خلاف ما يرى.

الخيلاء: نتيجة العجب، يعني: يظهر نفسه مظهر العالم الواسع العلم، ومن ذلك أن يكون للعلماء في بلد ما زي خاص في اللباس، فيأتي هذا الإنسان البادئ في العلم؛ فيلبس لباس كبار العلماء؛ ليظن الظان أنه من كبار العلماء، هذا من الخيلاء.

كذلك أيضًا احتقار الآخرين فالبطر هو احتقار الآخرين، هو الكبر، كما قال النبي ﷺ: «الكبر: بطر الحق، وغمط الناس». أي: احتقارهم.

وغشيان مواطن الريب: المصدر غشيان، مواطن الريب: يعني: المواطن التي تكون محل الشك في مروءته وأخلاقه يتجنبها، رحم الله امرأً كف الغيبة عن نفسه، وإذا كان رسول الله ﷺ أطهر الخلق، قال للرجلين الأنصاريين وهو مع زوجه صفية:

---

(١) الخلة: بفتح الخاء: الطريق في الرمل لتخلل الوعورة إلى الصعوبة إياه، أو لكون الطريق متخللاً وسطه، والخلة أيضًا الخمر الحامضة؛ لتخلل الحموضة إياها. والخلة بكسر الخاء: ما يفضي به جفن السيف في خلالها. والخلة بالفتح أيضًا الاختلال العارض للنفس؛ إما لشهوتها لشيء، أو لحاجتها إليه، ولهذا فسر الخلة بالحاجة والخصلة. والخلة بالضم المودة. انظر «المفردات في غريب القرآن» (ص١٥٨).

(٢) العجب: هو تغير النفس بما خفي سببه، وخرج عن العادة مثله، انظر كشاف «اصطلاحات الفنون» (ص١١٦٥).

«إنها صفية»[١] فكيف بغيره؟!! فالحاصل أنك لا تثق بنفسك وتقول: الناس لن يظنوا بي شيئًا. وإن كنت عند الناس بهذه المثابة، ولكن الشيطان يلقي في قلوبهم الشر، يتهموك بما أنت منه بريء، فتجنب مواطن الريب حتى تسلم من الغيبة.

٩- التمتع بخصال الرجولة

تمتع بخصال الرجولة من الشجاعة، وشدة البأس في الحق، ومكارم الأخلاق، والبذل في سبيل المعروف، حتى تنقطع دونك آمال الرجال، وعليه فاحذر نواقضها، من ضعف الجأش، وقلة الصبر، وضعف المكارم، فإنَّها تهضم العلم، وتقطع اللسان عن قول الحق، وتأخذ بناصيته إلى خصومه في حالة تلفح بسمومها في وجوه الصالحين من عباده.

☆ الشـــــرح ☆

هذه كالتكميل للأول؛ لأن التمتع بخصال الرجولة من المروءة بلا شك، فإن الإنسان إذا نزَّل نفسه منزلة الرجال الذين هم رجال بِمعني الكلمة، فإنه سوف يتمتع بما ذكره: الشجاعة، وشدة البأس في الحق، ومكارم الأخلاق، والبذل في سبيل المعروف، حتى تنقطع دونك آمال الرجال؛ يعني: حتى لا يهم أحد بأن يسبقك بما أنت عليه من هذه الخِصال؛ فالشجاعة: الإقدام في محل الإقدام، هذه [هي] الشجاعة، وإذا كانت الشجاعة هي الإقدام في محل الإقدام لزم من ذلك أن تسبق برأي، وتفكير، وحنكة؛ ولهذا قال المتنبي[٢]:

الرأيُ قبلَ شجاعةِ الشُّجعانِ هو أولاً وهِيَ المَحل الثانَي[٣]
فإذا هما اجتمعا لنفس حُرَّةٍ بلغت من العلياء كل آمال[٤]

أو قال: كل أماني فلابد من رأي؛ لأن الإقدام في غير رأي تَهور، تكون نتيجته

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٠٣٥)، ومسلم برقم (٢١٧٥)، وأبو داود برقم (٤٩٩٤)، وأحمد برقم (٢٦٧٤١) من حديث صفية أم المؤمنين رضي الله عنها.

(٢) هو شاعر الزمان، أبو الطيب أحمد بن الحسين بن حسن الجعفي الكوفي الأديب الشهير بالمتنبي، بلغ الذروة في النظم، وسار ديوانه في الآفاق، مات في رمضان سنة ٣٥٤هـ. «سير أعلام النبلاء» (١٦/ ١٩٩، ٢٠١).

(٣) ينظر «التذكرة الحمدونية» في البأس والشجاعة.

(٤) ينظر «الحماسة المغربية» في المدح.

عكس ما يريده هذا القادم، كذلك أيضًا شدة البأس في الحق، بحيث يكون قويًا فيه صابرًا على ما يحصل من أذًى أو غيره في جانب الحق.

مكارم الأخلاق: قد سبق الكلام عليها، وأنَّها تشمل كل خلق كريم، فيحمد الإنسان عليه، والبذل في سبيل المعروف: بذل يشمل بذل المال، والجاه، والعلم، وكل ما يبذل للغير لكن في سبيل المعروف، أما البذل في سبيل المنكر، والبذل فيما ليس بمعروف ولا منكر، قد يكون من إضاعة الوقت أو من إضاعة المال اهـ.

١٠- هجر الترفه:

لا تسترسل في التنعم والرفاهية: فإن البذاذة من الإيمان، وخذ بوصية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في كتابة المشهور وفيه: وإياكم والتنعم وزي العجم، وتمعددوا، واخشوشنوا[١]

☆ الشـــــرح ☆

قوله: لا تسترسل في التنعم والرفاهية. وهذه النصيحة تقال لطالب العلم ولغير طالب العلم؛ لأن الاسترسال في ذلك مخالف لإرشاد النبي ﷺ فقد كان ينهى عن كثرة الإرفاه، ويأمر بالاحتفاء أحيانًا[٢]، والإنسان الذي يعتاد الرفاهية يصعب عليه مواجهة الأمور؛ لأنه قد تأتيه الأمور على وجه لا يتمكن معه من الرفاهية، ولنضرب لذلك مثلاً بِهذا المثل الذي ذكرناه في الحديث: يأمر بالاحتفاء أحيانًا: بعض الناس لا يحتفي... دائما عليه الجورب، وعليه الخف، وعليه النعل، لا تجده يمشي هذا الرجل لو عرض له عارض وقيل له تمشي خمسمائة متر، بدون وقاية للرِّجل؟ لوجدت ذلك يشق عليه مشقة عظيمةً، وربما تَدْمَى قدمه من مماساة الأرض، لكن لو عود نفسه على الخشونة، وعلى ترك الترفه دائمًا لحصل له خير كثير، ثم إن البدن إذا لم يعود على مثل هذه الأمور، لم يكن عنده مناعة، فتجده يتألم من أي شيء من ذلك، لكن إذا كان عنده مناعة لا يهتم به، ولهذا تجد أيدي العمال الآن أقوى بكثير من أيدي

---

(١) ورد في هذا حديث ضعيف من حديث القعقاع بن حدرد الأسلمي، وأبي هريرة، رواه ابن أبي شيبة في «الأدب» (١/ ١٣٦/ ٢)، والطبراني في «الكبير» (١٩/ ٤٠)، ونقل البخاري أنه قال عن حديثه هذا: لا يصح. وانظر «مجمع البحرين في زوائد المعجمين» (٧/ ١٧٢) رقم (٤٢٥٦)، فهو ضعيف جدًا من «السلسلة الضعيفة» للألباني (٧/ ٤٢٦) رقم (٤١٧).

(٢) رواه أبو داود برقم (٦٥٢) في الصلاة في النعل، والبيهقي (٢/ ٤٣٢)، وصححه الألباني في «صفة الصلاة» (ص٨٠).

طلبة العلم... ما في مانع؛ لأنَّها تعودت واعتادت على ذلك حتى أن بعض العمال وكما سبق لما كانوا يعانون الطين، واللبن، إذا مسستها كأنما مسست حجرًا من خشونتها، ولو أنه ضم أصابعه على يدك لآلمك كثيرًا؛ لأنه اعتاد على ذلك، فترفيه الإنسان نفسه لا شك أنه ضرر عليه كبير.

قوله: البذاذة من الإيمان، ما هي البذاذة؟

البذاذة هي عدم التنعم والترفه، وليست البذاءة، ففرق بين البذاءة وبين البذاذة، فالبذاءة غير محمودة، والبذاذة محمودة، وكذا لوصية أمير المؤمنين [عمر] رضي الله عنه في كتابه المشهور وفيه: وإياكم وزي العجم. هذه الجملة تحذيرية؛ لأن العرب عندهم جمل تحذيرية وعندهم جمل إغرائية، فإن وردت في مطلوب فهي إغراء، وإن وردت في محذور فهي تحذير، فلو قلت لشخص: الأسد الأسد، هذا تحذير، ولو قلت: الغزال الغزال، هذا إغراء. أليس كذلك، طيِّبٌ؟ أما أيًا، فهي للتحذير، قال ابن مالك:

إياك والشر ونحوه نصب ... محذر بما استتاره وجب[1]

إياكم والتنعيم يعني: أحذركم والتنعم، هذه الواو للعطف، وقيل: للمعية والمعنى: أحذركم مع التنعم، يعني: أن تكونوا مع التنعم [أعني] التنعم باللباس، وبالبدن، وكل شيء، والمراد بذلك كثرته؛ لأن التنعم بما أحل الله على وجهٍ لا إسراف فيه، من الأمور المحمودة بلا شك، ومن ترك التنعم بما أحل الله، من غير سبب شرعي فهو مذموم.

وقوله: زي العجم. ما هو زي العجم؟

شكله، سواء كان ذلك في الحلية كشكل شعر الرأس أو اللحية أو ما أشبه ذلك، أو كان باللباس يعني: بالتحلي باللباس فإننا منهيون عن زي العجم، وليس المراد بالعجم أمة إيران، بل المراد بالعجم كل من سوى العرب، فيدخل فيه الأوربيون والشرقيون في آسيا وغيرهم، كل من سوى العرب فهو عجم، لكن المسلم من العجم التحق بالعرب حكمًا لا نسبًا؛ لأنه اقتدى بمن بعث في الأميين رسولاً ﷺ.

«تمعددوا» أيعني كبروا معدتكم؟ أو يعد نفسه؟

لا [تمعددوا] بمعنى معد بن عدنان هذا أعلى أجداد الرسول ﷺ بعد عدنان وهو لا شك من صميم العرب، فكأنه يقول: اتركوا العجم وعليكم بزي العرب، معد بن عدنان.

---

(١) ديوان «ابن مالك الطائي» برقم (٦٢٢)، وهو محمد بن عبدالله بن مالك الطائي.

وأما «اخشوشنوا»: فهو من الخشونة التي هي ضد الليونة، والتنعم، وكل هذه وصايا من عمر رضي الله عنه.. وصايا نافعة لو أن الناس عملوا بِها، سواء من طلبة العلم، أو غير طلبة العلم، لكان في هذا خيرًا كثيرًا، لكن الآن في البلاد التي منَّ الله عليها بالأمن وطيب العيش وكثرة المال، صار الأمر بالعكس.. بل عكس تمامًا، فالتنعم موجود، لا يريد الإنسان إلا أن يركب مركبًا مريحًا، ويبني قصرًا مشيدًا، ولا يناله شيء من الأذى، لا بردًا في برد، ولا حرًّا في حّر، ولا يريد أن يمسه شيء، متنعم تمامًا، ولهذا كثر فيهم الأوبئة، التي ترتب علي عدم الحركة، مثل السمنة، والضغط، وضيق التنفس، وعدم القدرة... يعني بعض الناس تجده شابًّا، تصعد أنت وهو الجبل، لا يتنصف الجبل إلا وقد ثار نفسه حتى يكاد يثور بدنه، وأنت مستريح لماذا؟ لأنك تعودت، وهو لم يتعود مع أنه شاب، لكن لم يعود نفسه.

«زاي العجم» الآن موجود، يترقبون كل موضة تخرج حتى يقلدوها، وقد أتعبت النساء رجالها في هذا الباب، تأتي صباح النهار بلباس من أحسن الألبسة، نظيف، ساتر، واسع، ثم تنزل إلى السوق آخر النهار، فإذا بموضة جديدة، فتصيح.. أريد أن أشتري هذا الثوب، مع أنه أضيق من الأول، وأردأ من الأول، ولكن هذا شيء جديد، لا بد من الإعجاب ولابد من أن تأخذ منه خصوصًا من مَنَّ الله عليه بالمال، كبعض المدرسات وغيرها، تجدها لا يهمها [إلا أن] تشتري ما تريد... هذا غلط، ولهذا كثرت الآن بين أيدي النساء مجلات، تسمى «البوردا».. تأخذها المرأة وتنظر ما يروق لها، حتى وإن كان لباسًا لا يتناسب مع اللباس الشرعي، لكنه جديد، نسأل الله السلامة والهداية.

وعليه: فَازْوَرَّ عن زيف الحضارة؛ فإنه يؤنث الطباع، ويرخي الأعصاب، ويقيدك بخيط الأوهام، ويصل المجدون لغايتهم وأنت لم تبرح مكانك، مشغول بالتأنق في ملبسك، وإن كان منها شيات ليست محرمة ولا مكروهة، لكن ليست سمتًا صالحًا، والحلية في الظاهر كاللباس، عنوان على انتماء الشخص بل تحديد له، وهل اللباس إلا وسيلة من وسائل التعبير عن الذات؟

فكن حذرًا في لباسك؛ لأنه يعبر لغيرك عن تقويمك؛ في الانتماء، والتكوين، والذوق، ولهذا قيل: الحلية في الظاهر تدل على ميل في الباطن، والناس يصنفونك من لباسك، بل إن كيفية اللبس تعطي للناظر تصنيف اللابس من: الرصانة والتعقل، أو التمشيخ والرهبنة، أو التصابي وحب الظهور، فخذ من اللباس ما يزينك ولا يشينك، ولا يجعل فيك مقالاً لقائل، ولا لمزًا للامزٍ، وإذا تلاقي ملبسك وكيفية لبسك بما

يلتقي مع شرف ما تحمله من العلم الشرعي؛ كان أدعى لتعظيمك والانتفاع بعلمك، بل بحسن نيتك يكون قربة، إنه وسيلة إلى هداية الخلق للحق.

وفي المأثور عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أحب إليَّ أن أنظر القارئ أبيض الثياب[١].

أي: ليعظم في نفوس الناس، فيعظم في نفوسهم ما لديه من الحق.

والناس - كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - كأسرابِ القَطا، مجبولون على تشبه بعضهم ببعض[٢].

فإياك ثم إياك من لباس التصابي، أما اللباس الإفرنجي، فغير خاف عليك حكمه، وليس معنى هذا أن تأتي بلباس مشوه، لكنه الاقتصاد في اللباس برسم الشرع، تحفه بالسَّمت الصالح والهدي الحسن.

وتطلب دلائل ذلك في كتب السنة والرقاق.

لا سيما في «الجامع» للخطيب [٣]

ولا تستنكر هذه الإشارة، فما زال أهل العلم ينبهون على هذه في كتب الرقاق والآداب واللباس[٤]. والله أعلم.

☆ الشـــــرح ☆

لما ذكر - وفقه الله - هجر الترفه أطنب في ذكر اللباس؛ لأن اللباس الظاهر عنوان على لباس الباطن ولهذا يمر بك رجلان، كلاهما عليه ثوب مثل الآخر، فتزدري أحدهما ولا تَهتم بالآخر، تزدري عن لباسه ينبغي أن يكون على غير هذا الوجه إما بالكيفية، وإما في اللون، وإما في الخياطة، أو غير ذلك. والثاني لا ترفع رأسًا ولا ترى في لباسه بأسًا؛ لأن لكل قالب ما يناسبه، فمثلاً [العقال]: ليس العقال: هو في الأصل لا بأس به أليس كذلك؟ بلى.. بل إن بعضهم يقول: إنه العمامة العصرية، العمامة في عهد رسول الله ﷺ كانت لفافة طويلة تطوى على الرأس، وتحتاج إلى تعب في طيها ونقضها، لكن هذا مطوي جاهز، ليس عليك إلا أن تضعه

---

(١) «الأحكام للقرافي» (ص٢٧١). (الشيخ بكر).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ١٥٠). (الشيخ بكر).

(٣) «الجامع» للخطيب البغدادي (١/ ١٥٣ - ١٥٥) (الشيخ بكر).

(٤) «أدب الإملاء والاستملاء» (ص ١٦- ١١٩)، و«اقتضاء الصراط المستقيم»، «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٥٣٩)، و«الروح» لابن القيم (ص ٤٠). (الشيخ بكر).

على رأسك فهو العمامة إلا أنَّها عمامة ميسرة؛ ولهذا كان بعض الناس فيما سبق يجعلون [العُقُل] بيضاء لتكون كالعمامة تمامًا، هذه العُقُل لا يلبسها كل الناس على حدٍّ سواء، يمرُّ بكَ رجلان كلاهما قد يلبس العقال أحدهما تزدريه، والثاني لا تَهتم به؛ لأن الأول لبس ما لا يلبسه مثله، والثاني لبس ما يلبسه مثله، ولا تَهتم به وأشياء كثيرة من هذا النوع، مر بك رجلان أحدهما ميكانيكي عليه بنطلون ومر بك عالم كبير عليه بنطلون في بلد لا يلبس العلماء مثله، تجد أنك تزدري الثاني، ولا تزدري الأول. فالمهم أن الشيخ - وفقه الله - يقول: إن بعض الناس يكون مشغولاً بالتأنق في الملابس حتى وإن كانت المباحة فلا ينبغي أن يكون أكبر همك الهندمة والتأنق في اللباس، والتأنق في لبس الغُترة، ويجعله مرزاب، أو مرزابين أو ثلاثة حسب الواقع، لا تَهتم بِها، ولكن لا نقول أيضًا بالعكس لا تَهتم بنفسك ولا بلباسك، وقد سبق أن التجمل في اللباس مما يحبه الله عزَّ وجلَّ وهذا عمر رضي الله عنه يقول: أحب إليَّ أن أنظر القارئ أبيض الثياب. لأنه جمال.

وقوله - الشيخ بكر أبي زيد وفقه الله -: إنه يعبر لغيرك عن تقويمك في الانتماء والتكوين والذوق. وهذا أيضًا صحيح؛ لأن كل إنسان قد يزن من لاقاه بحسب ما عليه من اللباس، كما أنه يزنه بالنسبة لحركاته، وكلامه، وأقواله، وخفته، ورزانته، كذلك في اللباس، ثم حذر من لباس التصابي، نعم، قبل كلام شيخ الإسلام كلام مهم «الناس كأسراب القطا، مجبولون على تشبه بعضهم، يتقاطرون عليه فما تلبث أن تسع الناس كلهم.

أما لباس التصابي فأن يلبس الشيخ الكبير سنًّا، ما يلبسه الصبيان من رقيق الثياب وما أشبه ذلك، فهذا أيضًا من الأمور التي لا ينبغي للإنسان أن يمارسها، أما اللباس الإفرنجي فغير خافٍ حكمه، ما هو حكمه؟

١١- الإعراض عن مجالس اللغو:

لا تطأ بساط من يفشون في ناديهم المنكر، ويهتكون أستار الأدب، متغابيًا عن ذلك، فإن فعلت ذلك، فإن جنايتك علي العلم وأهله عظيمة.

☆ الشـــــرح ☆

أما قوله: «الإعراض عن مجالس اللغو» فاللغو نوعان:

لغو ليس فيه فائدة ولا مضرة، ولغو فيه مضرة.

فأما الأول: فلا ينبغي للعاقل أن يذهب وقته فيه؛ لأنه خسارة.

وأما الثاني: منكر يحرم عليه أن يمضي وقته فيه؛ لأنه منكر محرم.

والمؤلف كأنه حمل الترجمة على المعنى الثاني الذي هو اللغو المحرم، ولا شك أن المجالس التي تشتمل علي المحرم لا يجوز للإنسان أن يجلس فيها؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾. فمن جلس مجلسَ منكرٍ، وجب عليه أن ينهى عن هذا المنكر، فإن استقامت الحال فهذا المطلوب، وإن لم تستقم وأصروا على منكرهم، فالواجب أن ينصرف، خلافًا لما يتوهمه بعض العامة، يقول: إن رسول الله ﷺ قال: «فإن لم يستطع فبقلبه»[1]. وأنا كاره لهذا المنكر في قلبي وهو جالس مع أهله. فيقال له: لو كنت كارهًا له حقًّا ما جلست معهم؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يجلس في مجلس وهو كاره لمن فيه، أما شيئًا تكرهه وتجلس باختيارك، فإن دعواك كراهته ليست بصحيحة. وقوله: فإن فعلت ذلك؛ فإن جنايتك على العلم وأهله عظيمة: أما كونه جناية على نفسه؛ فالأمر ظاهر يعني لو رأينا طالب علم، يجلس مجلس اللهو واللغو والمنكر فجنايته على نفسه واضحة وعظيمة، لكن كيف تكون جناية على العلم وأهله؛ لأن الناس يقولون: هؤلاء طلبة علم، هؤلاء العلماء، هذا نتيجة العلم، وما أشبه ذلك، فيكون قد جنى على نفسه وعلى غيره اهـ.

١٢- الإعراض عن الهيشات:

التصون من اللغط والهيشات، فإن الغلط تحت اللغط وهذا ينافي الطلب.

☆ الشـــــرح ☆

الهيشات: يعني: بذلك هيشات الأسواق، كما جاء في الحديث التحذير منها[2]؛ لأنَّها تشتمل على لغط، وسب، وشتم، وبعض طلبة العلم يقول: أنا أقعد في الأسواق من أجل أن أنظر ماذا يفعل الناس، وماذا يكون بينهم. فيقول: هناك فرق بين الاختيار والممارسة، يعني لو ذكر ذلك أن في السوق الفلاني كذا وكذا، فهنا لا حرج عليك أن

---

(١) أخرجه أحمد برقم (١١٠١٥)، ومسلم برقم (٤٩)، وابن ماجه برقم (٢٧٥)، والترمذي برقم (٢١٧٢)، والنسائي برقم (٥٠١١، ٥٠١٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٢٦٩، ٢٩٧)، وفي شعب الإيمان برقم (٧٥٥٩) وغيرهم.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٤٣٢)، وأبو داود برقم (٦٧٥)، والترمذي برقم (٢٢٨)، وقال: حديث ابن مسعود حديث حسن صحيح غريب.

تذهب وتختبر بنفسك، لكن لو كان جلوسك في هذا السوق مستمرًّا تمارسه كل عصر تروح تجلس في هذا السوق، لكان هذا خطأ بالنسبة لك، لأنه إهانة لك ولطلب العلم، ولطلبة العلم عمومًا وللعلم الشرعي أيضًا اهـ.

ومن لطيف ما يستحضر هنا ما ذكره صاحب «الوسيط في أدباء شنقيط» وعنه في «معجم المعاجم»: أنه وقع نزاع بين قبيلتين، فسعت بينهما قبيلة أخرى في الصلح، فتراضوا بحكم الشرع، وحكَّموا عالمًا، فاستظهر قتل أربعة من قبيلة بأربعة قتلوا من القبيلة الأخرى، فقال الشيخ باب بن أحمد: مثل هذا لا قصاص فيه. فقال القاضي: إن هذا لا يوجد في كتاب. فقال: بل لم يخل منه كتاب. فقال القاضي: هذا القاموس - يعني: أنه يدخل في عموم كتاب - فتناول صاحب الترجمة القاموس، وأول ما وقع نظره عليه، والهيشة: الفتنة، وأم حبين، وليس في الهيشات قَوَدٌ، أي: في القتيل في الفتنة لا يدرى قاتله، فتعجب الناس من مثل هذا الاستحضار في ذلك الموقف الحرج اهـ. ملخصًا.

☆ الشـــــرح ☆

الكلام واضح، هؤلاء قبيلة جرى بينهم فتنة فقتل من إحدى القبيلتين أربعة رجال، مثل هذا لا قصاص فيه قال الشيخ واسمه باب بن أحمد: مثل هذا لا قصاص فيه. قال القاضي الحاكم: إن هذا لا يوجد في كتاب. يعني: أين الدليل على أنه لا قصاص فيه، لا يوجد في أي كتاب أنه لا قصاص في ذلك، فقال: بل لم يخل منه كتاب، من الذي قال: بل لم يخل منه كتاب؟ الشيخ باب بن أحمد، قال القاضي:

هذا «القاموس»؛ لأنه يعني يدخل في عموم كتاب وهو قوله: لم يخل منه كتاب... باب بن أحمد، كلمة كتاب عامة تشتمل كل كتب الفقه والعقيدة والنحو والأدب وكل شيء؛ لأن كتاب نكرة في سياق النفي فتكون للعموم، وهو يقول: لم يَخل منه كتاب. فقال القاضي: هذا «القاموس»، القاضي الآن عنده ثقة بنفسه أنه لن يجد في القاموس حكم على هذه المسألة؛ لأن «القاموس» كتاب لغة، وليس كتاب فقه.

فقال القاضي: أعطه إياه. يقول: تقول: لا يخل منه كتاب، هذا «القاموس» أعطه إياه، يقول: فتناول صاحب الترجمة «القاموس» وأول ما وقع نظره عليه «والهيشة الفتنة، وأم حبين وليس في الهيشات قود» وقصة الجماعة: الهيشة الفتنة وأم حبين

وليس في الهيشات قود، فأخذ من كتاب «القاموس» أن حكم القاضي بأنه يقتل من القبيلة أربعة خطأ، هذا معنى القصة، فتعجب الناس أي: في القتيل في الفتنة لا يدرى قاتله، فتعجب الناس من مثل هذا الاستحضار في هذا الموقف الحرج، انتهى ملخصه، الهيشة الفتنة وأم حبين، مَن يعرف مَن أم حبين؟

هي دويبة، لكنها تشبه الخنفسة، ودويبة ليست من الدواب القوية، لكنها على كل حال دويبة من الحشرات. اهـ.

١٢- التحلي بالرفق:

التزم الرفق في القول؛ مجتنبًا الكلمة الجافية، فإن الخطاب اللين يتألف النفوس الناشزة، وأدلة الكتاب والسنة في هذا متكاثرة.

هذا من أهم الأخلاق لطالب العلم، سواء كان طالبًا أم مطلوبًا أي: معلمًا، فالرفق كما قال النبي ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرِّفق في الأمر كله»[(١)]، «وما كان الرفق في شيء إلا زانه ولا نزع من شيء إلا شانه»[(٢)]. لكن لابد أن يكون الإنسان رفيقًا في غير ضعف، أما أن يكون رفيقًا يُمتهن ولا يُؤخذ بقوله ولا يُهتم به فهذا خلاف الحزم، لكن يكون رفيقًا في مواضع الرفق، وعنيفًا في مواضع العنف، ولا أحد أرحم من الله عزَّ وجلَّ، ومع ذلك يقول في الزاني والزانية: ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور: ٢]. فلكل مقام مقالٍ، لو أن الإنسان عامل ابنه بالرفق في كل شيء مما ينبغي فيه الحزم ما استطاع أن يربيه، لو كان ابنه مثلاً كسر الزجاج، وفتح الأبواب، وشق الثياب، ثم جاء الأب ووجده على هذا الحال، قال: يا وليدي ما يصلح هذا... إذا شققت يخرب عليك، وإذا كسرته يروح علينا، وقام يكلمه هذا الكلام، والولد عفريت من العفاريت، أيكفي هذا أم لا يكفي؟!

لا يكفي، [فإن] لكل مقام مقال: «مروا أبناءكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر»[(٣)]، لكن إذا دار الأمر بين الرفق والعنف فما الأفضل؟ الرفق. فإن تعين العنف، صار هو الحكمة.

يقول: «مجتنبًا الكلمات الجافية»: هذا صحيح تجنب الكلمات الجافية والفعلة الجافية أيضًا.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٩٢٧)، ومسلم برقم (٢١٦٥).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٥٩٤).

(٣) أخرجه أحمد برقم (٦٦٨٩)، وأبو داود برقم (٤٩٤، ٤٩٥)، وصححه الألباني في «الإرواء» (١/ ٢٦٦، ٢٦٧) برقم (٢٤٧).

وقوله: «الخطاب اللين يتألف النفوس الناشزة»:

عندنا كلمة يقولها العامة لا أدري هل توافقون عليها أم لا؟

الكلام اللين يأخذ بالحق المبين؛ يغلب الحق البين، لابد أن نفهم المراد؛ يعني أن تلين الكلام للخصم ولو كان الحق معه فإنه يتنازل عن حقه، وليس معناه أن الكلام اللين يبطل الحق لا، «يغلب الحق البين» أي: فيما جاء به الخصم؛ لأنه إذا ألنت له الكلام، لَانَ لَكَ، وهذا شيء مشاهد، إذا نازعت أحدًا فسيشتد عليك ويزيد، فإذا ألنت له القول، فإنه يقرب منك، ولهذا قال الله تعالى لموسى وهارون حين أرسلهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾.

١٤- التأمل:

التحلي بالتأمل فإن من تأمل أدرك، وقيل: تأمل تُدرك، وعليه فتأمل عند التكلم بماذا تتكلم، وما هي عائدته، وتحرز في العبارة والأداء دون تعنت أو تحذلق، وتأمل عند المذاكرة كيف تختار القالب المناسب، وتأمل عند سؤال السائل كيف تتفهم السؤال على وجهه حتى لا يحتمل وجهين وهكذا.

☆ الشـــــرح ☆

وبقي رابع تأمل عند الجواب كيف يكون جوابك؟ هل هو واضح لا يحصل فيه لبس أو مبهم؟ وهل هو مفصل أو مجمل؟

حسب ما تقتضيه الحال، المهم: التأمل يريد بذلك التأني، وألا تتكلم حتى تعرف ماذا تتكلم به وماذا تكون النتيجة.

ولهذا يقولون: لا تضع قدمك إلا حيث علمت السلامة. يعني: الإنسان يخطو - يمشي - لا يضع قدمه في شيء لا يدري أحفرة هو أم شوك أم حصى أم ثلج؟ حتى يعرف أين يضع قدمه؛ فالتأمل هذا مهم، ولا تتعجل إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك، ولهذا قال الشاعر الناظم:

قد يدرك المتأني بعض حاجته ... وقد يكون مع المستعجل الزلل[1]

وربما فات قومًا جل أمرهم ... مع التأنّي وكان الرأي لو عجلوا[2]

---

(١) ديوان «القطامي التغلبي» برقم (٩)، وهو عمير بن شيم بن عمرو بن عباد من بني جشم، كان من نصارى تغلب في العراق وأسلم، توفي عام ١٣٠هـ.

(٢) انظر «نهاية الأرب في فنون الأدب» للنويري.

فإن دار الأمر بين أن أتأنَّى وأصبر، أو أتعجل وأقدم فأيهما أقدم؟

الأول: لأن القولة والفعلة إذا خرجت منك لا يمكن ردها، لكن ما دمت لم تقل ولم تفعل فأنت حر تملك، فتأمل بماذا تتكلم به، وما هو فائدته؟ [أعني] فائدة الكلام؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»[(١)]. وتحرز في العبارة والأداء، وهذا أيضًا من أهم ما يكون، يعني: لا تطلق العبارة على وجهة تؤخذ عليك، بل تحرز إما بقيود تضيفها إلى الإطلاق وإما بتخصيص تضيفه إلى العموم، وإما بشرط تقول: إن كان كذا، أو ما أشبه ذلك، ولكن أقول: دون تعنت أو تحذلق: يعني: دون أن تشق على نفسك، مأخوذ من العنت أو تحذلق: يعني: تدعي أنك حاذق، وهذه تحذلق من الحذق مع زيادة اللام، وإلا فالأصل أن اللام هنا ليست موجودة مما اشتق منه، لو تأمل عند المذاكرة كيف يختار القالب -المناسب للمعنى المراد، وتأمل عند سؤال السائل كيف تفهم السؤال على وجه حتى لا يحتمل وجهين، وكذلك أيضًا في الجواب وهو أهم؛ لأن السؤال يسهل على المسئول أن يستفهم من السائل - ماذا يريد؟ أريد كذا وكذا - فتبين الأمر لكن الجواب إذا وقع مجملاً؛ فإنه يبقى عند الناس على تفاسير متعددة كل إنسان يفسر هذا الكلام بما يريد ويناسبه.

١٥- الثبات والتثبت:

تحَلَّ بالثبات والتثبُّت لا سيما في الملمات والمهمات ومنه: الصبر، والثبات في التلقي، وطيّ الساعات في الطلب على الأشياخ فإن «من ثبت نبت».

☆ الشـــــرح ☆

هذا أهم ما يكون في هذه الآداب هو التثبت فيما ينقل من الأخبار، والتثبت فيما يصدر منك من الأحكام، فالأخبار إذا نقلت فلابد أن تتثبت أولاً هل صحت عمن نقلت عنه أو لا، ثم إذا صحت، فلا تحكم حتى تثبت في الحكم، ربما يكون الخبر الذي سمعته - ربما يكون - مبني على أصل تجهله أنت، فتحكم بأنه خطأ، والواقع أنه ليس بخطأ، ولكن كيف العمل في هذه الحال؟

العلاج: أن نتصل بمن نسب إليه الخبر، ونقول: نقل عنك كذا وكذا، فهل هذا صحيح؟

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٦٦٢١)، والبخاري برقم (٥٦٧٢)، ومسلم برقم (٤٧)، والترمذي (٢٥٠٠)، وأبو داود (٥١٥٤) من حديث أبي هريرة.

ثم تناقشه، فقد يكون استنكارك ونفور نفسك منه أول وهلة سمعته، لأنك لا تدري ما سبب هذا المنقول، ويقال: إذا علم السبب بطل العجب. فلابد أولاً من التثبت، ثم بعد ذلك تتصل بمن نقل إليه وتسأله هل صح ذلك أولا؟ ثم تناقشه؛ فإما أن يكون هو على حق وصواب فترجع إليه أو يكون الصواب معكَ فيرجع إليه.

الثبات والتثبت: هذان شيئان متفقان لفظًا لكن مختلفان معنًى، فالثبات معناه: الصبر والمصابرة، وألاَّ يمل ولا يضجر وألاَّ يأخذ من كل كتاب نتفة، أو من كل فن قطعة، ثم يترك؛ لأن هذا هو الذي يضر الطالب؛ يقطع عليه الأيام بلا فائدة إذا لم يثبت على شيء، تجده مرة في الآجرومية، ومرة في الألفية، ثم في المصطلح؛ مرة في النخبة، ومرة في ألفية العراقي، ومرة في زاد المستقنع، ومرة في عمدة الفقه، ومرة في المغني، ومرة في الشرح المهذب يطامر (يقفز) في كل كتاب وهلم جرّا، هذا في الغالب أنه لا يحصِّل العلم، ولو حصل العلم فإنما يحصل مسائل لا أصولاً، وتحصيل المسائل كالذي يلتقط الجراد واحدة بعد أخرى، لكن التأصيل والرسوخ والثبات؛ هذا هو المهم، اثْبُتْ بالنسبة للكتب التي تقرأ أو تراجع، واثْبُتْ بالنسبة للشيوخ أيضًا الذين تتلقى عنهم، لا تكن ذوَّاقًا كل أسبوع عند شيخ، كل شهر عند شيخ، قرر أولاً عَمَّن ستتلقى العلم، ثم إذا قررت ذلك فَاثْبُتْ ولا تجعل كل شهر أو كل أسبوع لك شيخًا... ولا فرق بين أن تجعل شيخًا في الفقه، وتستمر معه في الفقه، وشيخًا آخر في النحو، فتستمر معه فالمهم أن تستمر لا أن تتذوق وتكون كالرجل المِطلاق، كلما تزوج امرأة وجلس عندها سبعة أيام طلقها، وذهب يطلب أخرى، هذا يبقى طوال دهره لم يتمتع بزوجة، ولم يحصل له أولاد، هذا في الغالب، أيضًا التثبت كما قلنا قبل قليل أيضا من أهم الأمور إن لم يكن أهمها.

والتثبت فيما ينقل عن الغير أمر مهم؛ لأن الناقلين تارة يكون لهم إرادات سيئة، ينقلون ما يشوه سمعة المنقول عنه قصدًا وعمدًا، وتارة لا يكون لهم إرادات سيئة لكنهم يفهمون الشيء على خلاف معناه الذي أريد به؛ ولهذا يجب التثبت فإذا ثبت بالسند ما نقل فحينئذ يأتي دور المناقشة مع من؟ مع صاحبه الذي نقل عنه قبل أن يحكم على هذا القول بأنه خطأ أو غير خطأ وذلك أنه ربما يظهر لك بالمناقشة أن الصواب مع هذا الذي نقل عنه الكلام، وإلا من المعلوم أن الإنسان لو حكم على الشيء بمجرد السماع منه لأول وَهْلةٍ، لكان ينقل عنه أشياء تنفر منها النفوس عن بعض العلماء الذين يعتبرون منارات للعلم، لكن عندما يتثبت ويتأمل، ويتصل بِهذا الشيخ مثلا يتبين له الأمر، ولهذا قال: في الصبر والثبات والتلقي.

الفصل الثاني
كيفية الطلب والتلقي

١٦- كيفية الطلب ومراتبه:

من لم يتقن الأصول، حرم الوصول[١]، ومن رام العلم جملة، ذهب عنه جملة[٢]، وقيل أيضًا: ازدحام العلم في السمع مضلة الفهم[٣]، وعليه فلابد من التأصيل والتأسيس لكل فن تطلبه، بضبط أصله ومختصره على شيخ متقنٍ، لا بالتحصيل الذاتي وحده، وآخذًا الطلب بالتدرج، قال الله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾[البقرة: ١٢١]، فأمامك أمور لابد من مراعاتها في كل فنٍّ تطلبه.

☆ الشـــــرح ☆

كيفية الطلب، وهذه أيضًا مهمة، ليبني الإنسان طلبه على أصول، ولا يتخبط خبط عشوائي، يقول: «من لم يتقن الأصول، حرم الوصول» وقيل بعبارة أخرى: من فاته الأصول حرم الوصول، لأن الأصول هي العلم، والمسائل فروع كأصل الشجرة وأغصانِها، إذا لم تكن الأغصان على أصل جيد فإنَّها تذبل وتَهلك.

فلابد من أن يبنى الإنسان علمه على أصول، فما هي الأصول؟ هل هي الأدلة الصحيحة؟ أو هي القواعد والضوابط؟ أو هذا وهذا؟

الثاني هو المراد، تبنى على أصول من الكتاب والسنة، وتبنى على قواعد وضوابط مأخوذة بالتتبع والاستقراء من الكتاب والسنة، تُرجع إليها أحكام الكتاب والسنة، وهذه من أهم ما يكون لطالب العلم.

---

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص١٤٤). (الشيخ بكر).

(٢) «فضل العلم» لأرسلان (١٤٤). (الشيخ بكر).

(٣) «شرح الإحياء» (١/ ٣٣٤)(الشيخ بكر).

مثلاً: «المشقة تجلب التيسير»، هذا أصل من الأصول مأخوذ من الكتاب والسنة، من الكتاب من قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]. ومن السنة: قال النبي ﷺ لعمران بن حصين: «صلِّ قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب»[(١)]. وقال: «إذا أمرتكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم»[(٢)].

هذا أصل لو جاءتك ألف مسألة بصورة متنوعة؛ لأمكنك أن تحكم على هذه المسائل بناء على هذا الأصل، لكن لو لم يكن عندك هذا الأصل وتأتيك مسألتان أشكَل عليك الأمر.

كذلك أيضًا يقول: «من رام العلم جملة، ذهب عنه جملة» هذا أيضًا له وجه صحيح، إذا أراد الإنسان أن يأخذ العلم جميعًا فإنه يفوته العلم جميعًا؛ لأن هذا لا يمكن، لابد أن تأخذ العلم شيئًا فشيئًا، كسلم تصعد عليه من الأرض إلى السطح، ليس العلم مأكولا كتبت فيه العلوم، فتأكله وتقول: - خلاص - هضمت العلم... لا؛ العلم يحتاج إلى مرونة، وصبر، وثبات، وتدرج.

وقال أيضًا: «ازدحام العلم في السمع مضلة الفهم» يعني: كثرة ما تسمع من العلوم توجب أن تضل في فهمك. وهذا أيضًا ربما يكون صحيحًا، أن الإنسان إذا ملأ سمعه أو ملأ بصره بما يقرأ ربما تزدحم العلوم عليه، ثم تشتبك عليه، ويعجز عن التخلص منها.

وقال: «وعليه فلابد من التأصيل والتأسيس بكل فن تطلبه؛ تضبط أصله ومختصره على شيخ متقن». لابد من هذا «على شيخ متقن»، وليس على شيخ أعلى منك بقليل؛ لأن بعض الناس إذا رأى طالبًا من الطلبة يتميز عنه بشيء من التميز جعله شيخًا، وعنده شيوخ أعلم من هذا بكثير، لكن يجعل هذا الصغير شيخه؛ لأنه بزَّه في شيء من مسائل العلم، وهذا غير صحيح، بل اختر المشايخ ذوي الإتقان، وأيضًا: نضيف إلى الإتقان وصفًا آخر وهو الأمانة؛ لأن الإتقان قوة، والقوة لابد فيها من أمانة: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ١٠٦].

ربما يكون العالم عنده إتقان، وعنده سعة علم وعنده قدرة على التفريع، وعلى

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١١١٧)، ومسلم برقم (١٣٣٧).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٧٢٨٨)، ومسلم برقم (١٣٣٧)، والترمذي (٣/ ٣٧٩)، وابن ماجه برقم (١-٢).

التقسيم، وعلى كل شيء، ولكنه ليس عنده أمانة، فربما أضلك من حيث لا تشعر.

«لا بالتحصيل الذاتِي وحده» يعني: لا تأخذ العلم بالتحصيل الذاتِي، أن تقرأ الكتب فقط، دون أن يكون لك شيخ معتمد؛ ولهذا قيل: من كان دليله كتابه، فخطؤه أكثر من صوابه. أو غلب خطؤه صوابه، هذا هو الأصل، فالأصل: أن من اعتمد على التحصيل الذاتي، وعلى مراجعة الكتب، الغالب أن يضل؛ لأنه يجد بحرًا لا ساحل له، ويجد عمقًا لا يستطيع التخلص فيه، أما من أخذ عن عالم، عن شيخ فإنه يستفيد فائدتين عظيمتين:

الفائدة الأولى: قصر المدة.

الفائدة الثانية: قلة التكلف.

وفيه فائدة ثالثة: أن ذلك أحرى بالصواب؛ لأن هذا الشيخ عالم، متعلم، ومرجع، ومفهم، فيعطيك الشيء ناضجًا لكنه يمرنك - إذا كان عنده شيء من الأمانة - على المراجعة والمطالعة، أما من اعتمد على الكتب فإنه لابد أن يكرس جهوده ليلًا ونهارًا، ثم إذا طالع الكتب التي يقارن فيها بين أقوال العلماء، فسيقت أدلة هؤلاء، وسيقت أدلة هؤلاء، من يدله على أن ذلك أصوب؟ فيبقى متحيرًا؛ ولهذا نرى أن ابن القيم - رحمه الله - عندما يناقش قولين لأهل العلم سواء في «زاد المعاد» أو في «إعلام الموقعين» إذا ساق أدلة هذا القول [يقول]: وعليه؛ نقول: هذا هو القول الصواب، ولا يجوز العدول عنه بأي حال من الأحوال، ثم ينقض ويأتي بالقول المقابل، ويذكر أدلته [ويقول]: وعليه؛ فنقول: هذا هو القول الصواب. الأولى ما عنده علم، لكن لابد من أن يكون قراءتك على شيخ متقن أمين، قال: «وأخذ الطلب بالتدرج» ثم استدل بالآيات: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾، وقوله: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ﴾ [الفرقان: ٣٢]... المعروف أن «نزل» لما ينْزل شيئًا فشيئًا، وأن «أنزل» لما نزل جملة واحدة، فلماذا قال الذين كفروا: لولا نزل، ولم يقولوا: لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة؟ نقول: قالوا ذلك باعتبار واقع القرآن أنه منَزل شيئًا فشيئًا، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الجار والمجرور متعلق بمحذوف والتقدير: أنزلناه كذلك، وجملة ﴿لِنُثَبِّتَ﴾ تعليل متعلق بالفعل المحذوف وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ﴾ [البقرة: ١٢١].

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾: يعني: أعطيناهم وأنزلناه إليهم ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾

والتلاوة هنا تشمل التلاوة اللفظية، والتلاوة الحكمية، فأما التلاوة اللفظية، فأن يقرءوه بألسنتهم، وأما التلاوة الحكمية فأن يصدقوا بأخباره، ويلتزموا بأحكامه، وقول: ﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ من باب إضافة الصفة إلى الموصوف... يعني التلاوةَ الحقة الصريحة.

فأمامك أمور لابد من مراعاتِها في كل فن تطلبه:

١-حفظ مختصر فيه.

٢-ضبطه على شيخ متقن.

٣-عدم الاشتغال بالمطولات، وتفاريق المصنفات قبل الضبط لأصله.

٤-لا تنتقل من مختصر إلى آخر بلا موجب، فهذا من باب الضجر.

٥-اقتناص الفوائد والضوابط العلمية.

٦-جمع النفس للطلب والترقي فيه، والاهتمام والتحرق للتحصيل، والبلوغ إلى ما فوقه، حتى تفيض إلى المطولات بسابلة موثقة.

☆ الشـــــرح ☆

هذه أمور لابد من مراعاتِها كما قال الشيخ:

أولاً: «حفظ مختصر فيه». فمثلاً: إذا كنت تطلب النحو، فاحفظ مختصرًا فيه، إن كنت مبتدئًا، فلا أرى أحسن من متن «الآجرومية»؛ لأنه واضح جامع، وفيه بركة، ثم متن الألفية، ألفية ابن مالك؛ لأنَّها خلاصة علم النحو كما قال هو نفسه:

أحصي من الكافية الخلاصة كما
اقتضى فنًّا بلا خصاصة

وفي الفقه: احفظ «زاد المستقنع»؛ لأن هذا الكتاب مخدوم في الشروح والحواشي والتدريس، وإن كان بعض المتون الأخرى أحسن منه من وجه، لكن هو أحسن منها من وجه آخر من حيث كثرة المسائل الموجودة فيه.

في الحديث: متن «عمدة الأحكام»، وإن ترقيت فـ «بلوغ المرام»، وإذا كنت تقول: إما هذا وإما هذا، فـ «بلوغ المرام» أحسن؛ لأنه أكثر، ولأن الحافظ ابن حجر - رحمه الله - يبين درجة الحديث، وهذا مفقود بالنسبة لـ «عمدة الأحكام»، وإن كان درجة الحديث فيها معروفة؛ لأنه لم يضع في هذا الكتاب إلا ما اتفق عليه الشيخان - البخاري ومسلم.

في التوحيد: من أحسن ما قرأنا «كتاب التوحيد» لشيخ الإسلام محمد بن عبد

الوهاب، وقد يسر الله في الآونة الأخيرة من خرَّج أحاديثه، وبيَّن ما في بعضها من ضعف، والحق أحق أن يتبع.

في الأسماء والصفات: من أحسن ما ألف وما قرأت «العقيدة الواسطية» لشيخ الإسلام ابن تيمية، فهو كتاب جامع مبارك مفيد، وهلم جرّا... خذ من كل فن تريد طلبه كتابًا مختصرًا فيه واحفظه.

ثانيًا: «ضبطه على شيخ متقن». ولو قال: ضبطه وشرحه لكان أولى؛ لأن المقصود ضبطه وتحقيق ألفاظه، وما كان زائدًا أو ناقصًا، وكذلك الشرح، يستشرح هذا المتن على شيخ متقن، وكما قلنا فيما سبق: إنه يجب أن يضاف إلى الإتقان صفة أخرى، وهي الأمانة؛ لأن هذه من أهم ما يكون وأنتم تعلمون أن ذكر القوة والأمانة في القرآن متعدد؛ لأن عليهما مدار العمل، فقد قال العفريت من الجن: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾. وقال صاحب مدين، بل قالت ابنته: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾. وقال تعالى في وصف جبريل: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ فعلى هذين الوصفين القوة والأمانة تبني الأعمال كلها فلابد من شيخ متقن ويكون أمينًا.

الثالث: «عدم الاشتغال بالمطولات» وهذا - أعني الفقرة الثالثة - مهمة جدًّا لطالب العلم، أن يتقن المختصرات أولاً، حتى ترسخ في ذهنه، ثم بعد ذلك يفيض إلى المطولات، لكن بعض الطلبة قد يُغرب، فيطالع المطولات ثم إذا جلس مجلسًا قال: قال صاحب «المغني»، قال صاحب «المجموع»، قال صاحب «الإنصاف»، قال صاحب «الحاوي»؛ ليظهر أنه واسع الاطلاع، وهذا خطأ، نحن نقول: ابدأ بالمختصرات أولاً، حتى ترسخ العلوم في ذهنك، ثم إذا مَنَّ الله عليك فاشتغل بالمطولات. ولهذا قال: عدم الاشتغال بالمطولات، وتفاريق المصنفات، قبل الضبط والإتقان لأصله. أي: لأصل ذلك العلم،وانتبهوا لهذه المسألة، وإياكم أن تشغلوا أنفسكم بالمطولات قبل إتقان ما دونه وقياس ذلك في الأمر المحسوس، أن ينزل من لم يتعلم السباحة البحر العميق، فإنه لا يستطيع أن يتخلص فضلاً عن أن يتقن.

الرابع: «لا تنتقل من مختصر إلى آخر بلا موجب» فهذا من باب الضجر، فهذه أيضًا آفة عظيمة، يعني التنقل من مختصر إلى آخر، أو كتاب فوق المختصر إلى آخر هذه آفة... آفة عظيمة، تقطع على الطالب طلبه، وتضيع على الطالب أوقاته، كل يوم كتاب، بل كل ساعة له كتاب، وهذا خطأ، إذا عزمت أن يكون قرارك الكتاب الفلاني فاستمر، لا تقل: اقرأ فصلاً في هذا الكتاب. ثم تقول: انتقل إلى آخر. فإن هذا

مضيعة للوقت، ويقول: «بلا موجب»، أما إذا كان هناك موجب، كأن لم تجد أحدًا يدرسك في هذا المختصر، ورأيت شيخًا موثوقًا بإتقانه وأمانته يدرس مختصرًا آخر فهذا موجب، لا حرج عليك أن تنتقل من هذا إلى هذا.

خامسًا: «اقتناص الفوائد والضوابط العلمية» وهذا أيضًا من أهم ما يكون.

الفوائد التي لا تكاد تطرق على الذهن، أو التي يندر ذكرها أو التعرض لها، أو التي تكون مستجدة، تحتاج إلى بيان الحكم فيها، هذه اقْتَنِصْهَا، واضْبطْهَا بالكتابة؛ فقيدها، لا تقل: هذا أمر معلوم عندي ولا حاجة أن أقيدها، إن شاء الله لن أنْسَاها. فإنك سرعان ما تنسى، وكم من فائدة تَمر بالإنسان، فيقول: هذه سهلة ما تحتاج إلى قيد. ثم بعد مدة وجيزة يتذكرها، ولا يجدها؛ لذلك احرص على اقتناص الفوائد، التي يندر وقوعها، أو التي يتجدد وقوعها.

أما الضوابط فناهيك بِها، أيضًا احْرِص علي الاهتمام بالضوابط، ومن الضوابط ما يذكره الفقهاء تعليلًا للأحكام فإن كل التعليلات للأحكام الفقهية تعتبر ضوابط؛ لأنها تنبني عليها الأحكام، فهذه أيضًا احتفظ بِها، ولولا أنِّي سمِعت أن بعض الإخوان الآن يتتبع هذه الضوابط في «الروض المربع» ويحررها لقلت: إن من الحسن أن يكلف طائفة منكم بالقيام بِهذا العلم، تتبع «الروض المربع» من أوله إلى آخره، كلما ذكر علة يقيدها؛ لأن كل علة ينبني عليها مسائل كثيرة، إذ إن العلة ضابط يدخل تحته جزئيات كثيرة. مثلًا إذا قال: إذا شك في طهارة الماء من نجاسته، فإنه يبني على اليقين، هذه على كل حال تعتبر حكمًا وتعتبر ضابطًا أيضًا يعلل؛ لأن الأصل بقاء ما كان على ما كان، فإذا شك في نجاسة طاهر فهو طاهر، أو في طهارة نجس فهو نجس؛ لأن الأصل بقاء ما كان على ما كان.

وهذا لو أن الإنسان كلما مر عليه مثل هذه التعليلات حررها وضبطها ثم حاول في المستقبل أن يبني عليها مسائل جزئية، لكان في هذا فائدة كبيرة له ولغيره.

سادسًا: «جمع النفس للطلب والتلقي فيه، والاهتمام والتحرق للتحصيل والبلوغ إلى ما فوقه حتى تفيض إلى المطولات بسابلة موثقة». هذا أيضًا مهم، أن الإنسان يجمع نفسه للطلب فلا يشتتها يمينًا ويسارًا، يوم يطلب العلم، ويوم يفكر، ويقول: والله أفتح مكتبة الناس رزقهم على الله، ويوم ثانِي: أروح إلى مبيع الخضار، هذا ليس بصحيح.

أَجمِع النفسَ على الطَّلبِ ما دمتَ مقتنعًا بأن هذا منهجك وسبيلك، فأجمع نفسك عليه، وأيضًا اجمع نفسك على الترقي منه، لا تبقى ساكنًا، ترَقَّ، فكر فيما وصل إليه

علمك من المسائل، والدلائل حتى تترقى شيئًا فشيئًا، واستعن بمن تثق به من زملائك وإخوانك فيما إذا احتاجت المسألة إلى استعانة، ولا تستح أن تقول: يا فلان ساعدني على تحقيق هذا المسألة، بمراجعة الكتب الفلانية. لا.. الحياء لا ينال العلم به أحد، فلا ينال العلم مستحٍ ولا متكبرٍ[١].

وقوله: «الاهتمام والتجرد للتحصيل والبلوغ إلى ما فوقه...» معناه أن الإنسان يكون عنده شغف شديد، تتحرق نفسه لينالَ ما فوق المنْزلة التي أعطيها، حتى تفيض إلى المطولات بسابلة موثقة.

وكان من رأي ابن العربي المالكي[٢]: ألَّا يخلط الطالب في التعليم بين علمين، وأن يقدم تعليم العربية والشعر والحساب، ثم ينتقل منه إلى القرآن.

☆ الشـــــرح ☆

ألَّا يخلط الطالب في التعليم بين علمين، وهذا ليس على إطلاقه، بل يجب أن يقيد، ولعل ابن خلدون يقيد، فإن لم يفعل بينا ما يحتاج إلى قيدٍ.

لكن تعقبه ابن خلدون بأن العوائد لا تساعد على هذا، وأن المقدم هو دراسة القرآن الكريم وحفظه؛ لأن الولد ما دام في الحجر؛ ينقاد للحكم، فإذا تجاوز البلوغ صعب جبره، أما الخلط بين علمين فأكثر، فهذا يختلف باختلاف المتعلمين في الفهم والنشاط.

☆ الشـــــرح ☆

قوله رحمه الله: «إنك تقدم تعليم العربية»؛ هذا قد يكون مسلَّمًا بالنسبة لمن لا ينطق العربية، وذلك لأنه لا يمكن أن يعرف القرآن الكريم إلا إذا تعلم العربية، لكن من كان عربيًا، فليس من المسلَّم أن نقول: تعلم العربية، بمعنى توسع فيها.

---

(١) ذكره البخاري في كتاب الحياء في العلم عن مجاهد من حديث أم سلمة برقم (١٣٠)، ووصله ابن حجر في التغليق (٢/ ٩٣)، وأخرجه البيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (١/ ٢٨١) (٤١٠) عن مجاهد قوله: «لا يتعلم العلم مُستَحٍ ولا مستكبر».

(٢) هو الإمام الحافظ المفسر القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن العربي الأندلسي الإشبيلي المالكي، ولد سنة ٤٦٨هـ، وتوفي بفاس ٥٤٥هـ. «سير أعلام النبلاء» (٢٠/ ١٩٧).

«والشعر والحساب» كيف يقدم الشعر والحساب على القرآن، فهذا ليس بمسلَّم.

كذلك أيضًا قوله: «لا يجمع بين علمين» فيقال: إن الناس يختلفون في الفهم والاستعداد، فقد يكون سهلاً على المرء أن يجمع بين علمين، وقد يكون من الصعب أن يجمع بين علمين، وكل إنسان طبيب نفسه، فإذا رأى من نفسه قدرة وقوة، فلا بأس أن يجمع بين علمين، ولكن ليحذر النشاط، أو نشاط البدء، لأن نشاط البدء بمنزلة السفر؛ لأن بعض الناس أول ما يبدأ يرى نفسه نشيطًا، نشيطًا ، نشيطًا - ثلاث مرات - فيريد أن يلتهم العلوم جميعًا، فإذا به ينكص على الوراء؛ لأنه كَبَّر اللقمة، ومن كبر اللقمة فلابد أن يَغَصَّ، حتى لو وجدت من نفسك قدرة لا تكلفها ما لا تطيق، اتَّزِن حتى تستمر.

وكان من أهل العلم من يدرس الفقه الحنبلي في «زاد المستقنع» للمبتدئين، و«المقنع» لمن بعدهم للخلاف المذهبي، ثم «المغني» للخلاف العالي، ولا يسمح للطبقة الأولى أن تجلس في درس الثانية... وهكذا؛ دفعًا للتشوش.

☆ الشـــــرح ☆

نعم صحيح، من أهل العلم من يفعل ذلك، إذا كان يدرس في الفقه الحنبلي، يدرس في «زاد المستقنع»؛ لأن «زاد المستقنع» اختصار «المقنع»، ثم ينتقل إلى تدريس «المقنع»، لأن «المقنع» فيه ذكر الروايتين، والوجهين، والقولين في المذهب بدون تعليل، ولا دليل، ليطلع الطالب على أن هناك خلاف في المسائل.

وبعضهم ينتقل من بعد «المقنع» إلى «الكافي» قبل «المغني»، لأن «الكافي» يذكر فيه الخلاف المذهبي مع الأدلة، ولهذا يمتاز على «المقنع»، فهو يذكر الخلاف والأدلةسواء كانت الأدلة السمعية من الكتاب أو السنة، أو الإجماع، أو القياس الصحيح، أو عقلية من النظر، ثم بعد ذلك «المغني»؛ لأن الخلاف في «المغني» ليس مع أصحاب الإمام أحمد، بل مع عامة المذاهب، فيرتقي من هذا إلى هذا.

الموفق - رحمه الله - سلك هذا التدرج، لكن له كتاب قبل «المقنع»، سلم «للمقنع» وهو «عمدة الفقه»، و«عمدة الفقه» للموفق كتابٌ مختصر أقل بكثير من «زاد المستقنع»، من حيث المسائل، لكنها تشتمل على بعض الدلائل، يعني ليست ك«زاد المستقنع»، بل فيها أدلة.

والحاصل: أن المعلم يرتقي بالطلبة درجة فدرجة، حتى يتقنوا ما تعلموه.

قال: «ولا يسمح للطبقة الأولى أن تجلس في درس الثانية وهكذا دفعًا للتشويش» لكني أنا في النقطة الأخيرة لا أستطيع، ولهذا أجمع بين الصغير والكبير فيما ندرسه من الكتب، ونقول: هذا الصغير الآن يزحف، ثم يبدأ يمشي شيئًا فشيئًا حتى تُقِلّه رجلاه، وسبب ذلك أن الطلاب عندنا يتواردون شيئًا فشيئًا، ولو راعينا الوافدين، لأهملنا حق السابقين.

لو قلنا مثلاً: إذا جاء ناس جدد رجعنا في «زاد المستقنع»، إلي باب الطهارة، ووصلنا مثلاً إلي كتاب الصلاة، في هذه الفترة جاء العام الثاني ووفد جماعة ماذا نعمل؟! رجعنا لباب الطهارة، كان مني هذا ظلمًا للسابقين، ومعناه سنبقى دائم الأبد من أول الكتاب إلى الطهارة، هذا لا يستقيم.

واعلم أن ذكر المختصرات فالمطولات التي يؤسس عليه الطلب والتلقي لدى المشايخ تختلف غالبًا من قطر إلى قطر باختلاف المذاهب، وما نشأ عليه علماء ذلك القطر من إتقان هذا المختصر والتمرس فيه دون غيره.

☆ الشـــــرح ☆

الفقرة هذه معناها صحيح، مثلاً: قد يكون الإنسان في بلد ينتحلون مذهب الشافعي، سنجد العلماء يبنون أصول تدريسهم على كتب المذهب الشافعي، وفي بلد ينتهج فيه أهله مذهب الإمام أحمد، تجد العلماء يدرسون كتب مذهب الأمام أحمد... وهلم جرّا.

والحال هنا تختلف من طالب إلى آخر باختلاف القرائح والفهوم، وقوة الاستعداد وضعفه، وبرودة الذهن وتوقده.

☆ الشـــــرح ☆

وهناك أسباب أخرى أيضًا وهي قوة الاستعداد للعلم وتلقيه وضعف ذلك، وكذلك كثرة المشاغل وقلتها، المهم أن الاختلاف وارد في كل شيء لكن ما ذكره أولاً مبنيًا على الغالب وقد يكون من المبتدئين من يمكن أن تدرسه «المقنع».

وقد كان الطلب في قطرنا بعد مرحلة الكتاتيب والأخذ بحفظ القرآن الكريم يمر بمراحل ثلاث لدى المشايخ في دروس المساجد؛ للمبتدئين، ثم المتوسطين، ثم المتمكنين.

ففي التوحيد: «ثلاثة الأصول وأدلتها» و«القواعد الأربع» ثم «كشف الشبهات»، ثم «كتاب التوحيد»؛ أربعتها للشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله تعالى، هذا في توحيد العبادة.

وفي توحيد الأسماء والصفات: «العقيدة الواسطية»، ثم «الحموية» و«التدمرية»؛

ثلاثتها لشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - فـ«الطحاوية» مع «شرحها» وفي النحو «الآجرومية» ثم «ملحة الإعراب» للحريري، ثم «قطر الندى» لابن هشام، و«ألفية ابن مالك» مع «شرحها» لابن عقيل.

وفي الحديث: «الأربعين للنووي»[١]، ثم «عمدة الأحكام» للمقدسي[٢]، ثم «بلوغ المرام» لابن حجر[٣]، و«المنتقى» للمجد ابن تيمية - رحمهم الله تعالى - فالدخول في قراءة الأمات الست وغيرها.

وفي المصطلح: «نخبة الفكر» لابن حجر، ثم «ألفية العراقي» - رحمه الله تعالى.

وفي الفقه: «آداب المشي إلى الصلاة» للشيخ محمد بن عبد الوهاب، ثم «زاد المستقنع» للحجاوي - رحمه الله تعالى - أو «عمدة الفقه» للخلاف المذهبي، و«المغني» للخلاف العالي.

ثلاثتها لابن قدامة - رحمه الله تعالى.

وفي أصول الفقه: «الورقات» للجويني - رحمه الله تعالى، ثم «روضة الناظر» لابن قدامة - رحمه الله تعالى.

وفي الفرائض: «الرحبية»، ثم مع «شروحها»، و«الفوائد الجلية».

وفي التفسير: «تفسير ابن كثير»[٤] - رحمه الله تعالى.

وفي أصول التفسير: «المقدم» لشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى.

وفي السيرة النبوية: «مختصرها» للشيخ محمد بن عبد الوهاب[٥] «وأصلها» لابن

---

(١) هو الإمام الفقيه يحيى بن شرف بن مري بن حسن النووي الشافعي أبو زكريا، عالم جمع بين الفقه والحديث، ولد سنة ٦٣١هـ في نوا من قرى حران، وتوفي فيها سنة ٦٧٦هـ. «شذرات الذهب» (٥/ ٣٥٤)، و«الأعلام» (٨/ ١٤٩).

(٢) هو الشيخ موفق الدين المقدسي، أحد الأئمة الأعلام محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد ابن قدامة الحنبلي، صاحب التصانيف، ولد سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، انتهت إليه معرفة المذهب وأصوله، توفي سنة عشرين وستمائة. «شذرات الذهب» (٦/ ٩٢)، و«سير أعلام النبلاء» (٢٢/ ١٦٥).

(٣) هو أحمد بن علي بن محمد الكتاني العسقلاني أبو الفضل شهاب الدين، من أئمة العلم، ومن أشهر العلماء، أصله من عسقلان بفلسطين، وولد في القاهرة عام ٧٧٣هـ، وتوفي بالقاهرة سنة ٨٥٢هـ. «الضوء اللامع» (١/ ٣٦)، و«الأعلام» (١/ ١٧٨، ١٧٩٩).

(٤) هو أبو الفداء عماد الدين بن عمر بن كثير الدمشقي الفقيه الشافعي، من الحفاظ، قدم دمشق وله سبع سنين وحفظ بعض الكتب، صحب ابن تيمية، وكان كثير الاستحضار، قليل النسيان، جيد الفهم، أثنى عليه العلماء كالذهبي وغيره، توفي سنة أربع وسبعين وسبعمائة. «شذرات الذهب» (٦/ ٢٣١)، و«الأعلام» (١/ ٣٢٠).

(٥) هو إمام التوحيد، وحامل لواء التجديد على نهج السلف الصالح، محمد بن عبد الوهاب =

هشام، وفي «زاد المعاد» لابن القيم - رحمه الله تعالى.

وفي لسان العرب: العناية بأشعارها، كـ«المعلقات السبع»، والقراءة في «القاموس» للفيروزآبادي - رحمه الله تعالى.

☆ الشـــــرح ☆

الأمات لغير العقلاء، والأمهات للعقلاء، هذا هو الفرق، وعلى هذا، فإذا قلت: تجب الزكاة في السخالي وأمهاتِها، أم وأماتِها؟

وأماتِها... لأنَّها لغير العاقل، على كل حال هذا الكلام الذي ذكره الشيخ يحتاج إلى تعليق.

يقول رحمه الله وأطال حياته في طاعته: في التوحيد: «ثلاثة الأصول وأدلتها»، و«القواعد الأربع»، ثم «كشف الشبهات»، ثم «كتاب التوحيد» أربعتها للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، هذا في توحيد العبادة، يعني يبدأ في الأصغر فالأصغر، «ثلاثة الأصول» هي تدور على: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟

«أربع القواعد» أيضًا تدور على قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ١-٢]. «كشف الشبهات» شبهات بعض أهل الشرك التي أوردها وأجاب عنها الشيخ - رحمه الله - بما تيسر.

وفي توحيد الأسماء والصفات: «العقيدة الواسطية» التي ألفها شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - وهي من أخصب كتب العقيدة، وأحسن كتب العقيدة، وسُميت بالواسطية نسبة إلى واسط؛ لأن بعض قضاتِها قدم إلى الشيخ - رحمه الله - وطلب منه أن يكتب ملخصًا في عقيدة السلف، فكتب هذه العقيدة المباركة.

قال: ثم «الحموية»، ثم «التدمرية»، و«الحموية والتدمرية» رسالتان أوسع من «العقيدة الواسطية»، لكنها أجمع منهما؛ لأنه ذكر فيها الأسماء والصفات، والكلام على الإيمان واليوم الآخر، وطريقة أهل السنة والجماعة ومنهجهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك، فهي أجمع من «التدمرية»، و«الحموية»، لكن «التدمرية» و«الحموية» تمتازان بأنَّهما أوسع منها في باب الصفات.

= ابن سليمان التميمي النجدي، رحل لطلب العلم، وتلقى عن كثير من العلماء في المدينة والشام والبصرة، ودعا إلى التوحيد، وجاهد من أجل نشره، توفي رحمه الله سنة ١٢٠٦هـ، وقد ترك حصيلة من المؤلفات، وطائفة من التلاميذ. «الأعلام» (٦/ ٢٥٧).

يقول: فـ «الطحاوية»[١] الفاء للترتيب، الطحاوية مع «شرحها»، وهي معروفة، وصارت شائعة ومنتشرة بين الناس الآن حيث قررت في الجامعة.

قال: وفي النحو «الآجرومية» كتاب صغير في النحو، لكنه مبارك وجامع مقسم سهل، وأنا أنصح به كل مبتدئ في النحو أن يقرأه، وكذلك «ملحة الإعراب» للحريري، ثم «قطر الندى» لابن هشام، و«ألفية ابن مالك» مع «شرحها» لابن عقيل... هكذا قال الشيخ بكر، لكني أقول: «الآجرومية»، ثم «الألفية»، أما أن نحشو أذهاننا بكتب تعتبر كالتكرار لأولها، فلا حاجة.

و«ملحة الإعراب» هذه نظم فيه بيت مشهور وهو قوله:

إن تجد عيبًا فسدّ الخللْ ... تَجَلَّى من لا عيب فيه وعلا

هذا منها وهو مشهور، كثير من الكتّاب الذين يكتبون الكتب العلمية إذا انتهى من كتابه قال:

إن تجد عيبًا فسدّ الخللْ ... تَجَلَّى من لا عيب فيه وعلا

المهم: أنا أختار «الآجرومية» ثم «ألفية ابن مالك»، احفظها واستشرحها من رجل عالم بالنحو وفيها الخير الكثير.

وفي الحديث: «الأربعين» للنووي، هذا كتاب طيب، فيه آداب ومنهج جيد، وقواعد مفيدة جدًّا، في حديث واحد يبني الإنسان حياته عليه: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[٢].

هذه قاعدة إذا جعلتها هي الطريق التي تمشي عليه وتسير؛ لكانت كافية، وفي النطق: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت». فهي من أحسن ما ألف، ثم «عمدة الأحكام» للمقدسي، ثم «بلوغ المرام»... وأرى أن يقتصر على «بلوغ المرام»؛ لأن «عمدة الأحكام» داخلة في «بلوغ المرام» أكثر أحاديثها موجودة في

---

(١) هو الإمام شيخ الحنفية، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الحجري المصري، سمع من طائفة كبيرة من الأئمة حتى =يكاد يكون في السماع من طبقة مسلم، وقد عاصر الأئمة الستة، طلب العلم على خاله إبي إبراهيم المزني تلميذ الشافعي وناصر مذهبه، ثم تحول إلى =المذهب الحنفي، وكان إمامًا ثقةً ثبتًا عالمًا فقيهًا عاقلاً. توفي سنة ٣٢١هـ. «سير أعلام النبلاء» (١٥/ ٩٥)، و«شذرات الذهب» (٢/ ٢٨٩).

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٢٣١٧)، وابن ماجه برقم (٣٩٧٦)، ورواه ابن حبان في صحيحه برقم (٢٢٩).

«بلوغ المرام» . . . و«بلوغ المرام» أوسع منها وأشد تحذيرًا لكن:

إذا لم تستطع شيئًا فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع[١]

إذا قال: أنا والله ما أستطيع حفظ «بلوغ المرام» لا سيما: رواه فلان، وصححه فلان، وضعفه فلان وهذه تدوِّخ رأسي.

قلنا له: إذا لم تستطع شيئًا فدعه. . . ، عندك «عمدة الأحكام» أي ساعة تريد أن تستدل خذ حديثًا منها، ولا حاجة أن تبحث عن صحته؛ لأن أحاديثها منتخبة من البخاري ومسلم.

و«المنتقى» للمجد ابن تيمية، المنتقى أكبر من «بلوغ المرام» بكثير، لكنه أضعف من حيث بيان مرتبة الحديث.

قال: «فالدخول في الأمات الست وغيرها»، ما هي الأمات الست؟

ج: البخاري[٢]، ومسلم[٣]، وأبو داود[٤]، والترمذي[٥]، والنسائي[٦]، وابن ماجه[٧].

---

(١) ديوان «عمرو بن معد يكرب» برقم (٧).

(٢) هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، الإمام في علم الحديث حافظ، ولد سنة (١٩٤هـ) في بخارى، ورحل في طلب العلم إلى خراسان، والعراق، ومصر، والشام، وتوفي سنة ٢٥٦هـ. «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي (٢/ ٤/ ٣٤)، و«الأعلام» (٦/ ٢٥٨، ٢٥٩).

(٣) هو الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صاحب كتاب الصحيح، ولد سنة =أربع ومائتين، وتوفي بنيسابور سنة إحدى وستين ومائتين من الهجرة. «تهذيب التهذيب» لابن حجر (١٠/ ١٢٧)، و«تذكرة الحفاظ» (ص ١١١٤- ١١٣٧).

(٤) هو الإمام الثبت سليمان بن الأشعث بن إسحاق السجستاني صاحب «السنن»، ولد سنة اثنتين ومائتين، وتوفي سنة خمس وسبعين ومائتين بالبصرة. «تذكرة الحفاظ» للذهبي (٢/ ٥٩١- ٥٩٣).

(٥) هو الإمام الحافظ أبو عيسى، محمد بن عيسى بن سورة السلمي الترمذي، مصنف «الجامع» وكتاب «العلل»، وتوفي في رجب سنة تسع وسبعين ومائتين بترمذ. «تذكرة الحفاظ» للذهبي (٢/ ٦٣٣).

(٦) هو الإمام الثبت الحافظ شيخ الإسلام، أبو عبد الرحمن، أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر الخراساني، القاضي، صاحب «السنن»، ولد سنة خمسة عشرة ومائتين، وتوفي بمكة في شعبان سنة ثلاث وثلاثمائة. «تذكرة الحفاظ» للذهبي (٢/ ٦٩٨ . ٧٠١).

(٧) هو أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه الربعي، الحافظ الكبير صاحب «السنن» والتفسير والتاريخ، ولد سنة ٢٠٩هـ، وتوفي سنة ٢٧٣هـ. «تذكرة الحفاظ» للذهبي (٢/ ٦٣٦، ٦٣٧)، و«شذرات الذهب» لابن العماد «٢/ ١٦٤).

وسميت أمات؛ لأنَّها مرجع الأحاديث؛ ولهذا قال بعض العلماء: إذا رأيت حديثًا في غير الأمات الست فلا تحكم عليه حتى تحرره تخريجًا؛ لأن هذه الأمات التي اشتهرت بين المسلمين، وأخذوها وتلقوها بالقبول، وإن كان فيها الضعيف، وربما الموضوع أيضًا، لكن اشتهرت واعتبرت بين المسلمين.

ثم في المصطلح: «نخبة الفكر» لابن حجر، ثم «ألفية العراقي» - رحمه الله - «نخبة الفكر» أظنها ثلاث صفحات تقريبًا، لكنها نخبة، يعني الإنسان إذا فهمها تمامًا، وأتقنها تغني عن كتب كثيرة في المصطلح، لأنَّها مضبوطة تمامًا ولها طريقة غريبة في تأليفها، وهي السرعة والتقسيم، أكثر المؤلفات يأتي الكلام مرسلاً مسلسلاً، لكنه - رحمه الله - اختار هذه الطريقة: الخبر إما أن يكون له طرق محصورة بعدد أو غير محصورة، والمحصورة بعدد كذا وكذا وكذا..، ثم يذكر فتجد أن الإنسان إذا قرأها يجد نشاطًا؛ لأنَّها مبنية على إثارة العقل، وأنا أشير عليكم أيها الطلبة أن تحفظوها؛ لأنها خلاصة وزبدة، ثم «ألفية العراقي» مطولة، لكني أرى أن الإنسان يقتصر على فهمها، وأنه لا حاجة إلى حفظها؛ لأنه قد يكون هناك متون أهم منها، مثل «آداب المشي إلى الصلاة» للشيخ محمد بن عبد الوهاب، ثم «ذاد المستقنع» للحجاوي - رحمه الله - أو «عمدة الفقه» للموفق، ثم «المقنع» للخلاف المذهبي، و«المغني» للخلاف العالي ثلاثتها لابن قدامة - رحمه الله - يعني بذلك: «عمدة الفقه»، «المقنع»، «المغني». لكن غيره ذكر أربعة؛ وهي: «العمدة»، ثم «المقنع»، ثم «الكافي»، ثم «المغني»:

كفى الناس بالكافي[1] واقنع طالبًا ... بِمقنع فقه عن كتاب مطول

وأغنِ بِمغني الفقه من كان باحثًا ... وعمدته من يعتمدها يحصل

ذُكرت هذه الأربع في البيتين، اقرأهما: بيتين. وليس: مائتين. فالعرب تقرأ القصيدة أكثر من خمسين بيتًا، ثم ينصرفون وقد حفظوها.

وفي أصول الفقه: «الورقات» للجويني - رحمه الله تعالى- ثم «روضة الناظر» لابن قدامة، قفزة جيدة..، الورقات على اسمه ورقات صغيرة، لكن بعد هذا إلى

---

(١) يعني الموفق.

«روضة الناظر»، الفرق بينهما بعيد كبير، لكن هناك كتب مختصرة جيدة في أصول الفقه يمكن أن يعتمد الإنسان عليها، وربما تغنيه أيضًا عن «روضة الناظر».

وأصول الفقه هي عبارة عن قواعد وضوابط يتوصل الإنسان بِها إلى معرفة استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية.

في الفرائض: «الرحبية» - يعني - مع شروحها، و«الفوائد الجلية» للشيخ عبد العزيز بن باز[١]، لكن أرى أن «البرهانية» أحسن من «الرحبية»، «البرهانية» أجمع من «الرحبية» من وجه، وأوسع معلومات من وجه آخر، ففي مقدمتها ذكر الحقوق المترتبة في التركة بعد موت الإنسان، يعني ذكر أركان الإرث، وشروط الإرث، ولم تُذكر في «الرحبية».

ذكرها ولم تذكر في «الرحبية»، ذكر الرد، وذوي الأرحام، ولم تذكر في «الرحبية»، على أنها أخصب من «الرحبية» وأجمع، في باب الثلثين، الرحبي ذكر أربعة أبيات، والبرهانِي ذكر بيتًا واحدًا فقال:

والثلثان لاثنتين استوتا فصارا ثمن له النصف أكبر

بيت واحد الثلثان لاثنتين استوتا فصاعدًا ممن له النصف أتى، كل واحدة لها النصف إذا صار معها نظيرها صار لها الثلثان.

ولها شرح لابن سلوم مطولٌ ومختصرٌ ومفيدٌ جدًا؛ فلذلك فأنا أرى أن «البرهانية» أحسن من «الرحبية» للوجوه التي ذكرتُها.

وفي التفسير يقول: «تفسير ابن كثير»، وهو جيد بالنسبة للتفسير بالأثر، لكنه قليل الفائدة بالنسبة لأوجه الإعراب والبلاغة، فخير ما قرأت في أوجه الإعراب والبلاغة «الكشاف» للزمخشري، وكل من بعده فهم عيالٌ عليه، أحيانًا تجد عبارات الزمخشري منقولة نقلًا، لكن تفسير الزمخشري[٢] فيه بلايا من جهة العقيدة؛ لأنه معتزلي.

في أصول التفسير: «المقدمة» لشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى -

---

(١) هو أبو عبد الله عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن باز، ولد في الرياض في اليوم الثاني عشر من ذي الحجة عام ١٣٣٠هـ، وكان بصيرًا في أول الدراسة، ثم أصابه مرض في عينه عام ١٣٤٦هـ، فضعف بصره بسبب ذلك، ثم ذهب بالكلية في مستهل محرم من عام ١٣٥٠هـ، توفي سنة ١٤٢٠هـ.

(٢) هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الزمخشري اللغوي، كان يُضرب به المثل في علم الأدب والنحو، توفي ليلة عرفة من سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة. «الأنساب» للسمعاني (٢/ ٣٧٣).

تعوض عن «المقدمة في التفسير»، وهي كتاب مختصر... جيد... مفيد.

في السيرة النبوية: في هذا الجانب «مختصر سيرة ابن هشام»، للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وأصلها «سيرة ابن هشام»، وكذلك كتاب «زاد المعاد» لابن القيم رحمه الله، وهو أفضل من المختصر؛ لأنه لا يقتصر على سرد التاريخ فقط، ولكنه يشتمل على فقه السيرة، وقد يعرج على التوحيد والأمور العملية الأخرى؛ فعلى طالب العلم الاهتمام بهما.

وفي لسان العرب: العناية بأشعارها، كالمعلقات السبع، قصائد من أجمع القصائد، وأحسنها وأروعها، اختارتْها قريش لكي تعلق في الكعبة، ولهذا تسمى بالمعلقات، ولما ذكر ابن كثير - رحمه الله - «اللامية» لأبي طالب قال: هذه اللامية يحق لها أن تكون مع المعلقات؛ لأنَّها أقوى منها وأعظم، وفيها يقول أبو طالب:

لقد علموا أنَّ ابْنَنَا لا مكذَّب لدينا ولا يعني بقول الأباطل

يعني الرسول ﷺ، وهذا شهادة للرسول ﷺ بأنه صادق، ولكن هذه الشهادة من أبي طالب لم تستلزم القبول والإذعان، فلذلك لم تنفعه وخذل عند موته، فكان النبي ﷺ يقول له: «قل: لا إله إلا الله»[1]، ولكن لم يقلها، نسأل الله العافية.

القراءة في: «القاموس» لكن هل تقرأ في «القاموس» أم تراجع «القاموس»؟ الثاني تراجع؛ أما أن تقرأ في «القاموس» فمهما قرأت في «القاموس»، لا تستفيد الفائدة المرجوة، لكن فيه مقدمات مشروحة جيدة في الصرف، لو قرأها الإنسان يكون ذلك طيبًا، وهكذا من مراحل الطلب في الفنون.

وهكذا من مراحل الطلب في الفنون، وكانوا مع ذلك يأخذون مجرد المطولات، مثل «تاريخ ابن جرير، وابن كثير»، وتفسيريهما، ويركزون على كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم - رحمهما الله تعالى - وكتب أئمة الدعوة وفتاويهم، لا سيما محرراتِهم في الاعتقاد.

☆ الشـــــرح ☆

الشيخ بكر يتحدث عن الطلب في قطرنا - وليس عن الطلب عمومًا - ولهذا هذه الكتب التي عينها إنما هي في قطرنا، وقد يكون ما يساويها أو يشابهها في الأقطار

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٩٥٧٦)، والبخاري برقم (١٣٦٠)، ومسلم برقم (٢٤)، والنسائي برقم (٢٠٣٧).

الأخرى على هذا النمط، وأما قوله: «يركزون على كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم - رحمهما الله». فهذا صحيح، وغالب المتأخرين يركزون عليهما، وكان شيخنا عبد الرحمن السعدي - رحمه الله - يحثنا على قراءتِهما - أي: قراءة كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم - لأن فيهما من التحقيق، والتحرير، والتقعيد ما لا يوجد في غيره، وتحس وأنت تقرأ بأن كلامهما ينبض من القلب؛ ولهذا يؤثر في زيادة الإيمان، وأما تمثيله أيضًا «تاريخ ابن جرير، وابن كثير»، فهذا أيضًا من المراجعة لا بأس، أما كون الإنسان يجعله قراءة يقرؤها فهذا طويل، وربما يقطع عليه وقتًا كثيرًا.

وقوله: «كتب أئمة الدعوة» المراد بها «أيام الدعوة» لشيخ الدعوة محمد بن عبد الوهاب، وأحفاده، ومن تتلمذ عليه.

وهكذا كانت الأوقات عامرة في الطلب، ومجالس العلم، فبعد صلاة الفجر إلى ارتفاع الضحى، ثم تكون القيلولة قبيل صلاة الظهر، وفي أعقاب جميع الصلوات الخمس تعقد الدروس، وكانوا في أدبٍ جمٍّ، وتقدير، بعزة نفس من الطرفين على منهج السلف الصالح - رحمهم الله تعالى؛ ولذا أدركوا وصار منهم في عداد الأئمة في العلم جمع غفير، والحمد لله رب العالمين، فهل من عودة إلى أصالة الطلب في دراسة المختصرات المعتمدة لا على المذكرات، وفي حفظها لا الاعتماد على الفهم فحسب، حتى ضاع الطلاب، فلا حفظ ولا فهم؟

☆ الشـــــرح ☆

قوله - وفقه الله -: «الاعتماد على هذه المتون الأصيلة لا على المذكرات»، هذا صحيح؛ لأن المذكرات قد يكون واضعها ممن لا يعرف في هذا إلا معرفة سطحية، فتجده يلتمس كلمات من هذا وكلمات من هذا، وكلمات من هذا، ولا يكون كلامًا محررًا متناسقًا، لكن هذه الكتب الأصيلة القديمة محررة متناسقة، مخدومة، وكذلك أيضًا، الحفظ هو الأصل، علم بلا حفظ يزول سريعًا، وكان في الأول يلعبون علينا لما كنا بالطلب، يقولون: لا تتعب نفسك في حفظ المتن، عليك بالفهم. لكن وجدنا أننا ضائعون إذا لم يكن عندنا حفظ، ما نفعنا الله تعالى إلا بما حفظنا من المتون، ولولا أن الله نفعنا بذلك وإلا لضاع علينا علم كثير.

فلا تغتر بمن يقول: الفهم؛ ولهذا هؤلاء الدعاة القائلون الفهم لو سألتهم أو

ناقشتهم، لوجدتَهم ضحلاء، ليس عندهم علم، ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ﴾ [النور: ٣٩].

وفي خلو التلقين من الزغل والشوائب، والكدر سير على منهاج السلف، والله المستعان.

☆ الشـــــرح ☆

«خلو التلقين يعين تلقين العلم من الزغل والشوائب والكدر سيرًا على منهاج السلف»

يعني: فينبغي للعالم والمتعلم أن يكون التعليم والتعلم منهما خاليًا من هذه العيوب، بل ينبغي أن يكون صافيًا بحيث يكون المعلم يريد بذلك إيصال العلوم إلى الطلاب دون الاستعلاء عليهم، أو إظهار علمه عليهم، أو ما أشبه ذلك، ويكون التلميذ كذلك مطمئنًا إلى ما يقوله معلمه؛ لأنه إذا كان يتعلم منه يقول: إني أتعلم الآن. ولكن إذا خرجت أبحث مع إنسان آخر، مع عالم آخر، فكأنه لم يأخذ عن هذا العالم أخذ واثق أو مسترهب، وهذا يضيعه بلا شك، لكن إذا أخذ عن العالم أخذ مستفيد واثق، بعد ذلك إذا كبر ترعرع في العلم، وصار عنده ملكة، فلا مانع أن يخالف شيخه فيما يرى أن الصواب في خلافه، لكن ما دام في زمن الطلب، فليتكأ على من يتعلم على يديه، وليأخذ كلامه بثقة واطمئنان حتى يرسخ، أما أن يأخذ ويقول: إذا خرجت أبحث مع ناس أو مع طلاب علم.. هذا ما يصلح أبدًا، ولا يستقيم للطالب طلب على هذا الوجه.

وقال الحافظ عثمان بن خرزاذ (م سنة ٢٨٢هـ) - رحمه الله تعالى[١] -: يحتاج صاحب الحديث إلى خمس، فإن عدمت واحدة فهي نقص، يحتاج إلى عقل جيد، ودين، وضبط، وحذاقة بالصناعة، مع أمانة تعرف منه.

قلت -أي: الذهبي-: الأمانة جزء من الدين، والضبط داخل في الحذق، فالذي يحتاج إليه الحافظ أن يكون: تقيًا، ذكيًا، نحويًا، لغويًا، زكيًا، حييًا، سلفيًا يكفيه أن يكتب بيديه مائتي مجلد.

ويحصل من الدواوين المعتبرة خمسمائة مجلد، وألا يفتر من طلب العلم إلى الممات، بنية خالصة، وتواضع، وإلا فلا يتعن. اهـ.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٣/ ٣٨٠). (الشيخ بكر).

☆ الشـــــرح ☆

والله شروط ثقيلة هذه من الذهبي - رحمه الله - أقول: لو بقينا على كلام الحافظ عثمان بن خرزاذ؛ لكان أحسن - يعني: أهون علينا - الأمانة جزء من الدين.

قوله: «ودين» يحتاج إلى عقل جيد ودين، والضبط داخل في «الحفظ»؛ يعني حذق الشيء، بمعنى فَهِمه وأدركه جيدًا، كم بقي من الخمس؟ يبقى ثلاث، لكن أدخل علينا أكثر من ثلاث: يحتاج أن يكون: تقيًّا، وهذا صحيح، والتقوى رأس كل عبادة، وهي الأصل، والتقوى: هي إتيان أوامر الله واجتناب نواهية؛ لأن بذلك تكون الوقاية من عذاب الله.

«ذكيًا»: يعني: ليس غبيًّا، ضد الذكاء، بأن يكون عنده فطنة، وكم من إنسان حافظ، وليس بذكي، وكان رجل ممن سبق حافظًا جدًّا، سريع الحفظ، بطيء النسيان، حفظ «الفروع» لابن مفلح: «الفروع» لابن مفلح ثلاث مجلدات كبار، وهو حاوي لمسائل الوفاق والخلاف، وكان يحفظه كما يحفظ «الفاتحة»، لكن لا يفهم منه شيًا؛ لأنه غير ذكي، فكانوا يلقبونه بحمار الفروع، كقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥]، لكن لا ينتفع بِها، وكانوا يخرجون به، أو يأتون إليه على عداد أنه نسخة إذا اختلفوا في شيء راجعوه، ماذا قال ابن مفلح في المسألة الفلانية؟ ثم يسرد إليهم فيكون مراجعه - يعني: كتاب مراجعة - فيعطي الناس، يكون عنده حفظ، قوة حافظة إدراكًا، وإبقاءً، ولكنه ليس عنده ذكاء، وبعض الناس بالعكس، ذكاءه متوقد، ولكن ليس عنده حافظة.

«نحويًا، لغويًا» النحو هو الذي يعني بالإعراب والبناء، وهذا يختص بأواخر الكلمات، اللغوي يدخل فيه من علم الصرف، وعلم مفردات اللغة، وعلى هذا لابد من مراجعة كتب النحو، وكتب الصرف، وكتب اللغة ك: «القاموس»، و«لسان العرب» وغير ذلك.

«زكيًا» الزكي والتقي معناهما متقارب، فإن ذُكِرا فينبغي أن يحمل التقي على من ترك المحرمات، والزكي على من قام بالمأمورات، ويعجبني أن أذكر لكم كلمة قالها شيخ الإسلام - رحمه الله - في أهل الكلام قال: إنَّهم أوتوا فهومًا، ما أوتوا علومًا - يعني: عندهم فهم شديد، لكن ما عندهم علم - وأوتوا ذكاءً، وما أوتوا زكاءً - أذكياء لكن ليسوا أزكياء.

«حييًا» لكن بشرط ألا يمنعه من طلب العلم؛ ولهذا قال بعضهم: لا ينال العلم حيي ولا مستكبر. يكون حييًا، ولكن لا يمنعه ذلك من أن يطلب، قالت أم سليم للرسول ﷺ: إن الله لا يستحي من الحق: هل على المرأة الغسل، إذا احتلمت؟ قال: «نعم إذا هي رأت الماء»[١].

«سلفيًا» يعني: يأخذ بطريق السلف في العقيدة، والأدب، والعلم، والمنهج، وفي كل شيءٍ؛ لأن السلف هو صدر هذه الأمة الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونَهم، ثم الذين يلونَهم»[٢].

«يكفيه أن يكتب بيديه مائتي مجلد»، ونعزي أنفسنا أن المجلدات عندهم قليلة، قد يكون خمسين صفحة عندهم مجلد، فإن كان هو المراد فلعل الله أن يعيننا عليه، وإن كان المراد المجلد الستمائة صفحة، فالواحد منا لو يبقى ليلاً نهارًا ما أظنه يكتب مائتي مجلد، مائتي مجلد في ستين صفحة كم؟ اثنَي عشر ألفًا!!

«ويحصل من الدواوين المعتبرة خمسمائة مجلد» أين الذي عنده مكتبة خمسمائة مجلد ؟! على كل حال، هو يقولون على قدر حالهم، ونحن نقول: الله المستعان!!

«وأن لا يفتر من طلب العلم إلى الممات» هذا صحيح، فإن طالب العلم يجب ألا يفتر، لأنه إذا عود نفسه الفتور والكسل اعتاد ذلك، ومن طلب العلا سهر الليالي. ويقال: أَعْطِ العلم كلك تدرك بعضه، وأعطه بعضك يفتك كله. العلم يحتاج إلى تعب وعناء، لكني أقول لكم: إن الإنسان إذا ترعرع في العلم سهل عليه أن يعلم أشياء قد لا تكون في بطون الكتب، لا سيما مع النية الخالصة، وإرادة الحق، والحكم بشرع الله، فإن الله يهبه علمًا لا يطرأ على باله، ولا يجده في بطون الكتب، وكثيرًا ما نبحث مسألة من المسائل في الكتب في مظانِّها ولا تجدها، ثم إذا فكرنا في آية من آيات الله، من كتاب الله، أو في حديث من سنة رسول الله ﷺ وجدنا الحل؛ لأن بركة القرآن والسنة لا يضاهيها أي بركة.

«بنية خالصة وتواضع» هذا من أهم ما يكون.. التواضع، أسأل الله أن يرزقني وإياكم التواضع للحق وللخلق من أهم شيء لطالب العلم التواضع؛ لأن التواضع خلق من الأخلاق العظيمة التي قال الله تعالى فيها لرسوله ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، فأعظم الناس تواضعًا هو رسول الله ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٣٠)، ومسلم برقم (٣١٣)، وأبو داود برقم (٢٣٧)، والترمذي برقم (١٢٢)، والنسائي برقم (١٩٥)، وابن ماجه برقم (٦٠٠، ٦٠١).

(٢) أخرجه البخاري برقم (١٣٠)، ومسلم برقم (٣١٣).

قال: «وإلا فلا يتعن» يعني: لا يُتعب نفسه إن لم يتصف بِهذا، فلا يتعب نفسه، ولكن نقول: عفا الله عنك يا ذهبي، ارجع إلى قول الله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، ولنعامل الناس بما يمكن أن يقوموا به، وإلا لنفر الناس.

لو قلنا للطالب: يكفيك بأن تكتب مائتَي مجلد، ويكفيك أن يكون عندك من الدواوين خمسمائة مجلد، والأكمل ألف مجلد، يعني: لو قلنا للطالب هكذا لثقل عليه الطلب، لكن نقول: يكفيك أن تكتب بيدك ما تقدر عليه، بشرط أن يكون عندك حرص ونشاط في طلب العلم. والله الموفق.

١٧- تلقي العلم عن الأشياخ:

الأصل في الطلب أن يكون بطريق التلقين والتلقي عن الأساتذة والمناقشة للأشياخ، والأخذ من أفواه الرجال لا من الصحف وبطون الكتب، والأول من باب أخذ النسيب عن النسيب الناطق، وهو المعلم، أما الثاني عن الكتاب؛ فهو جماد، فأنَّى له اتصال النسب؟

☆ الشـــــرح ☆

هذا أيضًا مما ينبغي لطالب العلم مراعاته، أن يتلقى العلم عن الأشياخ؛ لأنه يستفيد بذلك فائدتين، بل أكثر:

الفائدة الأولى: اختصار الطريق، بدلاً من أن يذهب فيقلب الكتب وينظر ما هو القول الراجح، وما سبب رجحانه؟ وما هو القول الضعيف؟ وما سبب ضعفه؟ فبدل من ذلك يمد إليهم المعلم هذه لقمة سائغة يقول: اختلف العلماء في كذا، على قولين، أو ثلاثة، أو أكثر، والراجح كذا، والدليل كذا، وهذا لا شك أنه نافع لطالب العلم.

الفائدة الثانية: السرعة، يعني: سرعة الإدراك؛ لأن الإنسان إذا كان يقرأ على عالم، فإنه يدرك بسرعة أكثر ممن ذهب يقرأ في الكتب؛ لأنه إذا ذهب يقرأ يردد العبارة أربع أو خمس مرات لا يفهمها، وربما فهمها أيضًا على وجه خطأ غير صحيح.

الفائدة الثالثة: الرابطة بين طالب العلم ومعلمه، فيكون ارتباط بين أهل العلم من الصغر إلى الكبر، فهذه من فوائد تلقي العلم على الأشياخ، لكن سبق أن قلنا: إنه من الواجب أن يختار الإنسان من العلماء من هو ثقة.. أمين، قوي، يعني: عنده علم، وإدراك، ليس علمه سطحيًا، وعنده أمانة، وكذلك أيضًا إذا كان عنده عبادة، فإن الطالب يقتدي بمعلمه.

وقد قيل: من دخل في العلم وحده خرج وحده[١] . أي: من دخل في طلب العلم بلا شيخ، خرج منه بلا علم، إذ العلم صنعة، وكل صنعة تحتاج إلى صانع، فلابد إذا لتعلمها من معلِّمها الحاذق.

☆ الشـــــرح ☆

هذا أيضًا صحيح، وقد قيل: إنه من كان دليله كتابه، كان خطؤه أكثر من صوابه. هذا هو الغالب بلا شك، لكن قد يندر من الناس من يكرِّس جهوده تكريسًا عظيمًا، ولا سيما إن لم يكن عنده من يتلقى العلم عنده، فيعتمد اعتمادًا كاملاً على الله عزَّ وجلَّ ويدأب ليل نَهار، ويحصل من العلم ما يحصل وإن لم يكن له شيخ.

وهذا يكاد يكون محل إجماع من أهل العلم، إلا من شذَّ، مثل: علي بن رضوان المصري (م سنة ٤٥٣هـ)، وقد رد عليه علماء عصره، ومَن بعدهم، قال الحافظ الذهبي - رحمه الله تعالى - في ترجمته له[٢]: ولم يكن له شيخ، بل اشتغل بالأخذ عن الكتب، وصنف كتابًا في تحصيل الصناعة من الكتب، وإنَّها أوفق من المعلمين، وهذا غلط. اهـ.

وقد بسط الصفدي في «الوافي» الرد عليه، وعنه الزبيدي في «شرح الإحياء» عن عدد من العلماء، معلِّلين له بعدةِ علل؛ منها ما قاله ابن بطلان في الرد عليه[٣]:

السادسة: يوجد في الكتاب أشياء تصد عن العلم، وهي معدومة عند المعلم، وهي التصحيف العارض، من اشتباه الحروف مع عدم اللفظ، والغلط بزوغان البصر، وقلة الخبرة بالإعراب، أو فساد الموجود منه، وإصلاح الكتاب.

وكتابة ما لا يقرأ، وقراءة ما لا يكتب، ومذهب صاحب الكتاب، وسقم النسخ، ورداءة النقل، وإدماج القارئ مواضع المقاطع، وخلط مبادئ التعليم، وذكر ألفاظ مصطلح عليها في تلك الصناعة، وألفاظ يونانية لم يخرجها الناقل من اللغة كالنَّورس، فهذه كلها معوِّقة عن العلم، وقد استراح المتعلم من تكلفها عند قراءته على المعلم،

---

(١) «الجواهر والدرر» للسخاوي (١/ ٥٨). (الشيخ بكر).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٨/ ٥٨)، وانظر «شرح الإحياء» (١/ ٦٦)، و«بغية الوعاة» ١/ ١٣١ (٢٢٨٧)، و«شذرات الذهب» (٥/ ١١)، و«الغيبة» للقاضي عياض (ص١٦، ١٧).(الشيخ بكر).

(٣) «شرح الإحياء» (١/ ٦٦). (الشيخ بكر).

وإذا كان الأمر على هذه الصورة، فالقراءة على العلماء أجدى وأفضل من قراءة الإنسان لنفسه، وهو ما أردنا بيانه. . .

قال الصفدي: ولهذا قال العلماء: لا تأخذ العلم من صحفي، ولا من مصحفي.

يعني: لا تقرأ القرآن على من قرأ من المصحف، ولا الحديث ولا غيره على من أخذ ذلك من المصحف. . . اهـ.

والدليل المادي القائم على بطلان نظرة ابن رضوان: أنك ترى آلاف التراجم والسير على اختلاف الأزمان ومر الأعصار وتنوع المعارف مشحونة بتسمية الشيوخ والتلاميذ، ومستقل من ذلك ومستكثر، وانظر شذرة من المكثرين عن الشيوخ حتى بلغ بعضهم الألوف كما في «العزاب» من «الأسفار» لراقمه، وكان أبو حيان محمد ابن يوسف الأندلسي[١] (م سنة ٧٤٥هـ) إذا ذكر عنده ابن مالك، يقول: أين شيوخه؟

وقال الوليد[٢]: كان الأوزاعي[٣] يقول: كان هذا العلم كريمًا يتلقاه الرجال بينهم، فلما دخل في الكتب، دخل فيه غير أهله.

وروي مثلها ابن المبارك عن الأوزاعي، ولا ريب أن الأخذ من الصحف وبالإجازة يقع فيه خلل، ولا سيما في ذلك العصر، حيث لم يكن بعدُ نَقْطٌ ولا شَكْلٌ، فتتصحف الكلمة بما يحيل المعنى، ولا يقع مثل ذلك في الأخذ من أفواه الرجال، وكذلك التحديث من الحفظ يقع فيه الوهم، بخلاف الرواية من كتاب محرر اهـ.

ولابن خلدون مبحث نفيس في هذا، كما في «المقدمة»[٤] له، ولبعضهم:

من لم يشافه عالمًا بأصوله فيقينه في المشكلات ظنون

وكان أبو حيان كثيرًا ما ينشد:

---

(١) هو الإمام الكبير في العربية والتفسير، المقرئ الأديب أثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن يوسف الغرناطي الأندلسي، ولُد سنة ٦٥٤هـ، ومات سنة ٧٤٥هـ. «شذرات الذهب» (٦/ ٢٨٨ - ٢٩١).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٧/ =١١٤).

(٣) هو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد أبو عمر الأوزاعي الإمام الكبير، ولد في حياة الصحابة سنة ثمان وثمانين. أريد على القضاء مرات فامتنع، وهو أول من دوّن العلم بالشام، كان كثير الحديث والعلم والفقه، بل كان حجة زمانه، وكان ممن نسب إليه بعض المذاهب الفقهية التي اندثرت، توفي سنة سبع وخمسين ومائة. «وفيات الأعيان» (٣/ ١٢٧)، «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٧/ ١١٧).

(٤) «المقدمة» لابن خلدون «٤/ ١٢٤٥». (الشيخ بكر).

يظنُّ الغامر أن الكتْبَ تَهدي أخا فَهْمٍ لإدراك العلوم
وما يدري الجهول بأن فيها غوامض حيرت عقل الفهيم
إذا رُمْتَ العلومَ بغيرِ شَيْخٍ ضللت عن الصراطِ المستقيم
وتلتبس الأمور عليك حتى يصير أضل من «توما الحكيم»

☆ الشـــــرح ☆

هذه الكلمات فيها ما أشرنا إليه من قبل، أن الأخذ عن العلماء والمشايخ أفضل من الأخذ من الكتب...، وبين ما نقله هنا في الرد على ابن بطلان، قال: «يوجد في الكتاب أشياء تصدُّ عن العلم، وهي معلومة عند المعلم، والتصحيف العارض من اشتباه الحروف مع عدم النقط»، وكانوا فيما سبق يكتبون بلا نقط، فيخطأ الإنسان، فمثلاً ربما تجد كلمة «بزة»: اشتريت بزًّا بصاع من تمر بدون مقابضة، إذا لم يكن فيها نقطة «برًّا»، ومعلوم أنك إذا اشتريت برًّا بتمرٍ بدون مقابضة، فالبيع غير صحيح، فتختلف الأحكام باختلاف النقط، كذلك «والغلط بزوغان البصر» يعني: بزوغ البصر، فيرى الكلمة على صورة غير حقيقتها، لا سيما إذا كان الكتاب ليس جيدًا، فمثلاً بعض الناس إذا كتب كلمة «زين» ربط طرف النون بطرفها الأول، فتكون كأنَّها «زيّه» فيحصل الخطأ، كذلك «قلة الخبرة بالإعراب» والإعراب له أثر في تغيير المعنى، فإذا قرأ مثلاً: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ فقرأه إنسان لا يعرف الإعراب، والكلمة ما شُكِلت ربما يقول: (وكلم الله موسى تكليما)، فيختلف المعنى اختلافًا عظيمًا.

«أو فساد الموجود فيه»، يعني: من الإعراب.

و«إصلاح الكتاب وكتابة ما لا يقرأ، وقراءة ما لا يكتب»

كل هذا يعتري من يأخذ العلم عن الكتاب، كذلك «مذهب صاحب الكتاب» ربما يكون مذهبه مذهب المعتزلة، أو جهمي[1]، أو غيره، وأنت لا تدري، وكذلك «وسقم

---

(١) هو أبو محرز الجهم بن صفوان السمرقندي، من موالي بن راسب رأس الجهمية الضال المبتدع، قُتل سنة ١٢٨هـ على يد مسلم بن أحوز المازني بمرو في آخر ملك بني أمية، وقد زرع شرًّا عظيمًا، فكان يقول: إن القرآن مخلوق، إن الله لم يزل عالمًا بالأشياء قبل أن يكون، وإنه لا يوصف بالصفات التي يتصف بها المخلوق؛ لأن ذلك يقتضي التشبيه، إلى غير ذلك من الضلالات المنكرة. «الملل والنحل» للشهرستاني (١/ ٨٦)، و«لسان الميزان» لابن حجر (٢/ ١٤٢)، و«التسعينية» لابن تيمية «١/ ١٧١).

الناسخ، ورداءة النقل، وإدماج القارئ مواضع المقاطع»، وكل هذا خلل عظيم، معناه أن الكلمة لابد أن تقف عليها، فيأتي القارئ ليقرأ الكتاب، ويقرأ مع ما بعدها ويختلف المعنى.

«وخلط مبادئ التعليم». بحيث لا يميز بعضها من بعض، بمعنى أن الكاتب ربما لا يكون متقنًا في تحرير الكتاب فيخلط هذا مع هذا، والمبتدئ لا يعلم.

«ذكر ألفاظ مصطلح عليها في تلك الصناعة». وهو لا يدري مثل كلمة في المصطلح «معضل، منقطع» فما معنى المعضل؟ إذا لم يكن عنده علم أشكل عليه هذا الشيء.

يقول: «ألفاظ يونانية لم يخرجها الناقل من اللغة كالنورس» هذه لابد أن تفهموها أنتم، ما هو النورس؟

ج: طائر؟. والله ما أدري؛ لأن الطائر ما يكون ألفاظًا يونانية، فلعلها اسم لعلم من العلوم.

يقول: «فهذه كلها معوقة عن العلم، وقد استراح المتعلم من تكلفها عند قراءته على المعلم، وإذا كان الأمر على هذه الصورة، فالقراءة على العلماء أجدى، وأفضل من قراءة الإنسان لنفسه، وهو ما أردنا بيانه».

ثم نقل عن بعض العلماء أنه قال: لا تأخذ العلم عن صحفي، ولا عن مصحفي. يعني: لا تقرأ القرآن على من قرأ من مصحف، ولا الحديث وغيره على من أخذ ذلك من الصحف.

وهذا كله فيما إذا كانت الأشياء التي يقرأ منها ليست فيها بيان، أما إذا كان فيها بيان، كالموجود الآن من المصاحف - والحمد لله، فهو واضح.

الفصل الثالث
آداب الطالب مع شيخه

١٨-رعاية حرمة الشيخ:

بما أن العلم لا يؤخذ ابتداءً من الكتب بل لابد من شيخ تتقن عليه مفاتيح الطلب؛ لتأمن من العثار والزلل، فعليك إذن بالتحلي برعاية حرمته، فإن ذلك عنوان النجاح والفلاح والتحصيل والتوفيق، فليكن شيخك محل إجلال منك، وإكرام وتقدير وتلطف، فخذ بمجامع الآداب مع شيخك في جلوسك معه، والتحدث إليه، وحسن السؤال والاستماع، وحسن الأدب في تصفح الكتاب أمامه ومع الكتاب، وترك التطاول والمماراة أمامه، وعدم التقدم عليه بكلام منك أو الإلحاح عليه في جواب، متجنبًا الإكثار من السؤال، لا سيما مع شهود الملأ، فإن هذا يوجب لك الغرور، وله الملل.

☆ الشـــــرح ☆

آداب الطالب مع شيخه، وهذه من أهم الآداب لطالب العلم، أن يعتبر شيخه معلمًا، مربيًا؛ معلمًا يلقي إليه العلم، مربيًا يلقي إليه الآداب، والتلميذ إذا لم يثق بشيخه في هذين الأمرين، فإنه لن يستفيد منه الفائدة المرجوة.

فمثلاً: إذا كان عنده شك في علمه، كيف ينتفع به؟ إن أي مسألة ترد على لسان الشيخ سوف لا يقبلها حتى يسأل ويبحث، وهذا خطأ في التقدير من وجه، وخطأ في التصرف من وجه آخر، أما كونه خطأ في التقدير: فإن الشيخ المفروض فيه ألاَّ يجلس للتعليم إلا وهو يرى أنه أَهْلٌ [لذلك]، وأن التلميذ لم يأتِ إلى هذا الشيخ إلا وهو يعتقد أنه أهل.

أما في المنهج؛ فلأن الطالب إذا سار هذا المسير، وسلك هذا المنهج سوف يبني علمه على شفا جرف هارٍ؛ لأن نفسه قلقة، ليس واثقًا كل الثقة في هذا الشيخ الذي قرأ عليه؛ ولهذا يضيع عليه الوقت، ويضيع عليه التحصيل.

وقول الشيخ: «إن العلم لا يؤخذ ابتداءً من الكتب». سبق الكلام عليه، وأنه لابد من القراءة على شيخ، بل لابد من شيخ متقن، تتقن عليه مفاتيح الطلب، وتأمن من

العثار والزلل، فعليك إذن بالتحلي برعاية حرمته، فإن ذلك عنوان النجاح والفلاح والتحصيل والتوفيق، وهذا كما قال الشيخ. واضحٌ؟

«فليكن شيخك محل إجلال منك وإكرام وتقدير وتلطف» كل هذا صحيح، ولكن فهل نحن عملنا بذلك؟ إذا كان الطالب يمر بشيخه ولا يسلِّم [عليه]، هذا ليس من الآداب، بل إنه إذا حاذى شيخه مر مرَّ السحاب، وعجل ليدرك، هذا ليس من الآداب، نحن نذكر أننا لما كنا طلابًا، إذا رأينا شيخنا من بعيد نقف ونسلم، ومثلًا: إذا كنا معه ندخل المسجد نمكنه أن يدخل قبلنا، وأنا شخصيًّا ما أريد هذا، أن تقفوا لي وأدخل قبلكم، فأنا مسامح، لكن أريد السلام الذي أمر به الرسول ﷺ بإفشائه[1]، كذلك بعض الناس يمرُّ مع زميله منكم أنتم أيضًا الطلبة يمر مع زميله، ثم يقنع رأسه هكذا كأنه يزلق في الماء..، هذا غلط أيضًا، أعجبني الأخ هداية الله، كان يمر من الصف خارجًا من المسجد، ولا يمر بواحد من الطلبة، ولو كان بعيدًا إلا سلم عليه، هذا طيب لكن كونه يمشي إلى جنبه، هذا جاء من اليمين، وهذا جاء من اليسار، ثم يتلاقيان أنا في نفسي أنه لا يسلم أحدهما على الآخر؛ لأنني لا أسمع صوتًا، لا أرى حركة، وهذا غلط، والله غلط.

يعني: ينبغي لطالب العلم، ولا سيما مع أقرانه، أن يكون على أحسن الأدب.

يقول كذلك: «خذ بمجامع الآداب مع شيخك في جلوسك معه، والتحدث إليه». وهذا صحيح، اجلس جلسة المتأدب؛ يعني: لا تمد رجليك بين يديه؛ لأن هذا سوء أدب، ولا تجلس متكئًا، هذا أيضًا سوء أدب، ولا سيما في مكان الطلب، أما إذا كنت في مكان جلوس عادي، فهذا الأمر أهون، كذلك أيضًا في التحدث إليه، لا تتحدث إلى شيخك وكأنما تتحدث مع قرينك، هذا لا يستقيم، تحدَّث إليه تحدث الابن إلى أبيه باحترام وتواضع، ولكن «انظروا» يا جماعة ترى هذا ليس بالنسبة لي معكم، أنا ما يهم خاطبوني كأني أحد أقرانكم ما يهم، لكن «بس» الشيء الذي لابد منه، لابد منه.

يقول: «حسن السؤال»، حسن السؤال، والاستماع، حسن السؤال... الحمد لله حَسَنٌ فأرى أنكم تحسنون السؤال... لا أحد يسأل إلا باستئذان... وهذا طيب، وإذا سائل يسأل بِهدوء، وبرفق، والحمد لله هذا طيب، وبعضهم أيضًا يقول: أحسن

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٩٠٧٣)، ومسلم في بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون برقم (٥٤)، والترمذي (١٨٥٤)، وأبو داود (٥١٩٣)، وابن ماجه (٦٨) من حديث أبي هريرة.

الله إليك مثلاً، وما أشبه ذلك، كل هذا الحمد لله أنتم على مستوى جيد منه.

كذلك أيضًا «حسن الأدب في تصفح الكتاب أمامه ومع الكتاب». تصحف الكتاب بقوة، وهذا ما يصلح، لابد إذا تصفحت الكتاب يكون [ذلك] برفق؛ أولاً: تأدبًا مع الشيخ، والثاني: رفقًا بالكتاب؛ لئلا يتمزق؛ ولهذا قال: «أمامه ومع الكتاب».

«وترك التطاول والمماراة أمامه». والتطاول في الواقع ليس أمرًا محسوسًا، مدركًا بالحس الظاهر...، لكن النفس تشعر بأن هذا السائل متطاول، وقد يكون هذا لسوء الظن، وقد يكون لفراسة، لكن التطاول معروف، كذلك المماراة، الممارة يعني: يجابه الشيخ، ثم إذا أجاب قال: وإذا كان كذا، وإذا أجاب، قال: وإذا كان كذا، يسألك عن مسألة من المسائل تجيبه، ثم يأتي بمسألة فرضية تجيبه على هذا الفرض، تجيب بفرض آخر أضيق من الأول، هذه مماراة ليس لها داعٍ.

كذلك: «عدم التقدم عليه بكلام أو مسير» الله المستعان، وهذا - الحمد لله - عندكم موجود، إلا أن أحيانًا بعضكم يجيب قبل أن أتكلم أنا، ولكني ربما أسخط عليه وأقول: أتريد أن أنزل عن هذا لك؟ فليتحمل مني، فعلى كل حال لا ينبغي للطالب أن يتقدَّم بين يدي الشيخ بكلام أو مسير أيضًا، المسير هذا الحمد لله فيكم أدب، لكن وفيكم سوء أدب، ومن ذلك أنه إذا تقدم الشيخ ليخرج من المسجد، وكان حذاء الطالب عن يمين الشيخ، والطالب عن يساره خطى أمام الشيخ من الأمام؛ ليأخذ الحذاء، تقدم في المسير أم لا؟ هذا تقدم في المسير، وإعاقة لسير الشيخ، كأن يقول الشيخ: انتظر حتى أعبر وأمرّ، هذا أيضًا ليس من الأدب الطيب.

وقوله أيضًا: «أو إكثار الكلام عنده» إكثار الكلام عنده فيه سوء أدب، لكن المجالس تختلف، إذا كان مجلس علم ومجلس جد فلا تكثر، لكن إذا كان المكان نزهة، فهذا لا بأس أن يأتي أحد يكثر الكلام، يوسع الصدر؛ صدر الشيخ، وصدر الحاضرين، ما فيه مانع.

كذلك أيضًا: «أو مداخلة في حديثه ودرسه بكلام منك» مداخلة معناها: الشيخ يتكلم، مستمرًا في كلامه، فتأتي أنت وتدخل فيه - أي في كلامه - لتقطع الكلام، هذا لا يصح لا في الدرس، ولا خارج الدرس؛ لأنه من سوء الأدب.

«أو الإلحاح عليه في جواب». الإلحاح في الجواب إذا قال مثلاً: سأل الشيخ قال له الشيخ: انتظر، أعاد. قال: انتظر. أعاد، قال: انتظر. ربما يأتي بعض الناس يقول: جاوب، يقولون للشيخ.. وهو يقول: انتظر. هذا أيضًا غلط، إذا قال: انتظر، فانتظر حتى يقول هو لك: ما سؤالك، ولا تلح عليه.

كذلك أيضًا: «متجنبًا الإكثار من السؤال». لأن بعض الناس يحب الإكثار من السؤال، وقد يكون في غير موضوع الدرس، فيقول الشيخ: لا تكثر، «لا سيما مع شهود الملأ، فإن هذا يوجب لك الغرور، وله الملل». صحيح، مثلاً: في مجلس كبير تبدأ تسأل بعض الناس، حتى إذا جلسوا على المائدة، أكثروا من الأسئلة، هذا يسأل، وإذا خلص الثاني، يسأل، وإذا خلص الثالث، يسأل، والرابع يسأل، فيخرج الشيخ ولم يأكل الطعام، وهؤلاء مستريحين، لأنه يسأل سؤالاً، ويبدأ يأكل، والثاني يسأل سؤالا ويبدأ يأكل، والشيخ مسكين مشتغل بالأجوبة، ولهذا لا حرج على الشيخ في هذا الحال أن يقول: إذا حضر الهرس بطل الدرس، أو إذا حضر الهرس - يعني: الطعام - بطل الدرس. لأن صحيح بعض الناس يبتلون بِهذا.

ولا تناده باسمه مجردًا، أو مع لقبه كقولك: يا شيخ فلان، بل قل: يا شيخي. أو: يا شيخنا. فلا تسمه، فإنه أرفع في الأدب، ولا تخاطبه بتاء الخطاب، أو تناديه من بُعدٍ من غير اضطرار.

☆ الشـــــرح ☆

سبحان الله!! هذه آداب عامة، لا تناديه باسمه، لا تقل: يا محمد، يا عبد الله، يا علي مجردًا، أو مع لقبه يا شيخ محمد، يا شيخ عبد الله، لا تفعل، بل قد يقال: حتى ولا بلقبه.. لا تقل ياشيخ.. قال: أحسن الله إليك، وما أشبه ذلك، أو يقول: قل: يا شيخي، أو يا شيخنا، «فلا تسمه، فإنه أرفع في الأدب» طيب وهل يقال مثل ذلك بالنسبة لمناداة الأب؟ لا تناده باسمه، نعم وهل تخبر عنه باسمه؟ تقول: قال فلان؟ لا. ولكن وقع عن الصحابة أنَّهم يسمون آباءهم، فيقول ابن عمر: قال عمر، وما أشبه ذلك من الكلام.

فيُقال: إن الخبر أهون من النداء؛ لأنك لو ناديت أباك، فقلت: يا فلان. صار من سوء الأدب، لكن لو تقل: قال فلان، وهو مشهور بعلم، أو إمارة أو ما أشبه ذلك فإنه لا يعد ذلك سوء أدب، فلكل مقام مقال، وباب الطلب أشد، يجب أن يكون أشد في الاحترام.

طيب، يقول: «ولا تخاطبه بتاء الخطاب» يعني مثل [ألا] تقول: قلتَ: كذا وكذا، قلتَ في الدرس الماضي: كذا وكذا..؛ لأن هذا فيه إساءة أدب، وفيه إشعار بأنك لم ترض قوله، إذًا ماذا تقول؟ تقول: قلنا: كذا وكذا، مر علينا كذا وكذا. أما قلتَ: كذا

وكذا. فهذا لا يليق مع الشيخ.

«أو تناديه من بعد من غير اضطرار» في أقصى الشارع الشيخ، تقول: يا فلان... يا فلان ما يصلح، متى تناديه عجل شوي.. عجل شوي إلى أن تصل، فإذا وصلت فلا بأس، إلا من ضرورة، إذا كانت هناك ضرورة بحيث يكون عليه خطر هو أمامه مثل حفرة...، أمامه سيارات...، أمامه أشياء يخاف عليه منها... فهنا لا بأس أن تناديه من بعيد، أو أنت مضطر إليه، قد تكون ضرورة تريد أن يساعدك في شيء من الأشياء، هذا لا بأس به.

وانظر ما ذكره الله تعالى من الدلالة على الأدب مع معلم الناس الخير ﷺ في قوله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

☆ الشـــــرح ☆

هذه الآية للعلماء في تفسيرها قولان:

القول الأول: لا تناده باسمه، كما ينادي بعضكم بعضًا، وهذا ما ساقه المؤلف الشيخ بكر من أجله.

والقول الثاني: لا تجعلوا دعاءه إياكم كدعاء بعضكم بعضًا، بل عليكم أن تجيبوه، وأن تمتثلوا أمره، وتجتنبوا نهيه بخلاف غيره، فغيره إذا دعاك إن شئت أجبه، وإن شئت لا تجبه، يعني: إذا قال: يا فلان، فإن شئت أجب، وإن شئت فلا تجب، لكن النبي ﷺ إذا دعاك يجب أن تجيبه؛ ولهذا قال العلماء: إن النبي ﷺ إذا دعا الإنسان وهو في صلاة، وجب عليه أن يجيبه ولو قطعها.

ففي الآية قولان لأهل العلم، فعلى القول بأن المعني: لا تناده باسمه كما ينادي بعضكم بعضًا تكون دعاء مضافة إلى الفاعل، أو المفعول، يعني.. لا تجعلوا دعاءكم الرسول كدعاء بعضكم بعضًا. وإذا قلنا: دعاء الرسول، يعني: إذا دعاكم فأجيبوه، تكون مضافة إلى الفاعل، يعني: لا تجعلوا دعاء الرسول إياكم كدعاء بعضكم بعضًا.

طيب، بناءً على هذه القاعدة التفسيرية: أن الآية إذا كانت تحتمل معنيين، لا منافاة بينهما، فإنَّها تحمل على المعنيين، هل يمكن هنا أن نحملها على المعنيين؟ نعم يمكن أن نحملها على المعنيين.

وكما لا يليق أن تقول لوالدك ذي الأبوة الطينية: يا فلان، أو يا والدي فلان، فلا يجمل بك مع شيخك.

☆ الشـــــرح ☆

«ذي الأبوة الطينية». أي: لا تقول لأبيك من النسب: يا فلان، فكذلك أبوك في العلم، لا تقول: يا فلان. والشيخ بكر لم يقل: أن تقول لوالدك ذي النسب، كالأبوة الطينية. إشارة إلى حقارته بالنسبة لأب العلم - المعلم.

والتزام توقير المجلس، وإظهار السرور من الدرس، والإفادة به.

☆ الشـــــرح ☆

هذا أيضًا مهم، أن يبدي السرور من الدرس، والإفادة به، وأن ترتقبه بفارغ الصبر، أما أن تتململ، مرة تقلب الكتاب، ومرة تزين الغترة، وما أشبه ذلك، هذا معناه الملل، فالذي ينبغي أن الإنسان يفرح، وكأنه نزل في رياض يجني ثمارها.

وإذا بدا لك خطأ من الشيخ، أو وهم فلا يسقطه ذلك من عينيك، فإنه سبب لحرمانك من علمه، ومن ذا الذي ينجو من الخطأ سالمًا؟

☆ الشـــــرح ☆

ولكن إذا بدا وهم أو خطأ من الشيخ هل تسكت، أو تنبهه، وإذا نبهته هل تنبهه في مكان الدرس، أو في مكان آخر؟ هذا يجب التزام الأدب فيه. نقول: لا يجوز لك أن تسكت على الخطأ؛ لأن هذا ضرر عليك وعلى شيخك، فإنك إذا نبهته على الخطأ وانتبه، أصلح الخطأ، كذلك الوهم، قد يتوهم، قد يسبق لسانه إلى كلمة لا يريدها...، فلابد من التنبيه، ولكن يبقى هل أنبهه في مكان الدرس، أم إذا خرج؟ هذا ينظر القرائن، قد تقتضي الحال أن تنبهه في الدرس؛ فإذا لم نصلح الخطأ في حينه، نشر هذا العلم خطأ، فلابدَّ من التنبيه في مكان الدرس، أما لو كان لا يحضر، أو ليس يسمع هذا الوهم، أو هذا الخطأ إلى الطلاب، فإن من الأليق ألا تنبهه في مكان الدرس،بل إذا خرج تلتزم الأدب معه، وتمشي معه، وتقول: سمعت كذا وكذا، فلا أدري أوهمت أنا في السمع، أم أن الشيخ أخطأ مثلًا، إذن التنبيه على الخطأ والوهم حُكمه.. واجب لابد منه؛ لأن السكوت إضرار بالطالب، وإضرار بالمعلِّم، لكن أين يكون التنبيه؟ حسب ما تقتضيه الحال، وعلى كل حال، فكما قال الشيخ: لا

ينبغي للإنسان أن يسقط الشيخ من عينه، لخطأ من ألف إصابةٍ، أما لو كان كثير الخطأ، كل ما تكلم، فهو لا ينبغي أن يكون شيخًا، هذا ينبغي أن يكون متعلمًا قبل أن يكون معلِّمًا.

واحذر أن تعامله بما يضجره، ومنه ما يسميه المولدون: «حرب الأعصاب»، بمعنى: امتحان الشيخ على القدرة العلمية والتحمل.

☆ الشـــــرح ☆

هذا صحيح، بعض الناس يقول: سأمتحن الشيخ، ثم يأتي بأسئلة معضلة ويبدأ يروح يمينًا ويسارًا، كلما أجاب الشيخ بالجواب قال: طيب، وإذا كان كذا، فيقول: إذا كان كذا فالحكم كذا، فقال: وإذا كان كذا الحكم: كذا، وإذا كان كذا، ويصعد مائة درجة بِهذه التقديرات، يقول: سأنظر هل يضجر ويمل ويغضب...، فما رأيكم لو غضب الشيخ في هذه الحال؟ يحق له ذلك؟ نعم... طيب ولو طرد الطالب؟ هذا ينظر فيه.

وإذا بدا لك الانتقال إلى شيخ آخر، فاستأذنه بذلك، فإنه أدعى لحرمته، وأملك لقلبه في محبتك والعطف عليك.

☆ الشـــــرح ☆

إذا بدا لك أن تنتقل إلى شيخ آخر، أو أن تتعلم من شيخ آخر علمًا آخر غير ما تتعلمه عند شيخك، فإنه من الأدب أن تستأذن، للفائدة التي ذُكرت: «إنه أدعى لحرمته، وأملك لقلبه ومحبتك والعطف عليك» ثم إنه قد يعلم عن الشيخ الذي تريد أنت الذهاب إليه ما لا تعلمه أنت، فينصحك، ويقول: احذر منه، أو لا تذهب إليه؛ لأن كثيرًا من الشباب الصغار قد يغترون بأسلوب أحد من الناس، وبيانه وفصاحته، فيظنونه ذاك الرجل العظيم، لكنه على خطر، فلهذا استئذان الشيخ له فوائد، منها ما ذكره الشيخ بكر، ومنها ما أشرنا إليه، إلا أنه قد يكون عند شيخك العلم عن هذا الشيخ الذي تريد أن تذهب إليه ما ليس عندك، فينصحك، ويبين لك، كذلك أيضًا إذا أراد الإنسان أن يسافر مثلًا، ويعرف من شيخه أنه يتفقد الطلاب، وأنه ينشغل قلبه إذا فقد أحدًا، ولا سيما إن كان من الحريصين، فينبغي أن تؤذنه، وتقول: إنني مسافر. حتى لا ينشغل قلبه، أو يتهمك بالخمول والكسل والملل، وما أشبه ذلك.

إلى آخر جملة من الآداب يعرفها بالطبع كل موفق مبارك، وفاءً لحق شيخك في أبوته الدينية، أو ما تسميه بعض القوانين باسم الرضاع الأدبي[١]، وتسمية بعض العلماء له الأبوة الدينية أليق، وتركه أنسب.

واعلم أنه بقدر رعاية حرمته يكون النجاح والفلاح، وبقدر الفوت يكون من علامات الإخفاق.

تنبيه مهم: أعيذك بالله من صنيع الأعاجم، والطرقية، والمبتدعة الخلفية، من الخضوع الخارج عن آداب الشرع، من لحس الأيدي، وتقبيل الأكتاف، والقبض على اليمين باليمين والشمال عند السلام، كحال تودد الكبار للأطفال، والانحناء عند السلام، واستعمال الألفاظ الرخوة، المتخاذلة، سيدي، مولاي، ونحوها من ألفاظ الخدم والعبيد.

☆ الشـــــرح ☆

«أعيذك بالله»يعني: هذه الجملة يريد به التحذير من هذا «صنيع الأعاجم والطرقية والمبتدعة الخلفية، من الخضوع الخارج عن آداب الشرع من لحس الأيدي» هذا ما سمعنا به، أقول: لحس الأيدي: أن يخرج الإنسان لسانه ويلحس اليد، لكن تقبيل الأيدي كثيرًا، وتقبيل الأيدي لا بأس به ما لم يخرج عن حدِّ الإفراط والزيادة، وتقبيل الأكتاف ليس أيضًا مذمومًا، على كل حال ولا محمودًا بكل حال، عندما يأتي الإنسان من سفر فلا بأس أن يقبل هامته وجبهته، وكذلك بأكتافه، لأنه لا يضر إلا إذا اقترن ذلك بانحنائه، كذلك القبض على اليمين باليمين والشمال، هذا أيضًا لا نرى فيه بأسًا، فإن ابن مسعود رضي الله عنه - قال: علمني النبي ﷺ التشهد كفِّي بين كفَّيه[٢]. وهذا يدل على أن يقبض الكف بالكف، وإذا اعتاد الناس أن يفعلوا ذلك عند السلام، فلا حرج؛ لأنه ليس فيه نَهي، صحيح أن المصافحة باليد مع اليد فقط، لكن هذا من باب إظهار الشفقة والإكرام، كما هو معروف الآن، فلا نرى في ذلك بأسًا، بل الانحناء عند السلام، حق هذا خلق ذميم، ينهى عنه؛ لأنه ورد النهي عن ذلك.

---

(١) «مقاصد الشريعة» لعلال الفاسي (ص٣٣). (الشيخ بكر).

(٢) أخرجه أحمد برقم (٣٥٦٢)، والبخاري برقم (٨٣١-٨٣٥)، ومسلم برقم (٩٦٨)، وأبو داود برقم (٢٨٩)، وابن ماجه (٨٩٩).

«استعمال الألفاظ الرخوة المتخاذلة: سيدي، مولاي» هذه ما لها داعٍ، إلا حقيقة أن الشيخ سيد إلى تلميذه، ولكن لا ينبغي أن يتخاذل أمامه حتى يقول: سيدي، أو يقول: مولاي، ولكن مع ذلك هو جائز من حيث الشرع، إلا أنه قال بالنسبة للعبد المملوك، يقوله: سيده المالك، كما جاء في الحديث: «وليقل: سيدي ومولاي»[١].

وانظر ما يقوله العلامة السلفي الشيخ محمد البشير[٢] الإبراهيمي الجزائري (م سنة ١٣٨٠هـ) - رحمه الله تعالى - في «البصائر»، فإنه فائق السياق.

☆ الشـــــرح ☆

يعني: أحالنا إلى هذا الكتاب المسمى «البصائر»، فإنه فائق السياق لا أعرف هذا الكتاب، ولا طالعته.

١٩-رأس مالك أيها الطالب من شيخك:

القدوة بصالح أخلاقه، وكريم شمائله، أما التلقي والتلقين فهو ربح زائد، لكن لا يأخذك الاندفاع في محبة شيخك، فتقع في الشناعة من حيث لا تدري، وكل من ينظر إليه يدري، فلا تقلده بصوت ونغمة، ولا مشية، وحركة، وهيئة، فإنه إنما صار شيخًا جليلًا بتلك، فلا تسقط أنت بالتبعية له في هذه.

☆ الشـــــرح ☆

«القدوة بصالح أخلاقه وكريم شمائله» هذا من أهم ما يكون إذا كان شيخك على جانب كبير من الأخلاق الفاضلة الطيبة، فهنا اجعله قدوة لك، لكن قد يكون الشيخ على خلاف ذلك أو عنده نقص في ذلك، فلا تقتدي به في هذا، ولا تقل إذا صار شيخك عنده خلق سيئ فاقتديت به.. تقول هكذا كان شيخي مثلًا، لأن الشيخ يكون قدوة، لكن بماذا؟ بالأخلاق الفاضلة، والشمائل الطيبة، كذلك أنت، «أما التلقي، والتلقين فهو ربح زائد»، فالواقع أن التلقي والتلقين هو الأصل؛ لأن التلميذ لم يأتِ للشيخ من أجل أن يتعلم منه الأخلاق فقط، بل من أجل أن يتعلم العلم أولاً، ثم الأخلاق ثانيًا، ففي الحقيقة أن التلقي والتلقين أمر مقصود كما أن الاقتداء به في

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٥٥٢).

(٢) انظر آثاره (٤/ ٤٠-٤٢). (الشيخ بكر).

أخلاقه أمر مقصود أيضًا؛ ولهذا لو سألت أي طالب علم: لماذا حضرت عند هذا الشيخ؟ فقال: لأتلقى علمًا، ولا يقول: لأجعله قدوة ليَ في الأخلاق، وعلى كل فالشيخ شيخ في العلم، وفي الأخلاق.

أما قوله: «لا تقلده بصوت، ونغمة». فهذا صحيح؛ لأن بعض الناس يملكه حبه لشيخه، أو لغيره من الناس حتى يبدأ فيقلد صوته ونغمته....

كذلك: «ولا مشية وحركة وهيئة». هذا أيضًا ليس على إطلاقه بل يقال: إن كانت مشية الشيخ كمشية النبي ﷺ فاقتد بها، لكن ليس ذلك لأن الشيخ قدوتك، بل لأن رسول الله ﷺ قدوتك، وكذلك أيضًا الحركة قد تكون في بعض المعلمين، حركة ممقوتة، تجده مثلاً: لو يتحرك بحركة الكلمة تحرك كل جسمه...، نعم، هذا لا تقتدي به في هذا، لكن حركة تبين المراد أو تبين ما في النفس من انفعال، هذه لا بأس بِها، وربما تكون تنشط الطالب، لكن تجد فرقًا بين معلم يكون له حركات تنبأ عن المعنى، وعما في نفسه من إحساسات، وبين معلم يسرد لك الحديث سردًا، ولما كنت في الطلب في المعهد العلمي في الرياض، يأتينا واحد يدرسنا في النحو ما شاء الله، ولكنه لا يتكلم، يعني ويتحرك في كل شيء يحتاج إلى حركة يتحرك فتجد أننا مشدودين معه تمامًا، ويحيينا حتى لو كان عندنا نوم في الأول يطير عنا النوم، لكن يأتي واحد يسرد الحديث سردًا، هذا قد يموِّت حيل الإنسان ويكسره، فهذه المسألة يفصل فيها، لا تقلد شيخك في الهيئة إلا إذا كانت هيئته حسنة، يعني: لا نقول: اترك تقليده مطلقًا، ولا تقلده مطلقًا قد يكون مثلاً الشيخ لا يبالي بهيئة جميلة بالثياب الحسنة؛ بلبس العباءة على ما [لا] ينبغي، ويلبس الشماغ على ما [لا] ينبغي، هذا لا تقلده، وقد يكون الشيخ يراعي المروءة في ذلك، ويستعمل بالجملة عند الناس ويزينه فهنا لا بأس أن يقلده. إذًا هذه المسائل تحتاج إلى تفصيل.

وقوله: «لا تسقط أنت بالتبعية له» فإذا كنت أتابعه في أمر محمود فليس هذا بسقوط، نعم.

٢٠-نشاط الشيخ في درسه:

يكون على قدر مدارك الطالب في استماعه، وجمع نفسه، وتفاعل أحاسيسه مع شيخه في درسه، ولهذا فاحذر أن تكون وسيلة قطع لعلمِه؛ بالكسل، والفتور، والاتكاء، وانصراف الذهن وفتوره.

قال الخطيب البغدادي[1] -رحمه الله تعالى-: حق الفائدة ألاَّ تساق إلا إلى

(١) انظر «الجامع» (١/ ٣٣٠). (الشيخ بكر).

مبتغيها، ولا تعرض إلا على الراغب فيها، فإذا رأى المحدِّث بعض الفتور من المستمع، فليسكت، فإن بعض الأدباء قال: نشاط القائل على قدر فهم المستمع. فليسكت، ثم ساق بسنده عن زيد بن وهب، قال: قال عبد الله: حدِّث القوم ما رمقوك بأبصارهم، فإذا رأيت منهم فترة فانزع. اهـ.

☆ الشـــــرح ☆

هذا أيضًا من حلية الطالب: أن يكون له همة وقوة في الاستماع إلى الشيخ، واتباع نطقه حتى ينشط الشيخ على هذا، ولا يظهر للشيخ أنه قد ملَّ وتعب بالاتكاء تارة، والحملقة فيه تارة، أو تقليب الأوراق تارة، وما أشبه ذلك، ولا ينبغي للإنسان أن يلقي العلم بين الطلبة، ولا بين عامة الناس إلا وهم متشوقون له حتى يكون كالغيث أصاب أرضًا يابسة فقبِلته، وأما أن يكره أو يفرض نفسه، فهذا أمر لا ينبغي.

أولاً: لأن الفائدة تكون قليلة.

ثانيًا: ربما يقع في قلب السامع الذي أكره على إلقاء هذه الكلمة مثلاً: يقع في قلبه كراهة إما للشخص، وإما لما يلقيه الشخص، وكلا الأمرين مُرّ، وأمرُّهما أن يكره ما يلقيه الشخص.

على كل حال متى رأيت الناس متشوقين للكلام فتكلم، وإذا رأيت الأمر لا يناسب، فلا تتكلم، لا تثقل على الناس، وهذا قد مرَّ معنا في «البخاري» في حديث عبد الله بن عباس: أنك لا تلقي على القوم حديثًا إلا وأنت تعلم أنَّهم يحبون ذلك[1].

وإلا فلا تلقه عليهم. وهنا يقول عن الخطيب البغدادي - رحمه الله -: حق الفائدة ألا تساق إلا لمبتغيها ولا تعرض إلا على الراغب فيها، فإذا رأى المحدث بعض الفتور من المستمع فليسكت، فإن بعض الأدباء قال: نشاط القائل على قدر فهم المستمع. وهذا صحيح، القائل المتكلم نشاطه على قدر فهم المستمع وإن شئت فقل: على قدر انتباه المستمع؛ لأن الفهم مرتبة وراء الانتباه، ينتبه الإنسان أولاً ثم يفهم، والفهم أمره خفي لكن الإنسان ينشط إذا رأى القوم قد انتبهوا له، وأحسن الإنصات والإصغاء.

---

(١) رواه البخاري (٦٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

٢١- الكتابة عن الشيخ حال الدرس والمذاكرة:
وهي تختلف من شيخ لآخر، فافهم.

☆ الشـــــرح ☆

كيف تختلف من شيخ لآخر؟ الكتابة عن الشيخ حال الدَرس والمذاكرة، فبعضهم سريع، وبعضهم يملي إملاءً، وبعضهم يلقي إلقاءً، وبعضهم لا يستحق أن يُكتب ما يقول، لكن مثل هذا قد لا يكون إنسان يضيع وقته في الجلوس إليه، والكلام في شيخ يأتي الإنسان إليه ليستفيد، وأيضًا يجب في مسألة الكتابة - أي: حال إلقاء الشيخ - يجب أن ينتبه الإنسان إلى مسألة مهمة، وهي أنه قد يفوته بعض الكلمات من حيث لا يشعر، فيكتب خلاف ما قال الشيخ - كما جرى ذلك - ونحن الآن نحمد الله في هذا الوقت [حيث إننا] لا نحتاج أن يكتب الطالب حال إلقاء الشيخ... لماذا؟ لأنه عندنا تسجيلات - الحمد لله - تسجيل ينقل لك كلام الشيخ من أوله إلى آخره، وأنت تستمع إليه وتقيد ما ترى أنه جدير بالتقييد.

ولهذا أدب وشرط، أما الأدب: فينبغي لك أن تُعلمَ شيخك أنك ستكتب، أو كتبت ما سمعته مذاكرة، وأما الشرط: فتشير إلى أنك كتبته من سماعه من درسه[1]

☆ الشـــــرح ☆

الأدب لابد أن تخبر الشيخ بأنك ستكتب، وإذا كنت تريد أن تسجل أخبره بأنك سوف تسجل؛ لأن الشيخ ربما لا يرضى أن تكتب عنه شيئًا، كما يوجد في بعض المشايخ الآن لا يرضى أن أحدًا يكتب عنه شيئًا، أو ينقل عنه بواسطة التسجيل؛ ولهذا من الأدب أن تستأذن من الشيخ، وأما الشرط فتشير إلى أنك كتبته من سماعه من درسه حتى يتبين القارئ؛ لأنك لو لم تشر إلى هذا، لظن القارئ أن الشيخ أملاه عليك إملاءً، وهناك فرق بين الإملاء، وبين كتابة الدرس الذي يلقيه الشيخ بدون أن يشعر بأنه يملي على الطلبة...، يعني: ما يسمى بالتقرير، فرق بين كتابة التقرير، وبين كتابة الإملاء؛ لأن الإملاء سوف يكون محررًا ومنقحًا، والشيخ لا يملي كلمة إلا ويعرف منتهاها، لكن التقرير يلقي الكلام هكذا مرسلاً وربما يتداخل بعضهم من

---

(١) «الجامع» للخطيب (٢/ ٣٦-٣٨). (الشيخ بكر).

بعض، ربما يكون سهوًا، وغير ذلك، فيفرق بين التقرير وبين الإملاء.

ولذلك ينبغي أن يستأذن الشيخ، فإن قال قائل: هل إقرار الشيخ إذن بمعنى أنه إذا رأى أن الطلبة يكتبون وسكت؟ له يعتبر إذنًا؟ نعم، نقول: هو إذنٌ بشرط القدرة على الإنكار، فإن كان لا يقدر أن ينكر، يخشى أن تثور عليه الطلبة، وتهيج عليه الطلبة إذا قال: لا تكتبوا...، فلا يعتبر سكوته إقرارًا [منه]، أن أرى بعضكم يكتب ولا بأس بذلك ألَّا يشغله عن الاستماع.

٢٢- التلقي عن المبتدع:

احذر «أبا الجهل» المبتدع، الذي مسه زيغ العقيدة، وغشيته سحب الخرافة، يحكم الهوى، ويسميه العقل، ويعدل عن النص، وهل العقل إلا في النص؟ ويستمسك بالضعيف، ويبعد عن الصحيح، ويقال لهم أيضًا: أهل الشبهات[١]، وأهل الأهواء؛ ولذا كان ابن المبارك - رحمه الله تعالى - يسمي المبتدعة: الأصاغر.

وقال الذهبي - رحمه الله تعالى[٢] -:

إذا رأيت المتكلم والمبتدع يقول: دعنا من الكتاب والأحاديث، وهات العقل: فاعلم أنه أبو جهل، وإذا رأيت السالك التوحيدي يقول: دعنا من النقل ومن العقل، وهات الذوق والوجد، فاعلم أنه إبليس قد ظهر بصورة بشر، أو قد حلَّ فيه، فإن جبنت منه فاهرب، وإلا فاصرعه، وابرك على صدره، واقرأ عليه آية الكرسي واخنقه اهـ.

☆ الشـــــرح ☆

يقول - رحمه الله -: «احذر أبا جهل» يعني: صاحب الجهل - «المبتدع الذي مسَّه زيغ العقيدة، وغشيته سحب الخرافة يحكم الهوى ويسميه العقل»، وهذا التحذير الذي قاله الشيخ بكر أمر لازم يجب أن نحذر أهل البدع، وإن صاغوا البدع بصياغة مغرية مزخرفة، كما قيل فيهم:

حجج تَهافت كالزجاج تخالها حقًّا وكلٌّ كاسرٌ مكسور

فأنت ترى الآن [أن بعض الناس] يرى السحاب فيحسبه ماءً، حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا ووجد الله عنده فوفاه حسابه، احذر صاحب الهوى، وهؤلاء الذين يتبعون أهواءهم في العقيدة يسمون ذلك العقل، والحقيقة أنه عقل... ولكنه عقلهم عن

---

(١) «الجامع» للخطيب (٢/ ٣٦-٣٨). (الشيخ بكر).

(٢) «السير» (٤/ ٤٧٢). (الشيخ بكر).

الهدى إلى اتباع الهوى، فهم كما قال ابن القيم في أمثالهم:

هربوا من الرق الذي خلقوا له وبُلوا برقِّ النفس والشيطان

يعدل عن النص، ويقول: دل العقل على الخلاف، سبحان الله!! هل العقل يخالف النص؟ أبدًا.. لا يمكن بأي عقل صريح خال من الشبهات، والشهوات، يخالف النص الصريح أبدًا، لكن العلة إما من النقل كيف يكون غير صحيح، أو من العقل قد يكون غير صريح، أما مع صراحة العقل، وصحة النقل فلا يمكن أن يوجد تعارض إطلاقًا، ولهذا ينص الله سبحانه وتعالى عن المخالفين للرسل ينفي عليهم عقولهم: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٨]، ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾، وما أشبه ذلك، فالعقل كما قال الشيخ: «وهل العقل إلا في النص وقال: ويستمسك بالضعيف ويبعد عن الصحيح»، وأكثر ما يكون ذلك في الوعاظ والقصاص تجدهم يحشون أدمغتهم من الأحاديث الضعيفة من أجل تَهييج الناس ترغيبًا أو ترهيبًا، يأتِي بمثال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، يقول: قال النبي ﷺ: «إن الله يخلق من كل حرف من سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ألف طائر، ولكل طائر ألف لسان كلها تدعو أو تسبح لهذا الذي قرأها...» من أين جاءنا هذا!! وأشياء عجيبة غريبة، في فضائل الأعمال تذكر، كذلك يقال لهم أيضًا: أهل الشبهات مع أهل الجهل، وأهل الأهواء، وكان ابن المبارك[1] يسمي المبتدعة: الأصاغر، وهذا وصف مطابق للموصوف، فهم أصاغر، وإن عظموا أنفسهم، وكل من خالف النص فهو صغير.

أما كلام الذهبي: فيقول: «إذا رأيت المتكلم عن المبتدعة يقول: دعنا من الكتاب والأحاديث وهات العقل، فاعلم أنه أبو جهل، وليس أبا علم بل هو جاهل، وإذا رأيت السالك التوحيدي يقول: دعنا من النقول، ومن العقل أيضًا، وهات الذوق والوجد».. هؤلاء الصوفية كل دينهم ذوق ووجد، فهذا أيضًا يقول: «فاعلم أنه إبليس قد ظهر بصورة بشر»، الظاهر أن الذهبي - رحمه الله - لقي النكد من هؤلاء؛ ولهذا شدد في تقبيح أوصافهم، «أو قد حل فيهم»، يعني: إما هو شيطان، وإما حل فيه الشيطان.

---

(١) هو عبد الله بن المبارك بن واضح، أبو عبد الرحمن الحنظلي مولاهم التركي الإمام الحافظ القدوة، له تصانيف كثيرة، وقد أكثر الترحال في طلب العلم والجهاد، كان من المجاهدين العالمين، وُلد سنة (١١٨هـ)، وتوفي سنة (١٨١هـ). «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٣٧٨)، و«حلية الأولياء» (٨/ ١٦٢).

«فإن جبنت منه فاهرب» يعني: إن عجزت عنه أن تجادله وتناظره فاهرب، لأن هذا هو الحكمة، وإذا كنت تستطيع أن تجادله، وأن تفحمه فاصرعه صرعًا حسيًا أو معنويًا «اصرعه وابرك على صدره» هذا يدل على أنه حسي. «واقرأ عليه آية الكرسي حتى يذهب الشيطان واخنقه».

الإنسان يسمع كلام الذهبي هذا في ظنه إذا صرعه ثم برك على صدره، ثم قرأ عليه آية الكرسي، ثم خنقه سيموت؛ لأنه يكون خنقه حينئذ شديدًا وقويًا، ولكن على كل حال الظاهر أن الذهبي - رحمه الله - أصابه ما أصابه من هؤلاء، والمعافى من عافاه الله منها: لو ذهبت إلى بعض البلاد الإسلامية لوجدت من هؤلاء القوم عجبًا كما يذكر عنهم العلماء السابقون واللاحقون، يعني: يصلون إلى حدِّ الجنون، يضربون بالطبول، يضربون بالعصى على الأرض، يغبرون تغبيرًا... يأخذ كل واحد منهم سوط ويهللون تَهليلاتهم وأذكارهم، ثم [يضرب] الإنسان الأرض، والذي يكن أكثر غبارًا، فهو صدق إرادة؛ لأنه إذا كان أكثر غبارًا صار أشد وأقوى، فيكون هذا دليلًا على أنه مريد حقًا - اللهم لك الحمد.

وقال أيضًا - رحمه الله تعالى[1] -:

وقرأت بخط الشيخ الموفق قال: سمعنا درسه - أي: ابن أبي عصرون - مع أخي أبي عمر، وانقطعنا، فسمعت أخي يقول: دخلت عليه بعد، فقال: لم انقطعتم عنِّي؟ قلت: إن ناسًا يقولون: إنك أشعري. فقال: والله ما أنا أشعري. هذا معنى الحكاية. اهـ.

☆ الشـــــرح ☆

يستفاد أنك لا ينبغي أن تجلس لمبتدع، وإن كانت بدعته خفيفة كبدعة الأشعرية.

وعن مالك - رحمه الله تعالى قال[2]: لا يؤخذ العلم عن أربعة: سفيه يعلن السفه وإن كان أروى الناس، وصاحب بدعة يدعو إلى هواه، ومن يكذب في حديث الناس، وإن كنت لا أتَّهمه في الحديث، وصالح عابد فاضل إذا كان لا يحفظ ما يحدث به[3].

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢١/ ١٢٩). (الشيخ بكر).

(٢) كما في «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٦١). (الشيخ بكر).

(٣) رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ٨٢١) رقم (١٥٤٢) بإسناد حسن، ورواه أيضًا في «التمهيد» (١/ ٦٦).

فيا أيها الطالب إذا كنت في السعة والاختيار، فلا تأخذ عن مبتدع: رافضي، أو خارجي، أو مرجئي، أو قبوري، . . . وهكذا، فإنك لن تبلغ مبلغ الرجال - صحيح العقد في الدين، متين الاتصال بالله، صحيح النظر، تقفو الأثر - إلا بِهجر المبتدعة وبدعهم.

☆ الشـــــرح ☆

والذي يعلم من كلام الشيخ - رحمه الله ووفقه الله - أنه لا يؤخذ عن صاحب البدعة شيء، حتى فيما لا يتعلق ببدعته، فمثلاً: إذا وجدنا رجلاً مبتدعًا، لكنه جيد في علم العربية: كالبلاغة، والنحو، والصرف، فهل نجلس إليه ونأخذ منه هذا العلم الذي هو موجود [عنده]، أم نهجره؟ الظاهر [من] كلام الشيخ أننا لا نجلس إليه؛ لأن ذلك يوجب مفسدتين:

المفسدة الأولى: اغتراره بنفسه، فيحسب أنه على حق.

المفسدة الثانية: اغترار الناس به، حيث يتوارد عليه طلاب العلم، ويتلقون منه، والعامي لا يفرق بين علم النحو، وعلم العقيدة؛ لهذا نرى أن الإنسان لا يجلس إلى أهل الأهواء والبدع مطلقًا، حتى إن كان لا يجد علم العربية والبلاغة، والصرف مثلاً إلا عندهم، فسيجعل الله له خيرًا منها؛ لأنا لو نأتي إلى هؤلاء، ونتردد إليهم لا شك أنه يوجب غرورهم، واغترار الناس بِهم.

وكُتب السِّير والاعتصام بالسنة حافلة بإجهاز أهل السنة على المبتدعة، ومنابذة المبتدعة، والابتعاد عنهم، كما يبتعد السليم عن الأجرب المريض، ولهم قصص، وواقعات يطول شرحها[1]، لكن يطيب لي الإشارة إلى رءوس المقيدات فيها: فقد كان السلف - رحمهم الله - يحتسبون الاستخفاف بِهم، وتحقيرهم، ورفض المبتدع وبدعته، ويحذرون من مخالطتهم، ومشاورتِهم، ومؤاكلتهم، فلا تتوارى نار سُني ومبتدع.

وكان من السلف من لا يصلي على جنازة مبتدع، فينصرف، وقد شوهد من العلامة الشيخ محمد بن إبراهيم (م سنة ١٣٨٩هـ) - رحمه الله تعالى - انصرافه عن الصلاة على مبتدع، وكان من السلف من ينهى عن الصلاة خلفهم، وينهى عن

---

(١) وفي رسالة «هجر المبتدع» لراقمه أصول مهمة في هذه المسألة. (الشيخ بكر).

حكاية بدعهم، لأن القلوب ضعيفة، والشبه خطافة.

وكان سهل بن عبد الله التستري[١] لا يرى إباحة الأكل من الميتة.. للمبتدع عند الاضطرار، لأنه باغ، لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ الآية، فهو باغ ببدعته[٢]

وكانوا يطردونَهم من مجالسهم، كما في قصة الإمام مالك - رحمه الله تعالى - مع من سأله عن كيفية الاستواء، وفيه بعد جوابه المشهور: أظنك صاحب بدعة، وأمر به فأخرج، وأخبار السلف متكاثرة في النفرة من المبتدعة، وهجرهم، حذرًا من شرهم وتحجيمًا لانتشار بدعهم، وكسرًا لنفوسهم حتى تضعف عن نشر البدع؛ ولأن في معاشرة السني للمبتدع تزكية له لدى المبتدئ والعامي: مشتق من العمى، فهو بيد من يقوده غالبًا، ونرى في كتب المصطلح، وآداب الطلب، وأحكام الجرح والتعديل الأخبار في هذا[٣]

☆ الشـــــرح ☆

المؤلف - وفقه الله - حذر هذا التحذير المديد من أهل البدع، وهم جديرون بذلك ولا سيما إذا كان المبتدع سليط اللسان، فصيح البيان، فإن شره يكون أشد وأعظم، ولا سيما إذا كانت بدعة مكفرة أو مفسقة تفسيقًا بالغًا، فإن خطره أعظم ولا سيما إذا كان يتظاهر أمام الناس بأنه من أهل السنة؛ لأن بعض أهل البدع عندهم نفاق؛ تجده عند من يخاف منه يتمسكن، ويقول: أنا من أهل السنة، وأنا لا أكره فلان ولا فلان من الصحابة، وأنا معكم، وهو كاذب فمثل هؤلاء يجب الحذر منهم، وإن كان المبتدع عنده علوم لا توجد عند أهل السنة، ولا تتعلق بالعقيدة كمسائل النحو والبلاغة وما أشبهها، فلا تأخذ منه؛ لأنه يتولد من ذلك مفسدتان، الأولى: كاغتراره بنفسه، والثانية: اغترار الناس به، فالناس لا يعلمون، فلذلك يجب الحذر

---

(١) هو سهل بن عبد الله بن يونس، أبو محمد الزاهد العابد، كان حريصًا على الحديث علمًا وعملًا وتحديثًا، وُلد سنة (٢٠٠هـ)، وتوفي سنة (٢٨٣هـ). «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٣٣٠)، و«حلية الأولياء» (١٠/ ٨٩).

(٢) «الفتاوى» (٨/ ٢١٨)، انظرها، فهو مهم.(الشيخ بكر).

(٣) منها في: «الجامع» للخطيب (باب: تخير الشيوخ إذا تباينت أوصافهم) (١٠/ ١٢٧)، وفي كتاب «مناهج العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» للسامرائي (ص٢١٥.٢٥٥) وهو مهم، وفي «التحول المذهبي من الإسفار» لراقمه أمثلة من آثار مخالطتهم.(الشيخ بكر).

[منه].

وقوله: «وكان من السلف من لا يصلي على جنازة مبتدع» على كل حال إذا كانت البدعة مكفرة، فلا شك أن الصلاة عليه لا تجور؛ لقوله تعالى لرسوله ﷺ في المنافقين: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٤]، هذا لا يصلى عليه، أما إذا كانت غير مكفرة، فهذا ينظر فيما [يترتب] على ترك الصلاة عليه من المفسدة أو عدمها، فإذا كان أهل السنة أقوياء، وكان أهل البدعة في عنفوان دعوتهم، فلا شك أن ترك الصلاة عليهم أولى؛ لأن أهل السنة أقوى منهم، وهؤلاء في عنفوان دعوتهم، ربما إذا تركنا الصلاة عليهم يحصل بذلك ردع عظيم لهم، وما ذكر عن الشيخ محمد ابن إبراهيم - رحمه الله - مفتي البلاد السعودية في زمانه يدل على قوته - رحمه الله - وصرامته، حيث انصرف عن الصلاة على المبتدع، وأيضًا الصلاة خلفه من باب أولى أن يحذر الإنسان منها، فإن كانت بدعته مكفرة، فإن الصلاة خلفه مع العلم ببدعته المكفرة لا تصح، وإن كانت دون ذلك، فالصحيح أن الصلاة خلفه صحيحة، لكن لا ينبغي أن يصلي خلفه، أما ما ذكر عن سهل بن عبدالله التستري، الذي لا يبيح أكل الميتة للمبتدع، وإن اضطر إلى ذلك، فإن كان هذا المبتدع كافر، فإنه لا يباح له عند الله أكل الميتة، ولا أكل مذكاته؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟﴾ [المائدة: ٩٣]، ولقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، فدل هذا على أن الطيبات من الرزق والزينة التى أخرج الله لعباده ليست خالصة لغير المؤمنين يوم القيامة، بل يحاسبون عليها، فإذا كانت بدعته مكفرة فنحن نقول: لا يحل له أن يأكل الميتة عند الاضطرار، ولا المذكاة عند الاختيار، لكن نقول: تب إلى الله من بدعتك المكفرة، وكل كما يأكل المؤمنون.

وإن كانت مفسِّقة ففيما قاله - رحمه الله - نظر؛ لأن الصحيح فيما قاله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٥]، أي: غير مبتغ لأكل الميتة ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي: غير معتدٍ لأكل ما يحتاج إليه، هذا هو الصحيح في معنى الآية والدليل على أن هذا هو الصحيح، قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣] ومن العلماء من قال المراد بالباغي: من بغى على الإمام وليس كل فاعل معصية، ففي كلام سهل - رحمه الله - تفصيل: وهو إن كانت بدعته مكفرة فلا يحل له أن يأكل من الميتة والمذكاة ويحاسب بذلك

عند الله، وإن كانت غير مكفرة ففيما قاله نظر، أما طرده من المجالس، فنعم يطردون من المجالس، وللشيخ أن يطرد في مجلسه ما دون ذلك إذا رأى أن أحدًا من الطلبة يريد أن يفسد الطالب عن زملائه بحيث يعتدون على الشيخ ولا يهابونه ويحتقرونه، فله أن يطرده؛ لأن هذا يعتبر ماذا؟! مفسدة فيُطرد، والإمام مالك -رحمه الله - قال: ما أراك إلا مبتدعًا؛ لأن الذين يسألون عن مثل هذا هم المبتدعة، يسألون كيف استوى؟ يحرجون بذلك أهل السنة، يقولون: أخبرني كيف استوى؟ كيف استواؤه؟ والجواب عن ذلك سهل: أن الله أخبرنا أنه قد استوى على العرش، ولم يخبرنا كيف استوى، وهل نعلم كيفية شيء لم نعلم به وهو غائب عنا؟! أبدًا.

لو قال لك قائل: إني بنيت بيتًا، فقد علمت أنه بنى بيتًا، وتعرف كيف بناء البيت، لكن هل تعرف كيفية هذا البيت، وما فيه من الحجر والغرف؟ الجواب: لا.. إذا كنت لم تشاهده، وهكذا صفات الله عزَّ وجلَّ، أخبرنا عنها ولم نخبر عن كيفيتها.

وقوله: «العامي من العمى» لم أعرف أنه اشتق من العمى إلا الآن، فينظر في ذلك هل هو من العمى، أو من العموم، أي: عموم الناس، والعامي لا شك أنه هو الجاهل الذي لا يعرف، والجهل عمى، فينظر في هذا.

فيا أيها الطالب: كن سلفيًا على الجادة، واحذر المبتدعة أن يفتنوك فإنَّهم يوظفون للاقتناص والمخاتلة سبلًا، يفتعلون تعبيدها بالكلام المعسول، وهو عسل مقلوب، وهطول الدمعة وحسن البزة، والإغراء بالخيالات، والإدهاش بالكرامات، ولحس الأيدي، وتقبيل الأكتاف... وما وراء ذلك إلا وحم البدعة، ورهج الفتنة، يغرسها في فؤادك، ويعتملك في شراكه، فوالله لا يصلح الأعمى لقيادة العميان وإرشادهم.

أما الأخذ عن علماء السنة لتنهل من ميراث النبوة صافيا، وإلا فلْيَبْكِ على الدِّين من كان باكيًا، وما ذكرته لك هو في حال السعة والاختيار، أما إن كنت في دراسة نظامية لا خيار لك فاحذر منه، مع الاستعاذة من شره، ولا تتخاذل عن الطلب، فأخشى أن يكون هذا من التولي يوم الزحف، فما عليك إلا أن تتبين أمره، وتتقي شره، وتكشف ستره.

☆ الشـــــرح ☆

هذا احتراز جيد، يعني: أنه قد يلجأ الإنسان إلى الأخذ عن مبتدع وذلك في الدراسات النظامية، فقد يندب إلى التدريس في العلوم العربية مثلًا أو في العلوم

الأخرى، هو مبتدع ومعروف أنه من أهل البدع، ولكن ماذا تعمل إذا كنت لابد أن تدرس على هذا الشيخ؟!

نقول: خذ من خيره ودع شره، إن تكلم أمام الطلاب في العقيدة فعليك بمناقشته إن كنت تقدر على المناقشة وإلا فارفع أمره لمن يقدر على مناقشته، واحذر أن تدخل معه في نقاش لا تستطيع التخلص منه؛ لأن هذا ضرر ليس عليك أنت، على القول الذي تدافع عنه؛ لأنك إذا فشلت أمام هذا الأستاذ مثلاً... صار في هذا كسر للحق، ونصر للباطل، لكن إذا كانت عندك قدرة قي مجادلته، فعليك بذلك، وربما يكون في هذا مصلحة للجميع، مصلحة لك أن يهديه الله على يديك، ومصلحة له هو يهديه الله من بدعته.

وهل يقال مثل ذلك فيمن ابتلوا بالدراسة النظامية مع الاختلاط على وجه نظامي؟ لا..

وأحدهم يقول: نعم والثالث يفصل.

ممكن أن يقول بالتفصيل، إن دعت الضرورة إلى ذلك، إذا لم يكن هناك جامعات أو مدارس، خالية من ذلك، فهنا قد تكون هناك ضرورة، وفي هذه الحال يجب على الطالب أن يبتعد عن الجلوس إلى امرأة أو التحدث معها، أو تكرار النظر إليها؛ يعني بقدر ما يستطيع يبتعد عن الفتنة.

أما إذا كان من الممكن أن يدرس في مدارس أخرى خالية من الاختلاط أو فيها نصف اختلاط، بأن يكون النساء في جانب، والرجال في جانب آخر فليتق الله ما استطاع.

ومن النتف الطريفة أن أبا عبد الرحمن المقرئ حدث عن مرجئ فقيل له: لم تحدث عن مرجئ؟ فقال: «أبيعكم اللحم بالعظام»[1]، **فالمقرئ - رحمه الله تعالى- حدث بلا غرارة ولا جهالة، إذا بيَّن فقال: وكان مرجئًا.**

☆ الشـــــرح ☆

«أبيعكم اللحم بالعظام» يعني: معناه أنه ما من لحمة إلا وفيها عظم، فالباء هنا ليست للبدل، بل للمصاحبة والمعية؛ يعني: معناه: ما من لحمة إلا وفيها عظم، فأنا

(١) **الخطيب في «جامعه» (١/ ٢٢٤)**. (الشيخ بكر).

أعلمكم، أو أحدثكم بما حدثت به، لكن أقول: وكان مرجئًا، فيكون العظم هنا في وسط اللحم، ولا شك أنه إذا دعت الحاجة إلى التحديث عن شخص صاحب بدعة.. لا شك أنه يحدث عنه، لكن لابد من تبيين حاله، ما لم تكن بدعته مكفرة، فإنه لا يقبل منه حديث.

وما سطرته هنا هو من قواعد معتقدك، عقيدة أهل السنة والجماعة، ومنه ما في العقيدة السلفية، لشيخ الإسلام أبي عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني[١] (م سنة ٣٣٩هـ)، قال - رحمه الله تعالى[٢]-: ويبغضون أهل البدع الذين أحدثوا في الدين ما ليس منه، ولا يحبونَهم، ولا يصحبونهم، ولا يسمعون كلامهم، ولا يجلسونَهم، ولا يجادلونَهم في الدين، ولا يناظرونهم، ويرون صون آذانِهم عن سماع أباطيلهم التي إذا مرت بالآذان وقَرَّت في القلوب ضرَّت، وجرت إليها من الوساوس والخَطَرات الفاسدة ما جرت، وفيه أنزل الله - عزَّ وجلَّ - قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ اهـ.

☆ الشـــــرح ☆

كلام الصابوني - رحمه الله - يحتاج إلى بيان قوله - رحمه الله -: «يبغضون أهل البدع الذين أحدثوا في الدين ما ليس منه» لا شك أن هذا أمر واجب على كل مسلم أن يبغض من أحدث في دين الله ما ليس منه، لكن إذا كانت بدعته غير مكفرة، فإنه يبغض من وجه ويحب من وجه آخر، لكن بدعته تبغض بكل حال، كذلك أيضًا «ولا يصحبونَهم» أيضًا الصحبة، إذا صحبته تأليفًا له، ودعوة له، فلا بأس لكن بشرط أنك إذا أيست من صلاحه، فارقته وتركته «لا يسمعون كلامهم، ولا يجالسونَهم ولا يجادلونَهم في الدين ولا يناظرونَهم» كل هذه تحتاج إلى قيود، فـ «لا يسمعون كلامهم» إذا لم يكن في ذلك فائدة، فإن كان في ذلك فائدة، بحيث يسمع كلامه ليرى ما عنده من باطل حتى يرد عليه فإن السماع هنا والاستماع واجب؛ لأنه لا يمكنك أن

---

(١) هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد بن إسماعيل أبو عثمان الصابوني، برع في التفسير والحديث والوعظ، وكان من أئمة الأثر، له مصنف في السنة واعتقاد السلف، توفي سنة تسع وأربعين وأربعمائة. «تهذيب تاريخ دمشق» (٣/ ٣٠)، و«سير أعلام النبلاء» (١٨/ ٤٠)، و«شذرات الذهب» (٣/ ٢٨٢).

(٢) (ص١٠٠). (الشيخ بكر).

ترد على قول إلا بعد أن تعرفه، إذ إن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، وأيضًا: لا تسمع عن أقوال أهل البدع من أعدائهم، بل من كتبهم؛ لأنه ربما تشوه المقالة، فإذا قلت: أنتم تقولون: كذا وكذا. قالوا: أبدًا ما قلنا بِهذا أين كتبنا، ولهذا يخطئ بعض الناس حيث يحكم على شخص ببدعة أو بفعل مفسق دون أن يرجع إلى الأصل، لأنك إذا قلت: أنتم قلتم: كذا وكذا. لأحد أهل البدع، وقال: لم نقل هذا هذه كتبنا تخسر كل الجولة، ولا يوثق بكلامك.

كذلك أيضًا «لا تجادلونهم في الدين»، هذا يجب أن يقيد؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ فلابد من المجادلة، كيف نعرف فنميز الحق من الباطل إلا بالمجادلة والمناظرة، نعم، المجادلة التي يقصد بها المراء، هذه ويتركون، إذا علمنا أن الرجل يجادل مراءاة، ما قصده الحق، فهذا ويترك، وانظر إلى قصة أبي سفيان حيث جعل ينادي يوم أحد، أفيكم محمد؟ أفيكم ابن أبي قحافة؟ أفيكم عمر؟ قال النبي ﷺ: «لا تجيبوه» لماذا؟ إهانة له وإذلالاً وعدم مبالاة به، فلما قال: أعل هبل، وافتخر بصنمه وشركه، قال: «أجيبوه». الآن؛ ما يمكن السكوت، قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا: الله أعلى وأجل». إذا كان صنمك قد علا اليوم، فالله أعلى وأجل، ثم قال: يوم بيوم بدر، والحرب سجال. يوم بدر للمسلمين، ويوم أحد لهؤلاء المشركين، قالوا له: لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار. هذا أيضًا افتخر، بقومه واستذل المسلمين فلابد من مجاوبته فقالوا: لا سواء؛ قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار. وصحيح لا سواء، على كل المجادلة إذا كان المقصود بِها بيان الحق، كانت واجبة ولابد منها وكذلك المناظرة.

«ويرون صون آذانِهم عن أباطيلهم التي إذا مرت بالآذان، وقرت في القلوب، ضرت وجرت إليها من الوساوس والخطرات». هذا صحيح، الإنسان الذي يخشى على نفسه من سماع البدع، أن يقع في قلبه شيء [منها] فالواجب عليه البعد وعدم السماع، وأما إذا كان عنده من اليقين والقوة والثبات ما لا يؤثر عليه سماعها فإنه إن كان في ذلك مصلحة سمعه واستحببنا له أن يسمعه، وإن لم يكن في ذلك مصلحة قلنا: الأولى ألاَّ تسمعه لما في ذلك من إضاعة الوقت واللغو وفيها أنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ الآية [الأنعام: ٦٨] واضحة، لكن إذا كنت تريد أن تعرف ما هم عليه من الباطل فترده فإنه لا يدخل في الآية الكريمة.

وعن سليمان بن يسار أن رجلاً يقال له: صبيغ[1] قدم المدينة فجعل يسأل عن

---

(١) هو صبيغ بن عسل الحنظلي، نفاه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إلى البصرة وأمر بعدم مجالسته؛ لتكلمه بالمتشابه، ثم صلح حاله فعفا عنه. والقصة رواها الدارمي في «سننه» (١/ ٥٩) رقم (١٤٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٨/ ١١٧).

متشابه القرآن؟ فأرسل إليه عمر - رضي الله عنه - وقد أعد له عراجين النخل، فقال: من أنت؟ قال: أنا عبد الله بن صبيغ، فأخذ عرجونًا من تلك العراجين، فضربه حتى دمي رأسه، ثم تركه حتى برأ، ثم عاد، ثم تركه حتى برأ، فدعا به ليعود، فقال: إن كنت تريد قتلي، فاقتلني قتلاً جميلاً، فأذن له إلى أرضه، وكتب إلى أبي موسى الأشعري باليمين: لا يجالسه أحدٌ من المسلمين. رواه الدارمي.

وقيل: كان متهمًا برأي الخوارج. اهـ.

☆ الشـــــرح ☆

هذا الحديث إذا صح سنده واتصاله، فهو يدل على شدة عمر - رضي الله تعالى عنه - على أولئك الذين يوردون المتشابه من القرآن؛ لأنه كان يورد آيات متشابهة، مثلاً يقول: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾، ثم يأتي بالآية الأخرى التي تدل على أنهم يعتذرون، ولا يقبل منهم ويأتي يقول: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾، ثم يأتي بآية أخرى تدل على إقرارهم بذنوبهم، وما أشبه ذلك، وهذا ولا شك أنه سعي في الأرض بالفساد، وتشكيك الناس، وحق لمن هذه حاله أن يفعل به أمير المؤمنين - رضي الله عنه - ما فعل، وفيه أيضًا أن بعض الناس قد يورد المتشابهات؛ لاشتباهها عليه حقيقة وهذا لا يلام وقد يورد المتشابهات؛ لأنه في الأصل لم يركز على إرادة الجمع بين النصوص، فتجده دائمًا يتتبع الأشياء المتشابهة... ثم يأتي... ما الجمع بين كذا وكذا... وهذه الحقيقة، مهنة ليست جيدة، وأذكر أن محمد الخلوني - رحمه الله - كان له حاشية على متن «الممتع»، وكان كلما أتى ببحث قال: يحتمل كذا، ويحتمل كذا؛ فلقب عند بعض طلبة العلم بالشكاك؛ لأنه لا يستقر على رأي؛ ولهذا ينبغي أن تتخذ لنفسك طريقًا، بأن تبني على أن الأمور واضحة، ولا تتبع المشتبهات؛ لأنك إن تتبعت الشبهات، ربما تذل.

عرجون النخل تعرفونه؟ العزق الذي فيه، هذا هو العرجون، قال تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ اهـ.

والنووي - رحمه الله تعالى - قال في كتاب الأذكار: باب التبري من أهل البدع والمعاصي، وذكر حديث أبي موسى - رضي الله عنه -: أن رسول الله ﷺ برئ من الصالقة، والحالقة، والشاقة[1]. متفق عليه.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٢٩٦) تعليقًا، ووصله مسلم برقم (١٠٤).

☆ الشـــــرح ☆

هذه الثلاث معناها واضح، الصالقة: التي ترفع صوتَها بالنياحة، والحالقة: التي تحلق شعرها، تسخطًا وسواء حلقته بموسي، أو نتفته باليد، والثالثة: الشاقة: التي تشق الجيب عند المصيبة، وإنما برئ النبي ﷺ من هؤلاء الثلاث؛ لعدم رضاهن بالقدر، ومن فعل من الرجال مثلهن، فحكمه حكمهن، لكنه ذكر ذلك؛ لأن الغالب أن هذا يقع من النساء؛ لأن الرجال أشد تحملاً من النساء. اهـ.

وعن ابن عمر براءته من القدرية[1]. رواه مسلم. اهـ.

☆ الشـــــرح ☆

لأنه لما حدث بأن عندهم قومًا يقولون: إن الأمر أنف. يعني: مستأنف، وأن الله لم يقدره من قبل، قال للذي بلغه: أخبرهم بأن ابن عمر منهم برئ؛ لأنَّهم أنكروا قضاء الله وقدره السابق. أتدرون من هم القدرية؟ الذين يثبتون القدر أم الذين ينفون القدر؟ الذين ينفون القدر، وهي نسبة عكسية؛ لأن الذي يسمع «القدرية»[2] يظن أن المعنى: الذين يثبتون القدر، والأمر بالعكس، فهي نسبة سلب لا إيجاب، وهؤلاء القدرية يسمون مجوس هذه الأمة، وقد وردت في ذلك أحاديث، ووجه ذلك أنَّهم جعلوا للحوادث محدثين، الحوادث الكونية التي من فعل الله . . . أحدثها الله عزَّ وجلَّ، كإنشاء الغيم، وإنزال المطر، وما أشبه ذلك، والحوادث التي تكون من فعل

---

(١) وانظر أبحاثًا مهمة في: «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (٢/ ١٣٢، ٥/ ١١٩، ١٤/ ٤٥٩، ٤٦٠، ٣٦/ ١١٨). (للشيخ بكر).

(٢) القدرية: هم الذين يزعمون أن كل عبد خالق لفعله، ولا يرون الكفر والمعاصي بتقدير الله تعالى. وهم الذين أنكروا علم الله بالأفعال قبل وقوعها، وأنه لم يقدرها، وقالوا: لا قدر وإن الأمر أنف؛ أي: مستأنف لم يسبق قدر ولا علم من الله تعالى، وإنما يعلمه الله بعد وقوعه. وقالوا: بأن الله لم يخلق أفعال العباد، وأنه لا قدر عليها. «شرح أصول الاعتقاد» للالكائي (٤/ ٧٠١، ٧٥٠) و«صحيح مسلم بشرح النووي» (١/ ١٥٤، ١٥٦)، و«التعريفات» للجرجاني (٢٢٢)، و«اللسان» (٥/ ٧٥).

العبد. . استقل بِها العبد فهم يرون أن العبد مستقل بعمله، وأن الله - تعالى - لا علاقة له به إطلاقًا؛ ولهذا سموا مجوسًا؛ لأنَّهم كالمجوس الذين يقولون: إن للحوادث خالقين: النور يخلق الخير، والظلمة تخلق الشر. اهـ.

والأمر في هجر المبتدع ينبني على مراعاة المصالح، وتكثيرها، ودفع المفاسد وتقليلها، وعلى هذا تتنَزل المشروعية من عدمها، كما حرره شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في مواضع[١]. اهـ.

☆ الشـــــرح ☆

إذن عاد الشيخ إلى ما ذكرنا وهو أن ينظر إلى المصالح، فإذا رأينا أن من المصلحة ألَّا نَهجره، ولكن نبين له الحق - لا نداهنه - ونبقيه على بدعته ونقول: أنت على بدعتك، ونحن على سنتنا، إذا رأينا المصلحة في هذا، فترك الهجر أولى، وإن رأينا من المصلحة الهجر، بأن يكون أهل السنة أقوياء، وأولئك ضعفاء، مهزومين، فالهجر أولى[٢] اهـ.

والمبتدعة إنما يكثرون ويظهرون، إذا قل العلم، وفشا الجهل، وفيهم يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى -: فإن هذا الصنف يكثرون، ويظهرون، إذا كثرت الجاهلية وأهلها، ولم يكن هناك من أهل العلم بالنبوة والمتابعة لها من يظهر أنوارها الماحية لظلمة الضلال، ويكشف ما في خلافها من الإفك، والشرك والمحال. اهـ.

فإذا اشتد ساعدك في العلم، فاقمع المبتدع وبدعته بلسان الحجة والبيان والسلام. اهـ.

☆ الشـــــرح ☆

---

(١) منها في «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٢١٣، ٢١٦، ٢١٨). (الشيخ بكر).

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وإن كان لا المهجور ولا غيره يرتدع بذلك، بل يزيد الشر، والهاجر ضعيف، بحيث يكون مفسدة ذلك راجحَة على مصلحته، لم يشرع الهجر، بل يكون التأليف لبعض الناس أنفع من الهجر، والهجر لبعض الناس أنفع من التأليف؛ ولهذا كان النبي ﷺ يتألف قومًا ويهجر آخرين، كما أن الثلاثة الذين خلفوا، كانوا خيرًا من أكثر المؤلفة قلوبهم، لما كان أولئك كانوا سادة مطاعين في عشائرهم، فكانت المصلحة الدينية في تأليف قلوبهم، وهؤلاء كانوا مؤمنين، والمؤمنون سواهم كثيرة، فكان في هجرهم عز الدين، وتطهيرهم من ذنوبهم. «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٢٠٦).

صحيح: إذا اشتد ساعدك في العلم، أما إذا لم يكن عندك العلم الوافي في رد البدعة، فإياك أن تجادل؛ لأنك إذا هُزمت وأنت سُني؛ لعدم قدرتك على مدافعة هذا المبتدع، فهو هزيمة للسنة، ولذلك لا نرى الجواز للإنسان أن يجادل مبتدعًا، إلا وعنده قدرة على مجادلته، وهكذا أيضًا مجادلة غير المبتدعة [أعني] الكفار، لا نجادلهم إلا ونحن نعلم أننا على يقين من أمرنا، وإلا لكان الأمر عكسيًا، بدل أن يكون انتصارًا لنا، لما نحن عليه من دين وسنة.. يكن الأمر بالعكس، ومن ذلك يعني قوة الحجة أن يكون معك من يساعدك... كما قال الشاعر:

لا تخاصم بواحد أهل بيت فضعيفان يغلبان قويًا

إذا صار معك أحد فإن حجتك سوف تقوى؛ لأنه يقمعه من الخد الأيمن، وأنت تقمعه من الخد الأيسر، حتى يضيع اهـ.

الفصل الرابع
أدب الزمالة

احذر قرين السوء:

كما أن العرق دساس[١]، فإن أدب السوء دساس[٢]، إذ الطبيعة نقالة، والطباع سراقة، والناس كأسراب القطا، مجبولون على تشبه بعضهم ببعض، فاحذر معاشرة من كان كذلك، فإنه العطب، والدفع أسهل من الرفع، وعليه فتخير الزمالة والصداقة من يعينك على مطلبك، ويقربك إلى ربك، ويوافقك على شريف غرضك ومقصدك، وخذ تقسيم الصديق في أدق المعايير[٣].

☆ الشـــــرح ☆

هذه الكلمات مأخوذة من قول الرسول ﷺ: «مثل الجليس الصالح كحامل المسك، ومثل الجليس السوء كنافخ الكير»[٤]، فعليك باختيار الصديق الصالح الذي يدلك على الخير، ويبينه لك، ويحثك عليه، ويبين لك [الشر]، ويحذرك منه، وإياك وجليس السوء، فإن المرء على دين خليله، وكم من إنسان مستقيم قيض الله له شيطانًا من بني آدم، فصده عن الاستقامة، وكم من إنسان جائر قاصد، يسر الله له من يدله على الخير، بسبب الصحبة. وبناء على ذلك نقول: إذا كان في مصاحبة الفاسق سبب لهدايته، فلا بأس أن تصحبه؛ تدعوه إلى بيتك.. تأتي إلى بيته، تخرج معه للتمشي،

---

(١) وفي ذلك حديث موضوع، انظر له: «العلل المتناهية» (٢/ ١٢٣، ١٢٧)، و«شرح الإحياء» (٥/ ٣٤٨). (الشيخ بكر).

(٢) «شرح الإحياء» (١/ ٧٤). (الشيخ بكر).

(٣) «محاضرات إسلامية» محمد الخضر الحسين (ص١٢٥،١٣٦). (الشيخ بكر)

(٤) أخرجه البخاري برقم (٢١٠١)، ومسلم برقم (٢٦٢٨).
قال النووي رحمه الله في شرح هذا الحديث: «وفيه فضيلة مجالسة الصالحين، وأهل الخير والمروءة، ومكارم الأخلاق، والورع، والعلم، والأدب، والنهي عن مجالسة أهل الشر وأهل البدع». «صحيح مسلم بشرح النووي» (٥/ ٤٨٤).

بشرط ألاَّ يقدح ذلك في عدالتك عند الناس، وكم من إنسان فاسق، هداه الله تعالى بما يسره له من صحبة الخير، وقول - الشيخ بكر وفقه الله -: «كأسراب القطا» سبق أن هذا الكلام من شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - وهو حقيقة الناس، يتبع بعضهم بعضًا، وقوله: «الدفع أسهل من الرفع» هذه قاعدة فقهية، ذكرها ابن رجب - رحمه الله - في القواعد الفقهية، أن الدفع أسهل من الرفع، وفي معناها قول الأطباء: «الوقاية أسهل من العلاج»؛ لأن الدفع ابتعاد عن الشر وأسبابه، لكن إذا نزل الشر صار من الصعب أن يدفعه الإنسان.

١- صديق منفعة. ٢- صديق لذة. ٣- صديق فضيلة.

فالأولان منقطعان بانقطاع موجبهما، المنفعة في الأول، واللذة في الثاني، وأما الثالث فالتعويل عليه، وهو الذي باعث صداقته تبادل الاعتقاد في رسوخ الفضائل لدى كل منهما. وصديق الفضيلة هذا «عُمْلةٌ صعبة» يعز الحصول عليها، ومن نفيس كلام هشام بن عبد الملك[1] (م سنة ١٢٥هـ) قوله: ما بقي من لذات الدنيا شيء إلا أخ رفع مئونة التحفظ بيني وبينه اهـ.

ومن لطيف ما يقيد قول بعضهم العزلة[2] من غير عين العلم زلة، ومن غير زاي الزهد علة.

☆ الشـــــرح ☆

«العزلة من غير عين العلم» يعني العزلة احذف العين تقولون: «زلة»، والثاني من غير زاي الزهد «علة»، يعني: احذف الزاي تكون «علة»، إذن لابد من علم ، ولابد من زهد، قبل أن ينعزل الإنسان عن الناس،طيب الأصدقاء هؤلاء قسمهم إلى ثلاثة أقسام:صديق منفعة، وهو الذي يصادقك ما دام ينتفع منك بمال أو جاه أو غير ذلك، فإذا انقطع الانتفاع، فهو عدوك، لا يعرفك ولا تعرفه، وما أكثر هؤلاء الذين يلمزون في الصدقات، إن أعطوا منها رضوا، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون، صديق لك حميم ترى أنه من أعز الناس عندك، وأنت من أعز الناس عنده، يسألك يومًا من الأيام يقول: أعطني كتابك أقرأ فيه، فتقول: والله الكتاب أنا محتاج إليه اليوم، أعطيك إياه غدًا، فينتفخ عليك، ويعاديك، هل هذا صديق!! هذا صديق منفعة...

---

(١) «طبقات النسابين» (ص٣١).(الشيخ بكر).

(٢) العزلة للخطابي. (الشيخ بكر).

أكَّال، والثاني: صديق لذة.. يعني لا يصادقك إلا لأنه يتمتع بالجلوس إليك... المحادثات والمؤانسات، والمسامرات، ولكنه لا ينفعك، ولا تنتفع منه أنت، كل واحد منكم لا ينفع الآخر، ليس إلا ضياع وقت فقط، هذا أيضًا احذر منه، أن يضيع أوقاتك، والثالث: صديق فضيلة، يحملك على ما يزين، وينهاك عَمَّا يشين، ويفتح لك أبواب الخير.. يدلك عليه، وإذا زللت نبهك على وجه لا يخدش كرامتك... هذا هو صديق الفضيلة... طيب كلمة صديق منفعة من أوسع هذا الأقسام؛ لأن المنافع كثيرة جدًّا فإذا رأيت هذا الرجل لا يصادقك إلا حيث ينتظر منفعتك، فاعلم أنه عدو وليس بصديق، كذلك صديق اللذة الذي يشغلك ويلهيك بالتمتع بالسهر، وإضاعة الوقت بالخروج للمنتزهات وغير ذلك، أيضًا هذا لا خير فيه، الذي يجب أن تعض عليه بالنواجذ، هو صديق الفضيلة، يحملك على كل فضيلة، وينهاك عن كل رذيلة.

الفصل الخامس
آداب الطالب في حياته العلمية

٢٤- كبر الهمة في العلم:

من سجايا الإسلام التحلي بكبر الهمة، مركز السالب والموجب في شخصك، الرقيب على جوارحك، كبر الهمة يجلب لك بإذن الله خيرًا غير مجذوذٍ، لترقى إلى درجات الكمال، فيجري في عروقك دم الشهامة، والركض في ميدان العلم والعمل، فلا يراك الناس إلا واقفًا على أبواب الفضائل، ولا باسطًا يديك إلا لمهمات الأمور.

☆ الشـــــرح ☆

وهذا من أهم ما يكون، أن يكون الإنسان في طلب العلم له هدف ليس مراده مجرد قتل الوقت بِهذا الطلب، بل يكون له همة، ومن أهم همم طالب العلم أن يريد القيادة والإمامة للمسلمين في علمه، ويشعر أن هذه درجة هو يرتقي إليها درجةً درجة، حتى يصل إليها، وإذا كان كذلك فسوف يرى أنه واسطة بين الله عزَّ وجلَّ، وبين العباد في تبليغ الشرع، هذه مرتبة ثانية، وإذا شعر بهذا الشعور، فسوف يحرص غاية الحرص على اتباع ما جاء في الكتاب والسنة معرضًا عن آراء الناس إلا أنه يستأنس بها ويستعين بها على معرفة الحق؛ لأن ما تكلموا فيه العلماء - رحمهم الله - من العلم أنه ولد يفتح الأبواب لنا وإلا لما استطعنا أن نصل إلى درجة نستنبط الأحكام من النصوص أو نعرف الراجح من المرجوح وما أشبه ذلك فالمهم أن يكون الإنسان عنده همة، وهو بإذن الله إذا قوى هذه النية فإن الله سبحانه سيعينه على الوصول إليها اهـ.

والتحلي بِها يسلب منك سفاسف الآمال والأعمال، ويجتث منك شجرة الذل والهوان والتملق والمداهنة، فكبير الهمة ثابت الجأش لا ترهبه المواقف، وفاقدها جبان رعديد، تغلق فمه الفهاهة.

☆ الشـــــرح ☆

هذا صحيح، التحلي بعلو الهمة يسلب عنك سفاسف الأعمال.

والآمال: هو أن يتمنى الإنسان الشيء دون السعي في أسبابه فإن المؤمن كَيسٌ فطن لا تلهيه الآمال، بل ينظر إلى الأعمال ويترقب النتائج.

وأما من تلهيه الآمال ويقول: إن شاء الله أقرأ هذا، أراجع هذا الآن سأستريح وبعد ذلك أراجع، أو تلهيه الآمال فيما يحدث للإنسان أحيانًا، يتصفح الكتاب من أجل مراجعة مسألة من المسائل ثم ينظر في الفهرس والصفحات، تلهيه عن المقصود الذي من أجله فتح الكتاب ليراجع مسألة، وهذا يقع كثيرًا، فينتهي الوقت وهو لم يراجع المسألة التي من أجلها صار يراجع هذا الكتاب، فإياك والآمال المخيبة، اجعل نفسك قوي العزيمة، عال الهمة.

ولا تغلط بين كبر الهمة والكبر، فإن بينهما من الفرق كما بين السماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع، كبر الهمة حلية ورثة الأنبياء، والكبر داء المرضى بعلة الجبابرة البؤساء.

☆ الشـــــرح ☆

نعم.. الهمة أن الإنسان يحفظ وقته، ويعرف كيف يتصرف ولا يضيع الوقت بغير فائدة، وإذا جاءه إنسان يرى أن مجالسته فيها إهمال وإلهاء، عرف كيف يتصرف وأما كبر النفس، فهو الذي يحتقر غيره ولا يرى الناس إلا ضفادع لا يهتم [بهم]، وربما يصعر وجهه، وهو يخاطبه، فكما قال الشيخ بكر: «فبينهما كما بين السماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع».

فيا طالب العلم، ارسم لنفسك كبر الهمة، ولا تنفلت منه، وقد أومأ الشرع إليها في فقهيات تلابس حياتك؛ لتكون دائمًا على يقظة من اغتنامها، ومنها: إباحة التيمم للمكلف عند فقد الماء، وعدم إلزامه بقبول الهبة ثمن الماء للوضوء، لما في ذلك من المنة التي تنال من الهمة منالاً، وعلى هذا فقس[1]. والله أعلم.

---

(١) «السعادة العظمى» لمحمد الخضر حسين (ص٧٦-٧٨). (الشيخ بكر).

☆ الشـــــرح ☆

يعني: من علوِّ الهمة ألَّا تكون متشرفًا لما في أيدي الناس، لأنك إذا تشرفت، ومنَّ الناس عليك ملكوك؛ لأن المنة ملك للرقبة في الواقع، لو أعطاك الإنسان قرشًا لوجد أن يده أعلى من يدك، كما جاء في الحديث: «اليد العليا خير من اليد السفلى»[1] واليد العليا هي المعطية والسفلى هي الآخذة، لا تبسط يدك للناس، ولا تمد كفك إليهم، إذا كان الإنسان عادم الماء، لو وهب له الماء لم يلزمه قبوله، بل يعدل [إلى] التيمم، خوفًا من المنة، مع أن الوضوء بالماء فرض للقادر عليه.

ولهذا فرق الفقهاء - رحمهم الله - بين أن تجد من يبيعه ومن يهديه، فقالوا: «من يبيعه اشترى منه وجوبًا؛ لأنه لا منة له حيث إنك تعطيه العوض، ومن أهدى إليك لا يلزمك قبوله، من أجل أن منته تقطع رقبتك، ولكن إذا كان الذي أهدى إليك الماء لا يمن عليك به، بل يرى أنك أنت المانّ عليه بقبوله، أو ممن جرت العادة بأنه لا منة بينهم، مثل الأب مع أبيه، والأخ المشفق مع أخيه، وما أشبه ذلك، فهنا ترتفع العلة، وإذا ارتفعت العلة ارتفع الحكم، والمهم أن من علو الهمة وكبرها، ألَّا يكون الإنسان مستشرفًا لما في أيدي الناس، بعض الناس يكون عنده أسلوب في السؤال، أي: في سؤال المال... إذا رأى مع هذا - ما شاء الله - من أين اشتراه، هل يوجد في السوق؟ من أجل ماذا؟ من أجل أن يعطيه إياه؛ لأن الكريم سوف يخجل، ويقول: إنه ما سأل هذا السؤال إلا من أجل أن يقول: تآمر عليه - يقصد تأمر عليه - فخذه، وإذا قال: تآمر عليه، ماذا يقول: لا يا رجل، آخذه منك وأدعك بلا قلم، وبلا ساعة مثلًا؟ فالمهم أن بعض الناس يستشرف أن يسأل بطريق غير مباشر، وكل هذا مما يحط من قدر طالب العلم، وقدر غيره أيضًا.

٢٥- النهمة في الطلب:

إذا علمت الكلمة المنسوبة إلى الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «قيمة كل امرئ ما يحسنه»، وقد قيل: ليس كلمة أحض على طلب العلم منها، فاحذر غلط القائل: ما ترك الأول للآخر. وصوابه: كم ترك الأول للآخر.

---

(١) رواه البخاري برقم (١٤٢٨)، ومسلم برقم (١٠٣٤).

☆ الشـــــرح ☆

قوله: «علمت الكلمة المنسوبة إلى الخليفة الراشد علي بن أبي طالب: قيمة كل امرئ ما يحسنه» هذا صحيح إذا كان الإنسان يحسن الفقه والشرع، صار له قيمة أكثر ممن يحسن فتل الحبال مثلاً؛ لأن كلًّا منهما يحسن شيئًا، لكن فرق بين هذا وهذا، ف-: «قيمة كل امرئ ما يحسنه»، وقد قيل: «ليس كلمة أحض على طلب العلم منها»، وهذا القيل ليس بصحيح، أشد كلمة من الحض على طلب العلم، قول الله - تبارك وتعالى -: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]. وقوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وقول النبي ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين»[(١)]. وقول النبي ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»[(٢)]، وأشباه ذلك مما جاء في الحثِّ على طلب العلم، لكن ما نقل عن علي ابن أبي طالب - رضي الله عنه -: «قيمة كل امرئ ما يحسنه»، هي كلمة لا شك أنَّها كلمة جامعة، لكنها ليست أحسن ما قيل في الحث علي طلب العلم.

وقوله: «احذر غلط القائل: ما ترك الأول للآخر. وصوابه: كم ترك الأول للآخر». ما الفرق بين العبارتين؟ «ما ترك الأول للآخر». خطأ. كم ترك الأول للآخر: صواب ففي العبارة الأولى: ما ترك الأول للآخر، إما أن تكون «ما» نافية، أو استفهامية. أقول: إما هذا أو هذا، فإن كانت نافية، فالمعنى: ما ترك الأول للآخر شيئًا. وإذا كانت استفهامية. فالمعنى: أي شيء تركه الأول للآخر؟ وكلا المعنيين يوجب أن يثبط الإنسان عن العلم، ويقول: كل العلم أخذ من قبلي، فلا فائدة، فيكون في ذلك تثبيط لهمته؛ لأنه إذا قيل لك: إن من قبلك أخذ كل شيء، ستقول:

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧١)، ومسلم برقم (١٠٣٧).
قال النووي رحمه الله: قوله ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين» فيه فضيلة العلم، والتفقه في الدين، والحث عليه، وسببه أنه قائد إلى تقوى الله تعالى. «صحيح مسلم بشرح النووي» (٤/ ١٣٩ رقم (١٠٣)).

(٢) رواه أبو داود برقم (٣٦٤١)، والترمذي برقم (٢٦٨٢)، وابن ماجه برقم (٢٢٣)، وابن حبان برقم (٨٨)، والدارمي برقم (٣٤٨)، والبغوي في «شرح السنة» (١/ ٢٧٥، ٢٧٨)، والبيهقي في «الآداب» برقم (١١٨٨)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٦٨)، و«صحيح الجامع» (٦٢٩٧)، وفي «العلم» لأبي خيثمة (٢٥).

إذًا ما الفائدة؟ أما إذا قيل: كم ترك الأول للآخر. فالمعنى ما أكثر ما ترك الأول للآخر، وهذا يحملك على أن تبحث عمَّا قاله الأولون، ولا شكَّ أن المعنى الصواب قول القائل: كم ترك الأول للآخر. فإن قيل: إن الشاعر الجاهلي يقول:

ما نرانا نقول إلا معارًا أو معادًا من قولنا مكرورا

فهل هذا صواب؟ الجواب: لا، ليس هذا بصواب، وما أكثر الأشياء الجديدة التي تكلمنا بِها، ولم يتكلم بِها من قبلنا، نعم إن أراد بِهذه حروف الكلمات، أو الكلمات، هذا صحيح، أما ما يكون له معنى جديد، فلا، بل يحدث من الأشياء الكثيرة ما يكون له معنى جديد لم يعرفه السابقون، ولعل الشاعر الجاهلي أراد أنه كل ما يقال من الكلمات والحروف، فإنه إما معار؛ يعني: أخذناه من غيرنا، وإما معاد، لكن إذا كان البيت بِهذا المعنى، فقيمته ضعيفة رخيصة؛ لأن هذا معلوم لا يحتاج إلى أن ينشأ الإنسان فيه بيتًا.

فعليك بالاستكثار من ميراث النبي ﷺ وابذل الوسع في الطلب والتحصيل والتدقيق، ومهما بلغت في العلم، فتذكر كم ترك الأول للآخر.

☆ الشـــــرح ☆

«عليك بالاستكثار» يعني: يحثك على الاستكثار من ميراث النبي ﷺ، وذلك العلم؛ لأن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -، لم يورّثوا درهمًا ولا دينارًا، وإنما ورّثوا العلم، فمن أخذه، فقد أخذ بحظٍّ وافرٍ من ميراث الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -، ثم اعلم أن ميراث النبي ﷺ إما أن يكون بالقرآن الكريم، أو بالسنة، فإن كان بالقرآن الكريم، فقد كفيت إسناده والنظر فيه؛ لأن القرآن لا يحتاج إلى النظر في السنة، إذ أنه متواتر، أعظم التواتر، وأما إذا كان في السنة النبوية، فلابدّ من أن تنظر أولاً: هل صحت نسبته إلى رسول الله ﷺ أم لم تصح؟ فإن كنت تستطيع أن تمحِّص ذلك بنفسك، فهذا هو الأولى، وإلا فقلد؟!

إذا لم تَسْتَطِعْ شيئًا فَدَعْهُ وجاوِزْه إلى ما تَسْتَطيعُ

قوله: «وابذل الوسع في الطلب والتحصيل والتدقيق» بذل الوسع يعني: الطاقة في التدقيق أمر مهم؛ لأن بعض الناس يأخذ بظواهر النصوص وبعموماتها، دون أن يدقق، هل هذا الظاهر مراد، أو غير مراد، وهل هذا العام مخصص، أو غير مخصص، وهل هذا المطلق مقيد؟ أو غير مقيد، فتجده يضرب السُّنة بعضها ببعض؛ لأنه ليس عنده علم في هذا الأمر، لا يدقق، وهذا يغلب على كثير من الشباب اليوم الذين يعتنون بالسنة، تجد الواحد منهم يتسرع في الحكم المستفاد من الحديث، أو في الحكم على الحديث، وهذا خطر عظيم.

يقول: «مهما بلغت في العلم، فتذكر: كم ترك الأول للآخر»، هذا طيب، لكن نقول: إن أحسن من ذلك، مهما بلغت في العلم، فتذكر قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]؛ لأن هذا من القرآن، وأوضح في الدلالة، من القول الأول: كم ترك الأول للآخر، كلما بلغت في العلم فتذكر: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾، ويذكر الآية الأخرى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وفي ترجمة أحمد بن عبد الجليل من «تاريخ بغداد» للخطيب، ذكر من قصيدة له:

لا يكون السَّري مثل الدني ... لا ولا ذو الذكاء مثل الغبي

قيمة المرء كلما أحسن المرء ... قضاء من الإمام علي

☆ الشـــــرح ☆

هذا سبق الكلام عليه، لكن لا يكون السَّري يعني: الشريف عالي الهمة، مثل [الدني]، ونفي المماثلة ظاهر، أيضًا لا يكون الإنسان الذكي مثل الإنسان الغبي، وبقي... ولا ذو العلم مثل الجاهل، إلا أنه سَري، أما قوله: قيمة المرء كل ما يحسنه المرء قضاء من الإمام علي. فهو قد سبق الكلام عليه، قيمة كل امرئ ما يحسنه، وسبق تعليقنا عليه.

٢٦- الرحلة للطالب:

من لم يكن رُحْلَة، لن يكون رُحَلة[1]، فمن لم يرحل في طلب العلم، للبحث عن الشيوخ، والسياحة في الأخذ عنهم، فيبتعد تأهله ليُرحل إليه؛ لأن هؤلاء العلماء الذين مضى وقت في تعلمهم وتعليمهم والتلقي عنهم، لديهم من التحريرات والضبط، والنكات العلمية، والتجارب.

---

(١) «تذكرة السامع والمتكلم». (الشيخ بكر).

☆ الشـــــرح ☆

«والتجارب»، الراء مكسورة، والتجارُب والتجرُبة غلط، فليست لغة عربية، مع أنها الشائعة عند الناس الآن، حتى عند طلبة العلم، يقول: تجارُب وتجرُبة، مع أن الصواب بكسر الراء، قال الشاعر:

قد جربوه فما زادت تجارِبُهم أبا قدامة إلا المجد والفنع[1]

الآن تبين أن المعنى من لم يكن له رِحلة في طلب العلم، فلن يكن له رحلة، أي: لن يُرحل إليه، والمعنى: أن من لم يبلغ في العلم ما يبلغ، فإنه لن يُرحل إليه، ولن يأتي الناس إليه.

ما يعز الوقوف عليه، أو على نظائره في بطون الأسفار.

☆ الشـــــرح ☆

الأسفار: جمع سِفر، يعني: الكتب.

واحذر القعود عن هذا على مسلك المتصوفة البطالين، الذين يفضلون «علم الخرق» على «علم الورق»، وقد قيل لبعضهم: ألا ترحل حتى تسمع من عبدالرزاق؟ فقال: ما يصنع بالسماع من عبد الرزاق[2]، من يسمعُ من الخلاّقِ.

☆ الشـــــرح ☆

أعوذ بالله، الصوفية يزعمون أن الله يخاطبهم، ويوحي إليهم، وأنهم يزورونه، ويزورهم، نسأل الله العافية، هذا من خرافاتهم.

وقال آخر:

إذا خاطبوني بعلم الورق برزت عليهم بعلم الخرق[3]

---

(١) ديوان الأعشى (٥٢).

(٢) هو أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري، توفي سنة (٢١١هـ)، له تصانيف منها «المصنف» في الحديث و«التفسير». «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٣/ ٢١٦، ٢١٧).

(٣) أبو بكر الشبلي (٣).

☆ الشـــــرح ☆

الخرق: ما يلبسونه من لباسهم.

فاحذر هؤلاء فإنهم لا للإسلام نصروا، ولا للكُفر كسروا، بل منهم من كان بأسًا وبلاءً على الإسلام.

☆ الشـــــرح ☆

صحيح هذه العبارة فإنهم لا للإسلام نصروا، ولا للكفر كسروا، مأخوذة من كلام شيخ الإسلام - رحمه الله - في المتكلمين، قال: هؤلاء لا للإسلام نصروا، ولا للفلاسفة كسروا[1].

يعني: أنهم ما نصروا الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ، ولا كسروا الفلاسفة الذين هاجوا وماجوا على الإسلام كله، وتدلك لذلك أن هؤلاء المتكلمين حرَّفوا النصوص عن ظاهرها، وأولوها إلى معان أوجدوها، بما يزعمون أنه عقل، فتسلط عليهم الفلاسفة، وقال: أنتم إذا أولتم آيات الصفات، وأحاديث الصفات مع ظهورها ووضوحِها، فاسمحوا لنا أن نؤول آيات المِعاد، يعني: آيات اليوم الآخر، فإن ذكر أسماء الله وصفاته في الكتب الإلهية أكثر بكثير من ذكر المعاد، وما يتعلق به، فإذا أبحتم لأنفسكم أن تؤولوا في أسماء الله وصفاته الواردة في الكتاب والسنة، فاسمحوا لنا أن نؤول في آيات المعاد، وننكر المعاد رأسًا.

ولا شك أن هذه حجة قوية للفلاسفة على هؤلاء المتكلمين، إذ لا فرق، بل يقول شيخ الإسلام: ما جاءت به الرسل من أسماء الله وصفاته، أكثر بكثير مما جاءت به الرسل من أمر اليوم الآخر، فإن جاز التأويل في الأسماء والصفات، جاز التأويل في المعاد وإنكار المعاد كفر، وإن لم يجز إنكار المعاد، فإنه لا يجوز إنكار الصفات.

أظن الشيخ - وفقه الله - هاجم الصوفية، وهم جديرون بالمهاجمة؛ لأن بعضهم يصل إلى حد الكفر والإلحاد - والعياذ بالله - حتى يعتقد أنه هو الرب، كما يقول بعضهم: ما في الجبة إلا الله، يعني: نفسه، ويقول:

---

(١) مجموعة الفتاوى (١٦/ ٣٠٠).

الـربُّ عـبـدٌ والـعـبـدُ ربٌّ يا ليت شعري مَن المكلف[١]

يقول: «الربُّ عبد، والعبد ربّ»، يعني: هما شيء واحد، «يا ليت شعري»، يعني: يا ليتني أشعر «مَن المكلف»، إلى أمثال ذلك من الخرافات التي يقولونها.

لكن ينبغي أيضًا أن نهاجمهم، ونركز على مهاجمة أهل الكلام الذين سلبوا الله - عزَّ وجلّ - من كماله بكلامهم، أنكروا الصفات، فمنهم من أنكر الصفات رأسًا، كالمعتزلة[٢]، وأثبت الأسماء، لكن جعلها أسماء جامدة، لا تدلُّ على معنى، وغالى بعضهم، فقال: إنها أسماء واحدة. وإن السميع هو البصير، وإن السميع والبصير هما العزيز وهما شيء واحد، وبعضهم قال: هي أسماء متعدية، لكنها لا تدلُّ على معين، مسلوبة المعنى؛ لأنهم لو أثبتوا لها معنى على زعمهم، للزم تعدد الصفات بتعددها، وتعدد الصفات يرون أنه شرك؛ لأنهم يقولون: إنه يلزم من تعدد الصفات القديمة كالعلم، والسمع، والبصر، فيلزم من ذلك تعدد القدماء، وهذا أشد شركًا من النصارى، ثلثوا، وأنتم صرفتم بالمائة والآلاف..

فالحاصل أنه أيضًا ينبغي أن يهاجم على أهل الكلام الذين عطلوا الله عزَّ وجلَّ مما يجب له من صفات الكمال، بعقول واهية، بل ضامرة بالكلية.

٢٧- حفظ العلم كتابةً[٣]:

ابذل الجهد في حفظ العلم «حفظ كتاب»؛ لأن تقييد العلم بالكتابة أمان من الضياع[٤]، وقصر لمسافة البحث عند الاحتياج، لاسيما في مسائل العلم التي تكون في غير مظانّها، ومن أجل فوائده أنه عند كبر السن وضعف القوى، يكون لديك مادة تستجر منها مادة تكتب فيها بلا عناء في البحث والتقصي.

---

(١) البيت لابن عربي.

(٢) المعتزلة: هي إحدى الفرق التي خالفت أهل السنة والجماعة، ورأس هذه الفرق وأول من تكلم بأصولهم: واصل بن عطاء، والمعتزلة فرق شتى يجمعهم القول بنفي الصفات، والقول بخلق القرآن، وأن العبد يخلق فعل نفسه، وقيل: سموا بذلك لاعتزالهم أقوال المسلمين، ومفارقة ما يعتقدون. وقيل غير ذلك. انظر «الملل والنحل» (١/٥٦)، و«الفرق بين الفرق» (ص٩٣)، و«التبصير في الدين» (ص٣٧).

(٣) «الجامع» للخطيب (٢/١٦، ١٨٣، ١٨٥). (الشيخ بكر).

(٤) لأثر عمر بن الخطاب: «قيدوا العلم بالكتاب». «سنن الدارمي» (٤٩٧).

☆ الشـــــرح ☆

يعني: بذل الجهد مهم، لا سيما في نوادر المسائل، أو في التقسيمات التي لا تجدها في بعض الكتب، كم من مسألة نادرة مهمة تمرُّ بالإنسان، فلا يقيدها اعتمادًا على أنه يقول: إن شاء الله ما أنساها، فإذا به ينساها، ويتمنى لو كتبها، لكن احذر أن تكتب على كتابك، على هامشة أو بين سطوره، كتابة تطمس الأصل، فإن بعض الناس يكتب على هامش الكتاب، أو بين سطوره، كتابة تطمس الأصل، بل يجب إذا أردت أن تكتب على كتابك، أن تجعله على الهامش البعيد عن الأصل؛ لئلا يلتبس هذا بهذا، فإن لم يتيسر هذا، كأن ما تريد تعليقه أكثر من الهامش فلا ضير عليك أن تجعل ورقة بيضاء تلصقها بين الورقات، تشير إلى موضعها من الأصل، وتكتب ما شئت، وكان طلبة العلم يأخذون مذكرات صغيرة، يجعلونها في الجيب، كلما ذكر منهم الإنسان مسألة قيدها، إما فائدة علم في خاطره، أو مسألة يريد أن يسأل عنها الشيخ فيقيدها؛ فاستفاد بذلك كثيرًا.

ولذا فاجعل لك «كناشًا[1]» أو «مذكرة»؛ لتقييد الفوائد والفرائد.

☆ الشـــــرح ☆

س: ما معنى الكُنَاشة؟

ج: الكُناش بضم الكاف، وتخفيف النون وشين معجمة على وزن غراب: لفظ سرياني بمعنى المجموعة، والتذكرة. انظر التراكيب الإدارية.

فيه الآن يقولون: كُناش. ما عمرنا سمعناها... أسمعتموها؟ لا..، مذكرة موجودة، مفكرة أيضًا بالفاء، أظن موجودة، كراس... لا... أظن كراس يمكن.

والأبحاث المنثورة في غير مظانِّها، وإن استعملت غلاف الكتاب؛ لتقييد ما فيه من ذلك، فحسن، ثم تنقل ما يجتمع لك بعد في مذكرة، مرتبًا له على الموضوعات، مقيدًا رأس المسألة، واسم الكتاب ورقم الصفحة والمجلد، ثم اكتب على ما قيدته:

---

(١) الكُناش. بضم الكاف وتخفيف النون وشين معجمة. على وزن غراب؛ لفظ سرياني بمعنى المجموعة والتذكرة. وانظر: «التراتيب الإدارية» (٢/ ٢٧٠). «الشيخ بكر».

«نقل»، حتى لا يختلط بما لم ينقل، كما تكتب: بلغ صفحة كذا. فيما وصلت إليه من قراءة الكتاب، حتى لا يفوتك ما لم تبلغه قراءة، وللعلماء مؤلفات عدة في هذا؛ منها: «بدائع الفوائد» لابن القيم، و«خبايا الزوايا» للزركشي[١]، ومنها كتاب «الإغفال» و«بقايا الخبايا» وغيرها.

☆ الشـــــرح ☆

ومنها أيضًا «صيد الخاطر» لابن الجوزي[٢]، لكن أحسن ما رأيت «بدائع الفوائد» لابن القيم[٣] أربعة أجزاء في مجلدين، فيه من بدائع العلوم ما لا تكاد تجده في كتاب آخر في كلِّ فنٍّ، كل ما طرأ على باله قيده؛ ولهذا تجده فيه مثلاً في العقائد، في التوحيد، في الفقه، في النحو، في البلاغة، في التفسير، في كل شيء، أحيانًا يبحث في كلمة من الكلمات اللغوية، في صفحات تحليلا، وتنويعًا، واشتقاقًا، وغير ذلك، يبحث بحثًا في الفرق بين المدح والحمد، اللغة: حمد ومدح، كتب كتابة فيه فائضة في ذلك، وقال: كان شيخنا إذا بحث في مثل هذا أتى بالعجب العُجاب، ولكنه كما قيل:

تألق البرق نجديًا، فقلت له إليك عني، فإني عنك مشغول

يعني: أنه - رحمه الله - منشغل بما هو أهل من التحقيق في اللغة العربية، وإلا فهو أعني: شيخ الإسلام - رحمه الله - آية في اللغة العربية، لمَّا قدم مصر واجتمع بأبي حيان المصري الشهير، صاحب «البحر المحيط» في التفسير وكان أبو حيان، يثني على شيخ الإسلام ثناء عاطرًا، ويمدحه بقصائد عصامية، ومن جملة ما يقول فيه:

قام ابنُ تيميةَ في نصرِ شرْعَتِنا مقامَ سيد تيمٍ إذا عَصَت مضرُ

---

(١) هو محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبو عبد الله بدر الدين عالم بفقه الشافعية والأصول. «الأعلام» (٦/ ٦٠).

(٢) هو الشيخ الإمام العلامة الحافظ المفسر جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي، يصل نسبه إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، الحنبلي الواعظ صاحب التصانيف الكثيرة، توفي سنة (٥٩٧هـ). «سير أعلام النبلاء» (٢١/ ٣٦٥).

(٣) هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حزيز الزرعي ثم الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية، تفقه وأفتى ولازم ابن تيمية وسجن معه في قلعة دمشق، توفي سنة (٧٥١هـ). انظر «معجم المؤلفين» (٩/ ١٠٦، ١٠٧).

يعني: أبا بكر - رضي الله عنه - يوم الردَّة، فلما قدم حضر شيخ الإسلام اجتمع بهذا الرجل - أبي[١] حيان - وتناظر معه في مسألة نحوية، واحتج عليه أبو حيان بقول سيبويه[٢] في «كتابه» قال: إن سيبويه في «الكتاب»، وكذا يعني فكيف نخالفه؟ فقال له شيخ الإسلام: وهل سيبويه نبي في النحو؟ يعني: حتى يجب علينا اتباعه، ثم قال: لقد غلط سيبويه في «الكتاب» في أكثر من ثمانين موضوعًا، لا تعلمها أنت ولا هو - سبحان الله - هكذا يقول في سيد النحاة، يقال: إن أبا حيان بعد ذلك أخذ عليه، وصار بنفسه، فأنشأ قصيدة يهجوه فيها، نسأل الله العافية، عفا الله عنا وعنهم جميعًا، فالمهم أن كتاب «بدائع الفوائد» من أحسن الكتب، فيه فوائد لا تجدها في غيره.

اكتبوا «بلغ» أنا أرى في الهوامش، هوامش الكتب المصححة ... بلغ قراءة، أو بلغ تصحيحًا، أو بلغ مقابلة، لكن لو كتب بلغ، بالنسبة لكتابنا الآن يكفي، لأننا نحن إنما نقرأ فقط، نكتب بلغ، فقيد العلم بالكتاب.

وعليه فقيد العلم بالكتاب[٣]، لا سيما بدائع الفوائد، في غير مظانها، وخبايا الزوايا، في غير مساقها، ودررًا منثورة تراها وتسمعها، تخشى فواتها... وهكذا، فإن الحفظ يضعف، والنسيان يعرض.

☆ الشـــــرح ☆

قوله: «لا سيما بدائعَ» الأفصح في هذا أن تكون مرفوعة بعد لا سيما، يجوز النصب، ولكن الأحسن الرفع، ومعنى الكلام: أنه يحثُّ على كتابة هذه الأشياء، بدائع الفوائد، التي تعرض للإنسان حتى لا ينساها، وكذلك أيضًا، ولا سيما أيضًا إذا كانت في غير مظانها، لأنك أحيانًا تبحث عن مسألة تظنها مثلاً: في باب الصيد، وهي المذكورة في مكان آخر، فإذا ذكرت في مكان آخر فقيدها، وكذلك أيضًا «خبايا الزوايا في غير مساقها» بمعنى الجملة الأولى، يعني: معناه ما اختبأ في الزاوية في سياقه

---

(١) هو أثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن يوسف الغرناطي الأندلسي أبو حيان النحوي، توفي سنة (٧٤٥هـ). انظر «شذرات الذهب» (٦/ ١٤٥، ١٤٧).

(٢) هو إمام النحو، حجة العرب، أو بشر عمر بن عثمان بن قنبر الفارسي ثم البصري الملقب بسيبويه، مات رحمه الله تعالى سنة (١٨٠هـ). انظر «شذرات الذهب» (١/ ٢٥٢-٢٥٤).

(٣) وقد صحّ نحو هذا الأمر مرفوعًا إلى النبي ﷺ فانظره في «السلسلة الصحيحة» برقم (٢٠٢٦). (الشيخ بكر).

فاكتبه «ودرر منثورة تراها، تسمعها تخشى فواتها»، وهذه أيضًا من المسائل التي أما أن تعرض لك، أو تعرض في كتب أهل العلم، وهي منثورة، فهذه ينبغي أن تجمعها، وتجعلها في مكان في الكتاب، وكذلك الدرر المنثورة، وتسمعها، وتخشى فواتها.

قال الشعبي[1]: إذا سمعت شيئًا فاكتبه، ولو في الحائط. رواه خيثمة، وإذا اجتمع لديك ما شاء الله أن يجتمع، فرتبه في «مذكرة» أو «كناش»، على الموضوعات، فإنه يسعفك في أضيق الأوقات التي قد يعجز عن الإدراك فيها كبار الأثبات.

☆ الشـــــرح ☆

صحيح، هذا القول ينبغي لك إذا اجتمع لديك [من العلم] ما شاء الله فاجمعه في مذكرة، أو مفكرة، أو محفظة، أو ما شئت فسمها، المهم أن تجمعها، ولكن يقول: على الموضوعات، هل الأولى أن ترتبها على الموضوعات، أو أن ترتبها على أ، ب؟ نرى أنه على أ، ب أحسن؛ وذلك لأن ترتيبها على الموضوعات تختلف فيه كتب العلماء، تجد مثلًا ترتيب الحنابلة غير ترتيب الشافعية، ولا سيما في المعاملات، بل إن نفس أهل المذهب الواحد يختلف ترتيبهم، ترتيب المتقدمين منهم والمتأخرين على الموضوعات، فإذا رتبناها على أ، ب، سهل واتفقت الموضوعات على هذا الترتيب: تبين لنا الآن أن الشيخ بكر يحث على حفظ العلم كتابه، ومن العلماء من عكس، فقال: ينبغي حفظ العلم؟ حفظًا، في الصدور، لا في السطور، وقال: «إن اعتماد الإنسان على الكتابة» يعني: أنه في حافظته وأهملها، لكن لو عود نفسه على الحفظ حفِظ، وهذا له وجهة نظر؛ ولذلك نرى أن الآلات الحاسبة الآن، والكمبيوترات، التي وضعت فيها العلوم والفنون، نرى أنها أثرت على الناس، الآن مثلًا نفرض... في جدول الفرائض في الكمبيوتر، يأتي الإنسان في الشارع يعرف كيف يشغل الكمبيوتر، ويخرج لك الأحكام في المواريث، وهو لا يعرف، وهذا ضرر، ضرر عظيم على الذاكرة، وعلى الحفظ، ولا أرى استعمال هذا الشيء إلا عند الحاجة، المسألة فرضية، وردت على إنسان تتطلب العجلة، وحسابها طويل عريض، فهنا لا بأس أن يستعمل، أما ما دمت يمكنك أن تستعمل الشيء حسب حافظتك، وذهنك، فابتعد عن الكتابة، فالكتابة في الحقيقة يحتاج إليها الإنسان إذا كان قليل الحفظ،

---

(١) هو التابعي الجليل عامر بن شراحبيل بن عبد ذي كبار الشعبي الحميري أبو عمرو، توفي بالكوفة سنة (١٠٣هـ). «تذكرة الحفاظ» (١/ ٧٤).

يعني: ضعيف الحفظ، وإلا فالاعتماد على الحفظ أولى؛ ولهذا نجد أن الصحابة رضي الله عنهم حملوا الحديث أكثرهم حمله حفظًا لا كتابة، وإن كان منهم من يكتب، كعبد الله بن عمرو بن العاص، لكن أبا هريرة لا يكتب، ومع ذلك عنده علم بالحديث، أو روى ونقل عن رسول الله ﷺ ما لم ينقله غيره، مع تأخر إسلامه، فالمسألة هنا لا نقول: بفضل الكتابة مطلقًا، ولا بفضل الحفظ مطلقًا في الصدر، نقول: إذا تساويا فالحفظ في الصدور أفضل وأحسن، وإن دعت الحاجة إلى هذا أو هذا، فليستعمل الآن عندكم في المسجلات، لو كنتم تعتمدون على التلقي حفظًا؛ لحفظتم أكثر مما تعتمدون على المسجلات؛ لأن الإنسان بالمسجل، يقول: سأنام، وإذا انتهى الدرس، فتح هذا المسجل، وسمع، لكن لو كان ليس له مسجل، وصار يركز على ما يقوله أستاذه، كان هذا أقوى.

فإذًا نقول: الكتابة أحيانًا يضطر إليها الإنسان، وإذا لم يكن هناك حاجة، فالحفظ في الصدور أولى، وممَّا يعتري الكتابة، أنه قد لا يكون الكتاب معك، فتبقى كأنك عامي، صح أقول إذا اعتمدت على الكتابة.. ربما لا يكون الكتاب معك تسافر به، والكتاب في البيت، وإذا كنت تعتمد على حفظ الصدر ربما لا يكون صدرك معك، غلط؟ إيه... نعم... صدرك معك، هذه من آفات الكتابة.

٢٨- حفظ الرعاية:

ابذل الوسع في حفظ العلم حفظ رعاية بالعمل والاتباع، قال الخطيب البغدادي[١]- رحمه الله تعالى -: يجب على طالب الحديث أن يخلص نيته في طلبه، ويكون قصده وجه الله سبحانه، وليحذر أن يجعله سبيلًا إلى نيل الأعراض، وطريقًا إلى أخذ الأعواض، فقد جاء الوعيد لمن ابتغى ذلك بعلمه.

☆ الشـــــرح ☆

جاء الوعيد لمن طلب علمًا، وهو ما يبتغي به وجه الله لم يجد عَرْف الجنة[٢]، أي: ريحها، وما ذكره الخطيب البغدادي - رحمه الله - حق أن يخلص الإنسان النية في طلب العلم بأن ينوي امتثال أمر الله تعالى، والوصول إلى ثواب طلب العلم،

---

(١) «الجامع» للخطيب (١/ ٨١، ٨٣، ٨٥، ٨٧، ١٣٢). (الشيخ بكر).

(٢) أخرجه أبو داود برقم (٣٦٦٤)، وابن ماجه برقم (٢٥٢)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع».

وحماية الشريعة، والذب عنها، ورفع الجهل عن نفسه، ورفع الجهل عن غيره، كل هذه تدل على الإخلاص، وألاَّ يكون قصده نيل الأعراض، جمع عرض، يعني: نيل شيء من عرَض الدنيا كالجاه، والرئاسة، والمرتبة، أو طريقًا إلى أخذ الأعواض، كالراتب، لا يريد هذا.

فإذا قال قائل: كل الذين يطلبون العمل في الكليات الآن إنما يقصدون الشهادة، كالشهادات المزيفة، والغش، وما أشبه ذلك. فيقال: يمكن الإنسان أن يريد الشهادة في الكلية، مع إخلاص النية؛ وذلك بأن يريد بها الوصول إلى منفعة الخلق؛ لأن من لم يحمل الشهادة، لا يتمكن من أن يكون مدرسًا، أو مديرًا، أو ما أشبه ذلك مما يتوقف، على نيل هذه الشهادة.

فإذا قال: أنا أريد أن أنال الشهادة، لا يتمكن من التدريس في الكلية مثلاً [إلا بها]، ولولا هذه الشهادة ما درست، أريد الشهادة لأكون داعية؛ لأننا في عصر لا يمكن أن يكون الإنسان داعية إلى الله إلا بالشهادة.

فإذا كانت هذه نية الإنسان فهي نية حسنة لا تضرُّ إن شاء الله، هذا في العلم الشرعي، أما في العلم الدنيوي فإن فيه ما شئت مما أحله الله، لو تعلم الإنسان الهندسة وقال: أريد أن أكون مهندسًا ليكون راتبي ١٠ آلاف ريال، فهل هذا حرام؟ لا، لماذا؟ لأن هذا علم دنيوي، كالتاجر يتاجر من أجل أن يحصل على الربح.

وليتق المفاخرة، والمباهاة به، وأن يكون قصده في طلب الحديث؛ نيل الرئاسة واتخاذ الأتباع، وعقد المجالس، فإن الآفة الداخلة على العلماء أكثرهم من هذا الوجه.

☆ الشـــــرح ☆

وقد جاء الوعيد فيمن طلب العلم ليجاري به العلماء أو يماري به السفهاء[1]، فأنت لا تقصد بعلمك المفاخرة والمباهاة، وأن يكون قصدك أن تصرف وجوه الناس إليك، وما أشبه ذلك، هذه نيات سيئة، وهي ستحصل لك مع النية الصالحة إذا نويت نية صالحة، صرت إمامًا، صرت رئيسًا اتجه الناس إليك، وأخذوا بقولك.

وليجعل حفظك للحديث، حفظ رعاية لا حفظ رواية، فإن رواة العلوم كثير،

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٦٥٤)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٦٣٨٣).

ورعاتها قليل، ورب حاضر كالغائب، وعالم كالجاهل، وحامل للحديث ليس معه منه شيء إذا كان في اطراحه لحكمه، بمنزلة الذاهب عن معرفته وعلمه.

☆ الشـــــرح ☆

هذا أيضًا، يجب أن يعتني به حافظ الحديث «رعاية» يعني: رعاية أن يفقه الحديث، ويعمل به، ويبينه للناس؛ لأن مجرد الحفظ بدون فقه للمعنى ناقص، ناقص جدًّا، وقد قال النبي ﷺ: «ربَّ مبلَّغ أوعى من سامع»[(١)]. والمقصود بالأحاديث أو بالقرآن الكريم، هو فقه المعنى، حتى يعمل به الإنسان، ويدعو إليه، ولكن الله - سبحانه وتعالى - بحكمته جعل الناس أصنافًا: «منهم من هو راوية فقط، ولا يعرف من المعني شيئًا، فيه، لكنه في الحفظ والثبات قوي جدًّا، ومن الناس من أعطاه الله فهمًا وفقهًا لكنه ضعيف الحفظ، إلا أنه يفجِّر ينابيع العلم من النصوص، إلا أنه ضعيف الحفظ، ومن الناس من يعطيه الله الأمرين؛ قوة الحفظ، وقوة الفقه، لكن هذا نادر، وقد ضرب النبي ﷺ مثلاً لما آتاه الله تعالى من العلم والحكمة بغيث «مطر» أصاب أرضًا فصارت الأرض ثلاثة أقسام:

القسم الأول: قيعان ابتلعت الماء ولم تنبت الكلأ، فهذا مثل ما آتاه الله العلم والحكمة، ولكنه لم يرفع به رأسًا، ولم ينتفع به، ولم ينفع غيره.

والقسم الثاني: «أمسكت الماء» لكنها لم تنبت الكلأ، هؤلاء مَن؟ الرواة، أمسكوا الماء، فسقى الناس، واستقوا وزرعوا لكن هم بأنفسهم، ليس عندهم إلا حفظ هذا الشيء.

الأرض الثالثة: أرض رياض قبلت الماء، فأنبتت العشب، والكلأ، فانتفع الناس وأكلوا، وأكلت مواشيهم، وانتفع، هؤلاء مَن؟ هؤلاء الذين مَنَّ الله عليهم بالعلم، والفقه، فنفعوا الناس وانتفعوا به[(٢)].

وينبغي لطالب الحديث أن يتميز في عامة أموره عن طرائق العوام، باستعمال آثار رسول الله ﷺ ما أمكنه، وتوظيف السنن على نفسه، فإن الله تعالى يقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٦، ١٧٤١)، ومسلم برقم (٦٧٩)، وأحمد (٤١٥٧)، والترمذي برقم (٢٦٥٧)، وابن ماجه برقم (٢٣٢).

(٢) لحديث أبي موسى الأشعري أخرجه البخاري برقم (٧٩)، ومسلم برقم (٢٢٨٢)، وأحمد (١٩٤٦٤).

☆ الشـــــرح ☆

قوله: «ينبغي لطالب العلم» كلمة ينبغي: أحيانًا يراد بها الوجوب، لكن الشائع في استعمالها أنها للندب.

«ينبغي لطالب العلم» يعني: للعالم بالحديث أن يتميز في عامة أموره عن طرائق العوام، باستعمال آثار الرسول عليه الصلاة والسلام ما أمكنه، وهذا في الأمور التعبدية ظاهر، أنه ينبغي للإنسان أن يتميز باستعمال آثار الرسول عليه الصلاة والسلام، في الأمور الاتفاقية التي وقعت اتفاقًا من غير قصد، هل يشرع أن يتبعها الإنسان أم لا؟ كان ابن عمر رضي الله عنه وعن أبيه، يتتبع ذلك حتى أنه يتحرى المكان الذي نزل فيه الرسول ﷺ وبال فيه، فينزل ويبول فيه وإن لم يكن محتاجًا للبول...

كل هذا من شدة تحريه لاتباع الرسول عليه الصلاة والسلام، لكن هذا الأصل خالفه أكثر الصحابة.

ولهذا لو قال قائل: أيُسَنُّ لنا الآن ألا نقدم مكة في الحج إلا في اليوم الرابع، ينبغي على هذا، أن نقول: هذا وقع اتفاقًا أنه قدم في الرابع من ذي الحجة، فالصحيح أنه لا يشرع، طيب وما وقع عادة فهل يشرع لنا أن نتبعه فيه، مثلاً: العمامة، والرداء، والإزار، نقول: نعم يشرع أن نتبعه فيه.

ولكن ما معنى الاتباع، هل معناه اتباعه في عين ما لبس، أو اتباعه في جنس ما لبس؟ الثاني، لا شك؛ يعني أن الرسول ﷺ لبس ذلك في ذلك الوقت؛ لأن الناس يلبسونه، اعتادوا هذا. وعليه فنقول: السنة ليس ما يعتاده الناس، ما لم يكن محرمًا وجب اجتنابه، طيب ما وقع على سبيل التشهي، فهل نتبعه منه، يعني كان ﷺ يحب الحلواء، ويحب العسل[١]، ويتتبع الدباء في الطعام[٢]، الدباء... أي القرع، فما زلت أتتبعها منذ رأيت النبي ﷺ يتتبعها.

وعلى هذا فهل نقول: من المشروع أن نتتبع الدباء؛ لأن النبي ﷺ كان يتتبعها أولاً، الظاهر أن هذا قد يكون الاتباع فيه أحرى من الاتباع في ما سبق، وهو ما وقع اتفاقًا؛ لأن هذا

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤١٩٧)، والبخاري برقم (٥٥٩٩)، ومسلم برقم (١٤٧٤)، وأبو داود برقم (٤٧١٥)، والترمذي برقم (٣٣٢٣).

(٢) رواه أحمد برقم (١٢٤٨٥)، ومسلم برقم (٢٠٤١)، وأبو داود برقم (٣٧٨٢).

لم يقع اتفاقًا، كما فعل الرسول ﷺ حين تتبعها قصدًا لا اتفاقًا، ولا شك أن الإنسان إذا تتبع الدباء من على ظهر القصعة، وهو يشعر أنه يفعل كما فعل الرسول عليه الصلاة والسلام، لا شك أن هذا يوجب له محبة للرسول ﷺ واتباع آثاره. وحينئذ نقول: إذا تتبعت ذلك فإنك على خير، وقد يكون في الدباء منفعة طيبة تسهل وتلين، وتكون أدمًا للطعام، ففيها مصالح، ولسنا نعرف الطب، ولكن لو أننا رجعنا إلى أهل الطب، لوجدنا أن في ذلك مصلحة طيبة، المهم أن قوله: «أن يتميز في عامة أموره عن طرائق العوام» باستعمال آثار الرسول ﷺ نقول: فيه ما سمعتم من التفصيل.

كذلك «باستعمال الآثار»: العبارة هذه فيها شيء من الركاكة، ولو قال باتباع الآثار، كما عبر بذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في «العقيدة الواسطية»، قال من أصول أهل السنة والجماعة اتباع آثار النبي ﷺ ظاهرًا، وباطنًا. وهذا هو اللفظ المطابق للقرآن: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، أما استعمال الآثار، فقد يتوهم واهم أن المراد استعمال ثيابه، عمامته، وما أشبه ذلك، لكن إذا قلنا: اتباع آثار، كان هذا أحسن وأوضح.

وقوله: «توظيف السنن على نفسه» مراده بذلك أن يطبق توظيفها بمعنى تطبيق السنن على نفسه؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾. فـــإن: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] هذا ما يدل من قوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ بدل من الكاف الدالة على العموم، لكنها بدل بإعادة العامل، والبدل بإعادة العامل شائع، مثل: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ في قصة صالح: ﴿لِمَن آمَنَ مِنْهُمْ﴾. هذا بدل بإعادة حرف الجر، أي: بإعادة العامل.

٢٩- تعاهد المحفوظات: تعاهد علمك من وقت إلى آخر، فإن عدم التعاهد عنوان للعلم مهما كان.

☆ الشـــــرح ☆

«فإن عدم التعاهد عنوان الذهاب» يعني: دليل الذهاب، ولكن لو عبر بقوله: فإن عدم التعاهد سبب لذهاب العلم، لكان أولى، لقول النبي ﷺ: «تعاهدوا هذا القرآن فوالذي نفس محمد بيده لهو أشد تفلتًا من الإبل في عقلها»[(١)].

---

(١) جاء من حديث أبي موسى، أخرجه أحمد (١٩٦٨٥)، والبخاري برقم (٥٠٣٣)، ومسلم برقم (٧٩١).

فدلَّ ذلك على أن عدم التعاهد سبب للنسيان، وليس عنوان النسيان، وليس عنوانًا لذهاب العلم؛ لأن عنوان الشيء ما يكون بعد الشيء، وسبب الشيء يكون قبل الشيء، وعدم التعاهد سابق على عدم البقاء؛ أي: بقاء العلم، والخطب في هذا يسير؛ يعني: إذا كان المعنى مفهومًا، فالأمر يسير بالنسبة للألفاظ.

وعن ابن عمر - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ». رواه الشيخان، ومالك في «الموطأ»[(١)].

☆ الشـــــرح ☆

المعقلة وإن أطلقها ذهبت، على كل حال أنا لا أدري هل يجوز عقلها أم عقلها، فهي معقولة واضحة، وعقلها يرجع إلى لفظ الحديث، من لنا به؟

قال الحافظ ابن عبد البر[(٢)] [(٣)]- رحمه الله -: وفي هذا الحديث دليل على أن من لم يتعاهد علمه؛ ذهب عنه، أي من كان؛ لأن علمهم كان ذلك الوقت القرآن لا غير، إذا كان القرآن الميسر للذكر يذهب إن لم يتعاهد، فما ظنك بغيره من العلوم المعهودة؟! وخير العلوم ما ضبط أصله، واستذكر فروعه، وقاد إلى الله تعالى، ودلَّ على ما يرضاه.

---

(١) الموطأ ١/ ٢٠٢ (٤٧٤)، والبخاري برقم (٥٠٣١)، ومسلم برقم (٧٨٩).
وقال الحافظ في «الفتح» (٩/ ٩٧): وقوله: «المعقلة» بضم الميم وفتح العين المهملة وتشديد القاف؛ أي: المشدود بالعقال، وهو الحبل الذي يشد في ركبة البعير، شبه درس القرآن واستمرار تلاوته بربط البعير الذي يخشى منه الشراد، فما زال التعاهد موجودًا، فالحفظ موجود، كما أن البعير ما دام مشدودًا بالعقال فهو محفوظ، وخص الإبل بالذكر، لأنَّها أشد الحيوان الإنسي نفورًا، وفي تحصيلها بعد استكمال نفورها صعوبة.

(٢) هو الإمام يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري الأندلسي، القرطبي، المالكي حافظ المغرب، وشيخ علماء الأندلس، توفي سنة (٤٦٣هـ). انظر «وفيات الأعيان» (٧/ ٦٦)، و«تذكرة الحفاظ» للذهبي (٣/ ١٢٨- ١٣٠).

(٣) «التمهيد» (١٤/ ١٣٣، ١٣٤).

☆ الشـــــرح ☆

صحيح هذا الحديث فيه دليل على أن من لم يتعاهد علمه ذهب عنه، وهذا واضح، أن من لم يتعاهد حفظه نسيه، كما أن هذا في المعقول، هو أيضًا في المحسوس، فمن لم يتعاهد الشجرة بالماء؛ تموت أو تذبل، وكذلك من لم يتعاهد أغصانَها بالشكل تتكاثر الأغصان، ويحصد بعضها بعضًا، ولا تستقيم، فكذلك العلوم.

«خير العلوم ما ضبط أصله واستذكر فرعه». يعني: كأنَّهم يحثوا على القواعد والأصول، وأنا أحثكم دائمًا عليها، لكن الذي عنده علم في الأصول هذا هو العالم، من فاتته الأصول فاته الوصول.

وقال بعضهم[١]: كل عزٍّ لم يؤكد بعلم، فإلى ذل مصيره.

يعني: غالبًا، وإلا قد يكون الإنسان عزيزًا، بماله، وإنفاقه، ونفع الناس به، فيبقى عزيزًا إلى أن يموت، لكن في الغالب أن العزّ الذي لم يؤكد بالعلم أنه يزول.

٣٠- التفقه بتخريج الفروع على الأصول:

من وراء الفقه، التفقه ومعتمله الذي يعلق الأحكام بمداركها الشرعية، وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «نَضَّرَ اللَّهُ امْرَءًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَحَفِظَهَا وَوَعَاهَا فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ»[٢]

☆ الشـــــرح ☆

التفقه يعني: طلب الفقه، والفقه ليس العلم بل هو إدراك أسرار الشريعة، وكم من إنسان عنده علم كثير، لكنه ليس بفقيه؛ ولهذا حذر ابن مسعود - رضي الله عنه - من ذلك فقال: «كيف بكم إذا كثر قداؤكم، وقل فقهاؤكم»[٣].

الفقيه: هو العالم بأسرار الشريعة، وغاياتها، وحكمها، حتى يستطيع أن يرد الفروع

---

(١) «شرح الإحياء» (١/ ٣٩). (الشيخ بكر).

(٢) رواه أحمد برقم (٤١٥٧)، والترمذي (١٠/ ١٢٤)، وابن ماجه (١/ ٨٥) بسندٍ صحيحٍ، وهو حديث متواتر. (الشيخ بكر).

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧٨٩) بلفظ: «قليل فقهاؤه كثير خطباؤه».

الشاردة في الأصول الموروثة، ويتمكن من تطبيق الأشياء على أصولها، فيحصل له بذلك خير كثير قوله: «نضر الله امرءًا»، بمعنى حسنه، النضارة بمعنى الحسن، ومنه قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾[القيامة: ٢٢]، أي: حسنة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١] نضره يعني: حسنًا في وجوههم، وسرورًا في قلوبهم، فيجتمع لهم حسن الظاهر والباطن ووجهه قد أعطاه الله سبحانه وتعالى نضارة، لكن سرعان ما تزول، ومن الناس من يكون قلبه مسرورًا، لكن لم يعطه الله نضارة في الوجه، ومن الناس من يحصل له الأمران، السرور في القلب والنضارة في الوجه وبذلك تتم النعمة.

قال ابن خير[1] - رحمه الله تعالى - في فقه هذا الحديث:

وفيه بيان أن الفقه هو الاستنباط والاستدراك في معاني الكلام من طريق التفهم، في ضمنه بيان وجوب التفقه، والبحث على معاني الحديث، واستخراج المكنون من سرّه. اهـ. وللشيخين، شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن قيم الجوزية - رحمهما الله تعالى -، في ذلك القدح المعلى، ومن نظر في كتب هذين الإمامين، سلك به النظر إلى التفقه طريقًا مستقيمًا.

☆ الشـــــرح ☆

لا شك أن ما ذكره - وفقه الله - هو الصواب، أن الفقه[2]: هو استنباط الأحكام الشرعية من الأدلة، لكن لا ينبغي أن يقتصر على الحديث، بل نقول: من الأدلة في القرآن والسنة، ودلالات القرآن أقوم من دلالات السنة وأثبَت؛ لأنه لا يعتبر به عيب النقل بالمعنى، وأما السنة فإنها تنقل بالمعنى كما مرَّ علينا كثيرًا في «البخاري»، وفي «مسلم»، باختلاف الألفاظ من الناس الثقات مما يدل على أنهم كانوا ينقلونها بالمعنى، وعلى هذا فيقال بالبحث عن معاني القرآن والحديث.

ومن أحسن من رأيت في استخراج الأحكام من الآيات شيخنا -رحمه الله - عبد الرحمن بن سعدي، فإنه يستخرج أحيانًا من الآيات من الفقه ما لا تراه في كتاب آخر،

---

(١) في «فهرست». (ص٩)(الشيخ بكر).

(٢) الفقه لغةً: الفهم. «اللسان» (١٣/ ٥٢٢، ٥٢٣). وقال العلامة ابن القيم في «إعلام الموقعين (١/ ٢٤١): والفقه أخص من الفهم، وهو فهم مراد المتكلم من كلامه. وفي الاصطلاح: العلم بالأحكام الشرعية عن أدلتها التفصيلية بالاستدلال. انظر «الإحكام» للآمدي (١/ ٦).

وهذا الطريق - أعني: طريق استنباط الأحكام من القرآن والسنة - هو طريق الصحابة فكانوا لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل، ثم أشار الشيخ بكر إلى شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم - رحمهما الله - وبيان ما يتوصلان إليه من الأحكام الكثيرة من الأدلة القليلة، وقد أعطاهما الله - عزَّ وجلَّ - فَهمًا عجيبًا في القرآن والسنة، ونضرب مثلاً لهذا... أعني: التفقه - أن العلماء اتخذوا الحكم بأن أقل مدة الحمل ستة أشهر من قول الله - تبارك وتعالى -: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾. ومن قوله: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾. فإنَّ ثلاثين شهرًا كم؟ عامان وستة أشهر، فإذا كان حمله وفصاله ثلاثون شهرًا، وفي الآيات الأخرى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾، لزم أن يكون الحمل أقله ستة أشهر.

ومن مليح كلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - قوله في مجلس للتفقه[1]: أما بعد فقد كنا في مجلس التفقه في الدين، والنظر في مدارك الأحكام المشروعة تصويرًا، وتقريرًا، وتأصيلاً، وتفصيلاً، فوقع الكلام في... فأقول: لا حول ولا قوة إلا بالله إن بين يدي التفقه: (التفكر)[2]؛ فإن الله - سبحانه وتعالى - دعا عبده في غيرما آية من كتابه إلى التحريك بإطالة النظر العميق في «التفكر» في ملكوت السماوات والأرض، وإلى أن يتمعن المرءُ النظرَ في نفسه، وما حوله، فتحًا للقُوى العقلية على مصراعيها، وحتى يصل إلى تقوية الإيمان، وتعميق الأحكام، والانتصار العلمي: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وعليه، فإن التفقه أبعد مدى من «التفكر»، إذ هو حصيلته وإنتاجه، وإلا ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨] محجوز بالبرهان، محجوز عن التشهي والهوى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

☆ الشـــــرح ☆

إذًا نقول: المراتب أولاً: العلم، ثم الفهم، ثم التفقه لابدَّ من هذا، فمن لا علم عنده، كيف يتفكر، وكيف يعلم؟ وكيف يفقه؟ ومن عنده علم، ولكن ليس عنده فَهم، فكيف يتفكر؟ لا يستطيع، حتى ولو حاول أن يتفكر، وهو ممن لا يفهم، لا يمكن أن

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢١/ ٥٣٤). (الشيخ بكر).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (ص١٩٦-٣٢٤)، و«مدارج السالكين» (١/ ١٤٦)، و«التفسير الإسلامي للتاريخ» لعماد الدين خليل (ص٢١٠-٢١٥). (الشيخ بكر).

يتفكر، بعد ذلك بعد أن تفهم تتفكر، ما مدلول هذه الآية؟! ما مدلول هذا الحديث؟! وتتفكر أيضًا في أنواع الدلالة، وأنواع الدلالة ثلاث:

* دلالة المطابقة.
* دلالة تضمن.
* دلالة التزام.

فدلالة اللفظ على جميع معناه دلالة مطابقة، ودلالته على بعض معناه دلالة تضمن، ودلالته على لازم خارج هذه دلالة التزام، وهذا اللون الثالث من الدلالة هو الذي يختلف فيه الناس اختلافًا عظيمًا، إذ قد يلتزم بعض الناس من الدليل ما لا يلزم، وقد يفوته ما يلزمه، وبين ذلك تفاوت عظيم، فلابدَّ أن يعمل هذه الدلالات، حينئذٍ يصل إلى درجة التفقه واستنباط الأحكام من أدلتها، ويذكر أن الشافعي - رحمه الله - نزل ضيفًا على الإمام أحمد بن حنبل، وأحمد رحمه الله - تلميذ الشافعي -، وكان الإمام أحمد يثني على الشافعي عند أهله -، فنزل ذات ليلة عليه ضيفًا، فقدم له العشاء، فأكله كله، ورد الصحفة خالية، فتعجب أهل أحمد، كيف يأكل الطعام كله، والسنة أن الإنسان يأكل قليلا [كما قال ﷺ]: «حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»[(١)]، لكن الشافعي أكل كلَّ الطعام وحده، ثم إن الإمام أحمد انصرف إلى أهله ونام الشافعي، فلما كان في آخر الليل، قام يتهجد، ولم يطلب ماء يتوضأ به، أو لم يقم بتهجد، أظنه لم يقم بتهجد، ثم أذن الفجر، فخرج إلى الصلاة، ولم يطلب ماء للوضوء، هذه اثنتان.

أولاً: أنه لم يتوضأ، وهم يحسبونه أنه قد نام.

ثانيًا: لم يتهجد، وهو إمام من الأئمة، فلما أصبح قال أهل أحمد له: كيف تقول في الشافعي ما تقول، والرجل أكل الطعام، وملأ بطنه، ونام، وقام، ولم يتوضأ، قال: آتيكم بالخبر، فسأله: فقال: أما الطعام، فلا أجد أحل من طعام الإمام أحمد بن حنبل، فأردت أن أملأ بطني منه، والإنسان أحيانًا لا بأس أن يملأ بطنه، فأبو هريرة رضي الله عنه يقول له الرسول ﷺ: «اشرب من اللبن»[(٢)]، وهو يقول: «لا أجد له مساق»، امتلأ بطنه، وأما كوني لم أتهجد، فلأن التفكر في العلم أفضل من التهجد،

---

(١) رواه أحمد برقم (١٧١٨)، والترمذي برقم (٢٣٨)، وقال: حديث حسن. وابن ماجه برقم (٣٣٤٩). وانظر «الإرواء» برقم (٧/ ٤١ . ٤٣) برقم (١٩٨٢) «للألباني».

(٢) أخرجه أحمد برقم (٦٢٨)، والبخاري برقم (٦٤٥٢)، وفي الأطعمة برقم (٥٣٧٣)، والاستئذان برقم (٦٢٤٦)، والترمذي (٢/ ٧٨).

وأنا جعلت أتفكر في العلم، واستنبطت من قول رسول الله ﷺ: «يا عمير ما فعل النغير»[١] كذا وكذا فائدة، ما أدري مائة أو ألف، وأما كوني لم أتوضأ حيث خرجت إلى صلاة الفجر، فلا أحب أن أطلب ماء وأكلفكم، وأنا على وضوء من صلاة العشاء، فذكر ذلك لأهله، فقالوا: الآنَ. والمقصود من ذلك، التفكر والتدبر؛ لأن واحدًا منها إذا أتى بحديث يستنبط منه ما شاء الله من الفوائد، ويأتي إنسان آخر عنده في الاستنباط، فيستنبط منه مسائل كثيرة، وفضل الله يؤتيه من يشاء، فصار كم المراتب؟

فهيا أيها الطالب: تحل بالنظر، والتفكر، والفقه، والتفقه، لعلك أن تتجاوز من مرحلة الفقيه إلى فقيه النفس، كما يقول الفقهاء، وهو الذي يعلق الأحكام الشرعية بمداركها، أو فقيه البدن، كما في اصطلاح المحدثين[٢].

☆ الشـــــرح ☆

فيه فقه ثالث ظهر أخيرًا، وهو فقه الواقع، الذي علق عليه بعض الناس العلم، وقالوا: من لم يكن فقيهًا بالواقع، فليس بعالم، ونسوا أن النبي ﷺ قال: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين»، ثم غفلوا عن كون الإنسان يشتغل بفقه الواقع أن ذلك يشغله عن فقه الدين، بل ربما يشغله عن الاتجاه للتعبد الصحيح، عبادة الله وحده، وانصراف القلب إلى الله، والتفكر في آياته الكونية، والشرعية، والحقيقة أن انشغال الشباب بفقه الواقع صدّ لهم عن الفقه في دين الله؛ لأن القلب وعاء إذا امتلأ بشيء امتنع عن الآخر، لا يمكن أن يمتلئ بهذا وهذا. فاشتغال الإنسان بالفقه في الدين، وتحقيق العبادة والتوحيد والأداء خير له من البحث عن الواقع، وماذا فعل فلان، وماذا فعل فلان، ربما يتلقون فقه الواقع من روايات ضعيفة، أو موضوعة، في وسائل الإعلام، أو يبنون ما يظنونه فقه واقع على تقديرات، وتخمينات يقدرها الإنسان، ثم يقول: هذا فعل لهذا، ويعلل بتعليلات قد تكون بعيدة من الواقع، أو ينظر إلى أشياء

---

(١) أخرجه أحمد برقم (١٢٩١٤)، والبخاري برقم (٦١٢٩، ٦٢٠٣)، ومسلم برقم (٢١٥٠)، وأبو داود برقم (٤٩٦٩)، والترمذي برقم (٣٣٣)، وابن =ماجه برقم (٣٧٢٠) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) وانظر عن قولهم: «فقيه البدن». «معالم الإيمان» (٢/ ٣٣٦ . ٣٤٠)، و«الثقات» لابن حبان (٩/ ٢٤٢). (الشيخ بكر).

خطط لها الأعداء من قبل على واقع معين يغير الفقه، فقه النفس الذي هو صلاح في القلب بالعقيدة السليمة، ومحبة الخير للمسلمين، وما أشبه ذلك، هذا ينبني عليه أيضًا فقه البدن، معرفة هذا القول حرام، هذا حلال، هذا الفعل حرام، هذا حلال، وما أشبه ذلك، أما فقه الواقع، فالإنسان إذا احتاج إليه فلا شكّ أنه لابدّ أن يعرفه، وأما أن تُصرف الهمم كلها إلى فقه الواقع، واقعًا في الحقيقة غير واقع أحيانًا يكون غير واقع، أحيانًا يكون كذبًا، ودجلًا، وتقديرات وتخمينات وليست مبنية على أصل.

فأجل النظر عند الواردات بتخريج الفروع على الأصول وتمام العناية بالقواعد والضوابط.

☆ الشـــــرح ☆

معنى قوله: «أجل النظر عند الواردات بتخريج الفروع على الأصول»إذن لابد لطالب العلم من أصول يرجع إليها، والأصول الثلاثة، الأدلة من الكتاب والسنة اثنان، والضوابط والقواعد المأخوذة من الكتاب والسنة، هذا هو الثالث أيضًا، فابنِيها على الأصول، وتمام العناية بالقواعد والضوابط، وقد سبق ذكر ذلك، وإن من المهم أن يكون لدى الإنسان علم بالقواعد والضوابط، حتى ينزل عليه الجزئيات. والفرق بين القاعدة والضابط:أن الضابط يكون بمسائل محصورة معينة، والقاعدة أصل يتفرع عليه أشياء كثيرة، فالضابط.. أقل رتبة من القاعدة، كما يدل على ذلك اللفظ، الضابط يضبط الأشياء، ويجمعها في قالب واحد، والقاعدة أصل يؤسس عليه، أصل تفرع عنه الجزئيات.

واجمع النظر في فرع ما بين تتبعه، وإفراغه في قالب الشريعة العام من قواعدها وأصولها المطردة، كقواعد المصالح، ودفع الضرر، والمشقة، وجلب التيسير، وسد باب الحيل والذرائع.

☆ الشـــــرح ☆

هذا أيضًا مهم، وهو أيضًا عند أهل الحديث كذلك، يعني: يأتي مثلًا نص ظاهره الحكم بكذا، لكن إذا تأملت هذا النص، وجدته مخالفًا للقواعد العامة في الشريعة، فما موقفك؟ نقول: لابد أن نرجع إلى القواعد، القواعد التي هي الأصول، بل كالجبال ترسي بها الأرض، ويحكم على هذا بما تقتضيه الحال، وكذلك قال العلماء فيما لو خالف الإنسان

الثقة المقبول الثبت، من هو أرجح منه، فإن حديثه هذا، وإن كان من حيث النظر إلى مجرد الطريق، نحكم بصحته، نقول: هذا غير صحيح. لماذا؟ لأنه شاذ، والذي أوجب لكثير من المبتدئين في طلب العلم أن يسلكوا مسلكًا شاذًا، هو هذا، أعني عدم النظر إلى القواعد، والأصول الثابتة، وهذا أمر مهم؛ وذلك لأن الشريعة كل الشريعة إنما جاءت لجلب المصالح، وتحصيل المصالح الدينية والدنيوية، ولدرء المفاسد، أو تقليلها، سواء كانت المفاسد دينية أو دنيوية؛ ولهذا تجد أن الله - عزَّ وجلَّ - يقدم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، شرعًا وقدرًا، تنزل الأمطار على الأرض، وهذا الرجل قد تمَّ بنيانه قديمًا، هل يضرّه المطر أو لا؟... يضره، لكن لا عدوى، العبرة بالعموم، وهذا الرجل قد وجع زرعه، بمعنى قد انتهى من السقي، والمعروف أن الزرع إذا أصابه الماء، مطرًا كان أو سقيًا، بعد أن يودع، المعروف أنه يضره، لكن العبرة بالعموم، فهذه مسائل ينبغي لطالب العلم أن ينتبه لها؛ ولهذا قال الشيخ بكر - وفقه الله ورحمه أيضًا - قال: «أصولا مضطردة، كقواعد المصالح»، وهنا نقف لنبين أن بعض الأصوليين أتى بدليل خامس، وهو المصالح المرسلة، فقال الأدلة: الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس الصحيح، والمصالح المرسلة، وهذا غلط؛ لأن هذه المصالح التي يدعونها مصالح مرسلة، إن كان الشرع قد شهد لها بأنها مصالح، فهي من الشرع، داخلة في عموم كتاب، أو سنة، أو إجماع، أو قياس صحيح، وإن لم تكن فيها مصالح شرعية، فهي باطلة فاسدة الاعتبار، وحينئذٍ لا نؤصل أصلًا، دليلًا ندين الله به؛ لأن كونك تؤصل أصلًا يعني: معناه أنك تبني دينك على هذا الأصل، وعلى هذا فتنسخ، أو فيمسح ذكر المصالح المرسلة من الأدلة لماذا؟ لأننا نقول: إن شهد الشرع هذه المصلحة المرسلة، فهي ثابتة بالكتاب، والسنة، بعموماتها وقواعدها، وإن شهد ببطلانها، فهي باطلة؛ لأن أهل البدع بعضهم ركّب بدعته على هذا الدليل، قال: هذه من المصالح المرسلة، الإنسان يحيي قلبه، يحرك قلبه، بماذا ببدعة صوفية[1]، أو ما أشبه ذلك، وقالوا: نحن نطمئن الآن إذا أتينا بهذه الأفكار، وعلى هذه الصفة الإنسان يقول: لا إله إلا الله، وضرب الأرض حتى تتغير قدماه، يقول: كأن أحدًا يأخذني من الأرض، ولو ذكرت الله ذكرًا عاديًا... كل شيء بارد، إذ هذه مصلحة عظيمة تحرك

---

(١) الصوفية: نسبة إلى لبس الصوف - على القول الراجح - عرفوا بأدنى الأمر بالعبادة والزهد، ولم يكن هذا الاسم معروفًا في القرون الثلاثة الأولى، وانتهى المطاف ببعض فرقهم إلى الغلو في التطرف حتى خرجوا عن دائرة الإسلام والقول بمذهب الباطنية. من أقطاب غلاتهم: ابن العربي، والحلاج، وابن سبعين، وابن الفارض، وغيرهم. «الفتاوى» (١١/ ٥).

القلوب. ماذا نقول: إذا قلنا باعتبار المصالح المرسلة، كل واحد يدعي أن هذه مصلحة النزاع الذي أمر الله فيه بالردِّ إلى الكتاب والسنة، أصله أن كل واحد يرى أن ما هو عليه مصلحة، وربما يماري، ليكون قوله هو المقبول.

فالمهم أن قول الشيخ بكر: «كقواعد المصالح» مراده بذلك المصالح الشرعية، فإن كان هذا مرادك، فهو حقّ، وإن كان يشير إلى أن المصالح المرسلة، وهو بعيد لقوله بعد ذلك: «ودفع الضرر والمشقة»، إن كان يشير إلى المصالح المرسلة، فقد علمتم فساد جعلها دليلًا مستقلًّا، وقوله: «ودفع الضرر» أين نجد في القرآن والسنة، دفع الضرر، كثير كثير، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، وهذه الآية تعم قتل النفس مباشرة، بأن ينتحر الإنسان، أو يفعل ما يكون سببًا للهلاك؛ ولهذا استدل عمرو بن العاص رضي الله عنه بهذه الآية على التيمم، خوفًا من البرد، مع أن البرد، قد لا يميت الإنسان، لكن قد يكون سببًا لموته، استدل بها فأقره النبي ﷺ على ذلك وضحك[1]، إذًا هذا من القرآن، أيضًا قال الله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾ [المائدة: ٦]، الشاهد قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾، إلى أن قال: ﴿فَتَيَمَّمُواْ﴾، لماذا وهو مريض، يقدر يستعمل الماء، لكن لئلا يزداد مرضه، أو يتأخر برؤه، إذن هذا دفع مشقة أم دفع هلاك؟ دفع مشقة، قد لا يهلك المريض إذا استعمل الماء، لكن يشق عليه، كذلك أيضًا من دفع المشقة، أن النبي ﷺ رأى زحامًا في السفر، و[رأى] رجلًا ظلل عليه - [وأنتم] تعرفون الناس إذا حدث مثل هذا الحادث ماذا يفعلون؟! يتجمعون عليه فالناس زحام، ينظرون هذا الرجل المظلل عليه - فقال ﷺ: «ما هذا؟» فقالوا: صائم، قال: «ليس من البر الصيام في السفر»[2]، مع أن الرسول ﷺ يصوم وهو مسافر، وهل يفعل غير البر؟ لا، لكن إذا وصلت الحال إلى هذه المشقة، فإنه ليس من البر، وإذا انتفى أن يكون من البر، فهو إما من الإثم، أو من: «لا لك ولا عليك»، أليس كذلك؟ فانظر هل هو من الإثم، أم مما لا لك ولا عليك؟

شكي إلى الرسول ﷺ أن الناس عطاش، وقد شقّ عليهم الصيام، ولكنهم ينظرون ما تفعل، فدعا بماء بعد صلاة العصر، انتبه! يعني: الغروب قريب، بعد صلاة العصر،

---

(١) أخرجه أحمد برقم (١٧٧٣٩)، وأبو داود برقم (٣٣٤)، وصححه الألباني كما في «الإرواء» (١/ ١٨١، ١٨٢ برقم ١٥٤) في باب التيمم.

(٢) أخرجه البخاري برقم (١٩٤٦)،ومسلم برقم (١١١٥)، وأبو داود (٢٤٠٧)، والنسائي برقم (٢٢٥٧)، وابن ماجه (١٦٦٤) من حديث جابر وعبد الله بن عمر - رضي الله عنهما -.

ووضعه ﷺ على فخذه الشريفة، وجعل الناس ينظرون إليه، فأخذه وشربه، والناس ينظرون، ثم قيل له: إن بعض الناس قد صام. فقال: «أولئك العصاة، أولئك العصاة»[١].

هل ورد نهي أن يبقوا على صيامهم، نهي خاص؟ لا.. لكن العموم ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]. ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]. إذن الشرع يراعي قواعد المصالح، ودفع الضرر، ودفع المشقة، وجلب التيسير، الله أكبر، كل الإسلام يسر، لكن هل اليسر ما تيسر على كل شخص بعينه، أو باعتبار العموم؟ الثاني.. باعتبار العموم، ومع ذلك لو حدث للإنسان ما يقتضي التيسير، وجد الباب مفتوحًا: «صلّ قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب»[٢] إذن هذا تيسير، بل قال الرسول ﷺ: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، -كل الدين- وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ»[٣]، وكان إذا بعث البعوث يقول: «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»[٤].

فالحمد لله على هذا الدين الإسلامي، الدين يسر، وبناء على ذلك هل يعتمد الإنسان فعل العبادة على وجه يشق عليه، أو يفعلها على ما هو أيسر؟ أيهما أقرب إلى مقاصد الشريعة؟ الثاني؛ ولهذا لو أن رجلًا في البرد حانت صلاة الفجر، وعنده ماء أحدهما بارد، والثاني ساخن، فقال: أنا أريد أن أتوضأ بالماء البارد، وحتى أنال إسباغ الوضوء على المكاره.

وقال الثاني: أنا أريد أن أتوضأ بالماء الساخن، حتى أوافق مراد الله الشرعي حين قال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] أيهما أصوب؟ الثاني بالإجماع بلا شك هو الموافق للشريعة؛ لأن إسباغ الوضوء على المكاره[٥]...

---

(١) أخرجه مسلم (١١١٤)، والترمذي برقم (٧١٠)، والنسائي برقم (٢٢٦٣).

(٢) أخرجه البخاري برقم (١١١٥، ١١١٦)، وأبو داود برقم (٩٥١، ٩٥٢)، والترمذي برقم (٣٧١، ٣٧٢)، وقال: حديث عمران بن حصين حديث حسن صحيح.

(٣) أخرجه البخاري برقم (٣٩)، والنسائي برقم (٥٠٣٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أحمد برقم (١٢٣٣٣)، والبخاري برقم (٦٩)، ومسلم برقم (١٧٣٤)، والنسائي ٥/ ٣٨٣، ٣٨٤ برقم (٥٨٥٩) من «الكبرى» من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٥) الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَرْفَعُ اللهُ بِهِ الدَّرَجَاتِ، وَيُكَفِّرُ بِهِ الْخَطَايَا؟ إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ». رواه مسلم برقم (٢٥١)، والترمذي برقم (٥١، ٥٢) وقال: حديث صحيح.

لا يُرد منه أن يتقصد الإنسان ما يكره، المراد إذا لم يمكن وضوء إلا بمكروه توضأ، هذا معناه، وإلا لكان يقول: احجج البيت على قدميك، سر من أفغانستان إلى مكة على قدميك، فإن لم تستطع فعلى سيارة، مقربعة «عاطلة وقديمة»، تمشي قليلاً، وتقف كثيرًا، لماذا؟ لأنها أشق، فإن لم تستطع فعلى سيارة ماشية، فإن لم تستطع فعلى طائرة، هذا ليس بصحيح، أيهما أفضل، الطائرة؛ لأنها أسهل وأيسر، وأول ما خرجت الطائرات كنا نحدث ونحن صغار أول ما خرجت، قالوا: إن الحج على الطائرة ثُمن الحج، وعلى السيارة نصف الحج، نعم... العوام ما نقتدي بأقوالهم، الشاهد- على كل حال -أن جلب التيسير هو الموافق لروح الدين،من هنا نعلم أنه إذا اختلف عالمان في رأي، ولم يتبين لنا الأرجح من قولهما، لا من حيث الدليل، ولا من حيث الاستدلال، انتبه لم يتبين لنا أيهما أرجح؛ لا من حيث الدليل، ولا من حيث الاستدلال، ولا المستدل كلهم [من حيث] علماء ثقاة عندنا في علمهم، وأمانتهم، والأدلة ما هي واضحة، والاستدلال كذلك، لكن اختلف رأيهما، أحدهما أشدُّ من الثاني، فمن نتبع؟ الأيسر أم الأشدّ؟ الأيسر، وقيل: الأشد؛ لأنه أحوط، لكن في هذا القول نظر، لأننا نقول: ما هو الأحوط؟ هل هو الأشد على بني آدم؟ أو الأحوط ما كان أوفق للشرع؟ الثاني: ما كان أوفق للشرع، والأيسر هو الأوفق للشرع، كذلك سدّ باب الحيل، الآن نقف على سدِّ باب الحيل، وسدِّ الذرائع؛ لأن هذه تحتاج إلى تفصيل، وإلى معرفة أن هذه الأمة اتبعت سنن من كان قبلها، في مسألة الحيل، وأشد الناس حيلاً، ومكرًا من الطوائف اليهود، هم أشد الناس، فهذه الأمة فيهم من تشبه باليهود، وتحيلوا على محارم الله بأدنى الحيل.

فسدُّ باب الحيل أيضًا [موجودة في] الشريعة الإسلامية، شريعة الجد، والحزم وعدم التلاعب، وليس فيها شيء من الحيل أبدًا كلها صريحة، ولا يلجأ للحيل إلا الضعيف، ضعيف الهمة، ضعيف الإرادة، فتجده يتحيل على شرع الله عزَّ وجلَّ.

والحيلة :أصلها حوله من حال هذا في اللغة.

أما في الشرع والاصطلاح، فيقولون: هو التوصل إلى إسقاط واجب، أو انتهاك محرم بما ظاهره الإباحة، هذه الحيلة أن يتوصل إلى إسقاط واجب أو انتهاك محرم بما ظاهره الإباحة، فقال: ذلك رجل سافر في نهار رمضان قصده أن يفطر في رمضان ليس له قصد في السفر، لكن لأجل أن يفطر، ظاهر فعله أنه صحيح، أنه حلال، وليس فيه شيء لكنه أراد بذلك أن يتوصل إلى إسقاط واجب، وهو الصوم، فالشريعة الإسلامية لا تأتي بالحيل أبدًا.

رجل تزوج مطلقة صاحبًا له ثلاثًا؛ يعني: له صاحب طلق زوجته ثلاثًا، ورآه

محزونًا عليه، فذهب وتزوجها من أجل أن يحللها للزوج الأول الذي هو صاحبه، ليس له غرض في المرأة، وإنما يريد أن يجامعها ليلة ثم يدعها، نقول: هذا تحليل على محرم؛ لأن هذه المرأة لا تحل لزوجها الأول الذي طلقها ثلاثًا، لكن أراد أن يحللها له، نقول هذا ممنوع في الشرع... مسدود الباب؛ ولهذا جاء في الحديث وصفه، بما هو أهل له حين سمي «التيس المستعار» من رجل تيسه، لأجل أن يبيت عند أهل هذه الأغنام، وينزل على كل واحدة، وفي الصبح يأخذه صاحبه، فالمحلل هو تيس مستعار[1] طيب... من باب الحيل أيضًا ما يفعله كثير من الناس اليوم في مسائل الربا، رجل باع سلعة بستة آلاف إلى سنة ثم اشتراها نقدًا بثمانية آلاف، هذه ماذا؟ جعله على أن يعطي ثمانية آلاف ويأخذ... كم؟! عشرة لأن هذا العقد صوري؛ ولهذا قال فيه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه دارهم بدارهم، دخلت بينهم جريرة يعني قطعة قماش. سد الذرائع، الذرائع جمع ذريعة، وهي الوسيلة والفرق بينها وبين الحيلة أن فاعل الحيلة قد قصد التحيل، وفاعل الذريعة لم يقصد لكن فعله يكون ذريعة إلى الشر والفساد، فقال ذلك بعض النساء اليوم صارت تلبس النقاب، تغطي وجهها بالنقاب، لكن هل إن المرأة بقيت على هذا بمعنى أنها لم تخرق في سفر وجهها إلى مقدار العين؟ لا، إذن تمنع النقاب؛ لأنه ذريعة يتوصل به إلى شيء محرم، لكن التي فعلت النقاب لا تريد أن تصل إلى المحرم إنما أرادت أن تفعل شيئًا مباحًا؛ لأن النقاب مباح كان معروفًا، في عهد الرسول ﷺ لكن إذا كان ذريعة إلى محرم، كان ممنوعًا، والمهم أن تعلم الفرق بين الحيل وبين الذرائع، الحيل يقصد بها الوقوع في المحرم، وإسقاط واجب، لكن تشمي في الإنسان حتى يقع في المحرم، أو في ترك الواجب، طيب إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة، وجب على الإنسان أن يترك البيع والشراء، ويذهب إلى المسجد فإذا أتى الإنسان بسلعة قبيل الأذان، ووضعها في السوق، وقال: من يشتري، من يشتري، نقول: يمنع، ما دام هذا يكون ذريعة إلى تشابك الناس به حتى ولو أذن، كما هو معروف الآن، إذا جاءت السلعة كبيرة وواسعة، اشتغل الناس بها، حتى ولو أذن في آذانهم تركوه.

وهكذا هديت لرشدك أبدًا، فإن هذا يسعفك في مواطن المضايق، وعليك بالتفقه كما أسلفت في نصوص الشرع، والتبصر فيما يحف أحوال التشريع، والتأمل في

---

(١) أخرجه ابن =ماجه برقم (١٩٣٦)، والحديث حسنه الألباني كما في «صحيح سنن ابن ماجه» برقم (١٥٧٢).

مقاصد الشريعة، فإن خلا فهمك من هذا، أو نبا سمعك، فإن وقتك ضائع، وإن اسم الجهل عليك لواقع، وهذه الخلة بالذات هي التي تعطيك التمييز الدقيق، والمعيار الصحيح، لمدى التحصيل والقدرة على التخريج.

فالفقيه: هو من تعرض له النازلة لا نص فيها، فيقتبس لها حكمًا.

والبلاغي: ليس من يذكر لك أقسامها، وتفريعاتها، لكنه من تسري بصيرته البلاغية في كتاب الله مثلًا، فيخرج من مكنون علومه وجوهها، وإن كتب أو خطب، نظم لك عِقدها، وهكذا في العلوم كافة.

☆ الشـــــرح ☆

هذا صحيح، الفقيه حقيقة هو الذي يستنبط الأحكام من النصوص، من يقرأ النصوص، فهو كنسخة من كتاب، لكن من يشقق النصوص، وينزل الوقائع عليها هو الفقيه، كالبلاغي مثلًا: هل البلاغي من يبين لك البلاغة، وأقسامها، والفصاحة وأقسامها أو من يكون كلامه بليغًا، الثاني، من يكون كلامه بليغًا فهو البلاغي، حتى وإن كان لا يعرف من قواعد البلاغة شيئًا، النحو الآن قواعد وإعراب، من الناس من يكون عالمًا بقواعد النحو علمًا واسعًا، لكن إذا قرأ قال: قام زيدًا، والرجلان، والمسلمين، وهو عارف بالنحو، هل يقال هذا نحوي أو عربي؟ لا..؛ ولهذا ينبغي للإنسان أن يطبق المعلومات على الواقع؛ يعني بمعنى: أنه إذا نزلت نازلة يعرف كيف يتصرف في النصوص حتى يعرف الحكم، وإذا علم شيئًا يمرن نفسه، على أن يطبق هذا في حياته القولية والفعلية.

٣١- اللجوء إلى الله تعالى في الطلب والتحصيل:

لا تفزع إذا لم يفتح الله عليك في علم من العلوم، فقد تعاصت بعض العلوم على بعض الأعلام المشاهير، ومنهم من صرح بذلك، كما يعلم من تراجمهم، ومنهم: الأصمعي في علم العروض، والرهاوي المحدث في الخط، وابن الصلاح في المنطق، وابن مسلم النحوي في علم التصريف، والسيوطي في الحساب، وأبو عبيدة، ومحمد بن عبد الرزاق الأنصاري، وأبو الحسن القطيعي، وأبو زكريا يحيي بن زياد الفراء، وأبو حامد الغزالي، خمستهم لم يفتح لهم في النحو.

☆ الشـــــرح ☆

لكن هذا لا يضر، ما داموا يطلبون الفقه، لا يضرنا ألا نتكلم بكلام فصيح أو لا

نعرف النحو، لكن لا شك أن الإنسان إذا تكلم بكلام مطابق للغة العربية، فإن كلامه يكون مقبولاً، ومحبوبًا للنفس، والإنسان الذي يعرف العربية، أكره ما يسمع أن يتكلم الإنسان ويلحن، يكره هذا الكلام من الرجل كراهة عظيمة، وهذا واقع؛ ولهذا نرى بعض الناس إذا قرأ عليك، إن سمعته يهذر ويمذر، ويقول: الذي مشى وهو إذا قال: قام زيدًا، قلت: زيد ما هو، قال: زيد فاعل، بالمعنى أم بالإعراب؟

بالمعنى يعرف أنه قام زيد، يعني معناه أن زيد حصل فيه القيام، لكن مسألة التشكيل لا يهمه، لكن لا تقل: قام زيد، ربما يضرُّه كلامه؛ ولهذا بعض الأحيان نسمع لحنًا لا يحتمل من بعض القارئين، ولكننا نسكت؛ لأن دفع المفسدة العليا بالدنيا أمر مطلوب، لكن على الإنسان أن يصبر ويتحمل، ثم من يلجأ إلى الله عزَّ وجلَّ بعد أن يبذل الجهد فيما يستطيع لإدراك العلوم، يستعن بالله عزَّ وجلَّ، ويلجأ إلى الله، والله تعالى يجيب له، ومرَّ علينا في... الأدباء أن أحد أئمة النحو- إن لم يكن الكسائي[1] فهو مثله، طلب النحو، وعجز عن إدراكه في يوم من الأيام، رأى نملة تحاول أن تصعد بطعام لها من الجدار، فكلما صعدت سقطت، ثم تأخذ هذا الطعام وتمشي تصعد، ثم تَسقط، ثم تصعد ثم تسقط، وربما كل مرة تقول: أرفع قليلاً حتى اقتحمت العقبة، وتجاوزت؛ فقال: إذا كانت هذه تحاول وتفشل عدة مرات، ولكنها استمرت حتى انتهى أمرها، فلأفعلن فرجع إلى علم النحو، وتعلمه حتى صار من أئمة النحو، فأنت حاول، لا تقل: والله عجزت هذه المرة، أعجز في المرة الثانية، لكن في المرة الثانية يقرب لك الأمر.

فيا أيها الطالب: ضاعف الرغبة، وافزع إلى الله في الدعاء، واللجوء إليه، والانكسار بين يديه، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله تعالى- كثيرًا ما يقول في دعائه إذا استعصى عليه تفسير آية من كتاب الله تعالى: اللهم يا معلم آدم، وإبراهيم علمني، ويا مفهم سليمان فهمني، فيجد الفتح في ذلك[2]

☆ الشـــــرح ☆

---

(١) هو شيخ القراء والعربية، الإمام أبو الحسن علي بن حمزة بن عبدالله الأسدي، مولاهم، الكوفي، وُلد سنة (١١٩هـ)، =ومات سنة (١٨٩هـ). انظر «سير أعلام النبلاء» (٩/ ٣١٨-٣٢٢).

(٢) «فتاوي ابن تيمية» (٤/ ٣٨). (الشيخ بكر).

وهذا من باب التوسل بأفعال الله، والمتوسل بأفعال الله جائز؛ لأن التوسل جائز وممنوع، وإن شئت فقل: مشروع، وغير مشروع، التوسل إلى الله بأسمائه، وصفاته، وأفعاله من المشروع، وكذلك التوسل إلى الله تعالى بشكوى الحال عليه، أي يذكر الحال الإنسان، وأنه مفتقر إلى الله عزَّ وجلَّ، والتوسل إلى الله بالإيمان به، والتوسل إلى الله تعالى بالعمل الصالح، والتوسل إلى الله تعالى بدعاء من ترجى إجابة دعائه، كل هذا مشروع، هذه سبعة أنواع، والتوسل كلها مشروعة، التوسل إلى الله تعالى بأسمائه هذا هو الأصل؛ لأنك تدعو إلى الله، تقول: اللهم صلِّ على محمد، وعلى آل محمد، «كما» صليت، فالكاف، هنا ليست للتشبيه، بل هي للتعليل؛ يعني: كما أنك فعلت ذلك فيمن سبق، فافعله بمحمد وآله، ونحن إذا جعلنا «الكاف» [في كما] للتعليل سلمنا من إيراد يورده بعض العلماء، يقول: كيف نقول: صل على محمد، «كما» صليت على إبراهيم. والقاعدة المعروفة في التشبيه أن المشبه به، أعلى؟ فذهبوا إلى عدة أجوبة، والصواب أن نقول: الكاف [في كما] ليست للتشبيه، ولكنها للتعليل، كقوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٩]، يعني، لأنه علمكم ما لم تكونوا تعلمون، والتوسل إلى الله تعالى بصفاته كثير، مثل: «اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك»[١]، والتوسل إلى الله تعالى بالإيمان به أيضًا كثير: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، والتوسل إلى الله تعالى بالعمل الصالح أيضًا كثير في القرآن والسنة؛ ومنه: قصة أصحاب الغار الثلاثة، الذين انطبق عليهم، فتوسل كل واحد منهم بصالح عمله[٢]، والتوسل إلى الله تعالى بحال العبد، قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، والتوسل إلى الله تعالى بدعاء من ترجى إجابته كثير، فالصحابة يأتون الرسول ﷺ يسألونه أن يدعو لهم فيدعو الله لهم.

٣٢- الأمانة العلمية:

يجب على طالب العلم فائق التحلي بالأمانة العلمية، في الطلب والتحمل، والعمل، والبلاغة، والأداء؛ فإن[٣] فلاح الأمة في صلاح أعمالها، وصلاح أعمالها في صحة علومها وصحة علومها في أن يكون رجالها أمناء، فيما يروون أو يصفون، فمن تحدث

---

(١) أخرجه أحمد برقم (١٤٧٠٧)، والبخاري برقم (١١٦٢، ٦٣٨٢، و٧٣٩٠)، وأبو داود برقم (١٥٣٨)، والترمذي برقم (٣٨)، وابن ماجه برقم (١٣٨٣).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٢٢١٥، ٢٢٣٢، ٢٢٧٢، ٥٩٧٤)، ومسلم برقم (٢٧٤٣).

(٣) «رسائل الإصلاح» (١/ ١٣). (الشيخ بكر)

في العلم بغير أمانة، فقد مسَّ العلم بقرحةٍ، ووضع في سبيل فلاح الأمة حجر عثرة.

☆ الشـــــرح ☆

هذا أيضًا من أهم ما يكون في طالب العلم، أن يكون أمينًا، أمينًا في علمه، فيكون أمينًا في نقله، أمينًا في وصفه، إذا وصف الحال، فليكن أمينًا، لا يزيد ولا ينقص، وكثير من الناس ينقصه هذه الأمانة، فتجده يصف من الأحوال ما يناسب رأيه، ويحذف الباقي، وينقل أيضًا من أقوال أهل العلم، بل ومن النصوص ما يوافق رأيه، ويحذف الباقي، فيكون كالذي قال:

ما قال ربك ويل للأولى سكروا بل قال ربك ويل للمصلين

نعوذ بالله، وحذف ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٥]، وهذا لا شك أنه حجرة عثرة، وأنه تدليس للعلم؛ لأن الواجب النقل بأمانة، والوصف بأمانة، وما يضرك إذا كان الدليل على خلاف ما تقول، فإنه يجب عليك أن تتبع الدليل وأن تنقله للأمة، حتى يكون على بصيرة من الأمر، ومثل هذه الحال أعني عدم الأمانة، يوجب أن يكون الإنسان فاسقًا لا يوثق له الخبر، ولا يقبل له نقل؛ لأنه مدلِّس.

لا تخلو الطوائف المنتمية إلى العلوم من أشخاص لا يطلبون العلم ليتحلوا بأسنى فضيلة، أو لينفعوا الناس بما عرفوا من حكمة، وأمثال هؤلاء لا تجد الأمانة في نفوسهم مستقرًا، فلا يتحرجون أن يرووا ما لم يسمعوا، أو يصفوا ما لم يعلموا.

☆ الشـــــرح ☆

نعم يقول: «لا تخلو الطوائف المنتمية إلى العلوم من أشخاص لا يطلبون العلم ليتحلوا بأسنى فضيلة» لأن طلب العلم يؤدي إلى التحلي بأسنى فضيلة، أي: بأعلاها وأبينها وأظهرها، أو لينفعوا الناس بما عرفوا من حكمة، وإنما يطلبون العلم من أجل نصر آرائهم، فتجده يبحث في بطون الكتب؛ ليجد شيئًا يقوي به رأيه، سواء كان خطأ أم صوابًا، وهذا- والعياذ بالله ـ هو المراء والجدال المنهي عنه، أما من يقلب بطون الكتب من أجل أن يعرف الحق فيصل إليه، فلا شك أن هذا هو الأمين المنصف[1].

وهذا ما كان يدعو جهابذة أهل العلم إلى نقد الرجال.

---

(١) انظر «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٧٨، ٧٩)، و«الفتاوى السعدية» (٤٥٢، ٤٥٣).

☆ الشـــــرح ☆

يعني هذا هو الذي يدعو جهابذة أهل العلم إلى نقد الرجال، ليبينوا أحوالهم، وأنه رجل يتبع الهوى، ولا يريد الهدى.

وتمييز من يسرف في القول ممن يصوغه على قدر ما يعلم، حتى أصبح طلاب العلم على بصيرة من قيمة ما يقرءونه، فلا تخفى عليهم منزلته من القطع بصدقه أو كذبه، أو رجحان أحدهما على الآخر، أو احتمالهما على سواء.

٣٣- الصدق[١]:

صدق اللهجة: عنوان الوقار، وشرف النفس، ونقاء السريرة، وسمو الهمة، ورجحان العقل، ورسول المودة مع الخلق، وسعادة الجماعة، وصيانة الديانة؛ ولهذا كان فرض عينٍ، فيا خيبة من فرط فيه، ومن فعل فقد مسَّ نفسه وعلمه بأذى.

☆ الشـــــرح ☆

الصدق هنا قريب من مسألة الأمانة العلمية؛ لأن الأمانة العلمية تكون بالصدق، والصدق كما قال: «عنوان الوقار، وشرف النفس، وطريق النجدة»، وإذا كان الكذب [لا] ينجي، فإن الصدق أنجى وأنجى، وإن كان الكذب أيضًا لا يدوم؛ لأنه سرعان ما يتبين الكذب، ويفتضح الكاذب. لكن الصدق عاقبته حميدة، فإذا أردت أن تعرف ذلك، فانظر في قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع - رضي الله عنهم - تخلفوا عنها بغير عذر، ولما رجع النبي ﷺ من الغزوة، جاء إليه المعذرون من المنافقين، وغيرهم يعتذرون، وكان نبينا ﷺ طيب السَّريرة، يقبل ظواهرهم، ويكل سرائرهم إلى الله، فيستغفر لهم ويعذرهم، لكن من في السماء لا يعذرهم- الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥، ٩٦]، أما كعب وصاحباه، فصدقوا، فكان من شأنهما أن

---

(١) «فتاوي شيخ الإسلام» (٢٠/ ٧٤، ٨٥). (الشيخ بكر).

النبي ﷺ هجرهما، وأمر الصحابة أن يهجروهم، فصار الصحابة لا يكلمونهم، حتى لو سلموا لا يردون السلام عليهم، ولو كانوا لا يردون كلامهم، حتى إن كعب بن مالك تسلق السور على أبي قتادة، وهو ابن عمه، ومن أحب الناس إليه، وسلم عليه، فلم يرد عليه السلام، فقال: أنشدك الله هل تعلم أني أحب الله ورسوله، فلم يجبه إلا بقول: الله أعلم. ومع ذلك صبروا على هذه المحنة العظيمة، وبعد تمام الأربعين ليلة، أرسل النبي ﷺ إليهم أن يعتزلوا نساءهم، فقال كعب للرسول: أنطلقها يا رسول الله أم لا؟ قال: لا أدري، الرسول النبي ﷺ قال: «اعتزلها» فقال لها كعب: الحقي بأهلك، بقي بلا زوجة مع أنه شاب، وكان رضي الله عنه أشب القوم الثلاثة، يأتي في الأسواق، ويطوف في الأسواق، ويأتي النبي ﷺ ويسلم عليه يقول: فلا أدري أحرك شفتيه برد السلام أم لا، مع أنه النبي ﷺ أحسن الناس خلقًا، لكن النبي ﷺ إذا قام كعب يصلي أتبعه بصره، فإذا تفطن له أعرض، وهذا يدل على أن الرسول النبي ﷺ يحبه، لكن يريد أن يحصل ما أراد الله أن يكون من هذه المحنة العظيمة، والعاقبة الحميدة، وبعد خمسين ليلة أنزل الله - جل وعلا- التوبة عليهم وانفرج الكرب، وحصل بذلك [لهم] الرفعة في الدنيا والآخرة، حتى صارت قصتهم تتلى في الصلوات الفريضة والنافلة، وعلى المنابر، وفي المحاريب، وفي كل مكان، يقصد الناس لله تعالى بها، فالمهم عليك بالصدق... عليك به، ولو كنت تتخيل أنه يضرُّك، فاصبر، فإن الصدق يهدي إلى البرِّ، وإن البرَّ يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق، حتى يكتب عند الله صديقًا[1]، وإني لأذكر رجلًا من عامة الناس اشتهر بالصدق، فكان الناس ينقلون أخباره في المجالس على التلذذ بها أكثر مما ينقلون أخبار العلماء اللذين في وقتهم؛ لأن الصدق يرفع الله به من اتصف به، لا سيما في مسائل العلم، فلا تقل إن الله حرم هذا وهو لم يحرمه، ولا أوجب هذا وهو لم يوجبه، ولا قال كذا وهو لم يقله، بل تجنب هذا كله، وكان الإمام أحمد[2]- رحمه الله - وغيره من الأئمة لا يصرحون بالتحريم والوجوب إلا ما جاءت النصوص بالتصريح به، وإلا فتجد الإمام أحمد- رحمه الله - يقول: أكره كذا، لا يعجبني، لا

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٣٦٣٨)، والبخاري برقم (٦٠٩٤)، ومسلم برقم (٢٦٠٧)، وأبو داود برقم (٤٩٨٩)، والترمذي برقم (١٩٧١).

(٢) هو أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني، الجبل الأشم، والطود الشامخ، مناقبه عديدة، له تصانيف كثيرة، وُلد سنة (١٦٤هـ)، وتوفي سنة (٢٤١)، انظر: «سير أعلام النبلاء» (١١/ ١٧٧- ٣٥٨).

تفعل وما أشبه ذلك، [أما] فيما ورد به النص فهو يستطيع أن يصرح بالتحريم، فيقول: الميتة حرام مثلاً، ويقول: الصلاة فريضة، ونحو ذلك.

ويقول الشيخ بكر- وفقه الله -: «ولهذا كان فرض عين لا فرض كفاية» فلا يقول: أنا أكذب. والثاني يصدق، لا يجوز أن تكذب، استثنى بعض العلماء ما جاء عن طريق التورية، ولكن لا حاجة للاستثناء؛ لأن التورية صدق باعتبار ما في نفس القائل، فمثلاً قول إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - للملك الجبار: هذه أختي هو صدق بالنسبة لما في قلب إبراهيم هي أخته في الدين، ولكن ذاك فَهم أنها أخته في النسب، وهذا ليس بكذب، إن كان إبراهيم تعذر، أو اعتذر عن الشفاعة؛ لأنه كذب ثلاث كذبات، لكنها كذب من وجه، وهو التلبيس على الظالم المعتدي، ولكنها صدق بحسب اعتبار ما في نفس القائل، استثنى بعض العلماء أيضًا ما جاء به الحديث أنه لا يجوز الكذب إلا في ثلاث: في الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث المرأة زوجها، وحديث الرجل زوجته، وحديثها إياه[١].

ولكن بعض العلماء يقول: إن هذا محمول على التورية[٢]، وليس على الحقيقة، فالحرب خُدعة[٣]، بأن تُري عدوك بأنك تريد الجهة الأخرى، أو تري عدوك أن عندك جنودًا كثيرة، بحيث تلاصق، أو تجعل الجيش يتلاصق، كما فعل القعقاع بن عمر في إحدى غزواته، قال: قسم الجيش، وقال: يأتي بعضكم من الجهة هذه وبعضكم من الجهة هذه، وبعضكم من الجهة هذه، وهم عدد قليل، لكن [العدو] يظنه عددًا كثيرًا، كذلك الإصلاح بين الناس، لا تكذب لكن تأول، لكن إذا قال لك: فلان يقول في كذا كذا، وأنت تريد الإصلاح بينهما، تقول: لا لم يقل فيك شيئًا، غير ما قلت [لك]: تنوي لم يقل فيك شيئًا غير ما قلت، وبذلك تسلم من الكذب، كذلك حديث المرأة زوجها، وحديث الرجل زوجته، يعني: على سبيل التورية، لا التصريح، وهذا القول ليس ببعيد؛ لأن الكذب كما قال الرسول ﷺ يهدي إلى الفجور[٤]، لا يهدي

---

(١) لحديث أم كلثوم - رضي الله عنها - الذي رواه البخاري برقم (٢٦٩٢)، ومسلم برقم (٢٦٠٥)، وأبو داود برقم (٤٩٢١، ٤٩٢٢)، والترمذي برقم (١٩٣٨)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٤١٨)، و(٢٧٥٧)، ومسلم برقم (٢٧٦٩).

(٣) =أخرجه البخاري برقم (٣٠٣٠)، ومسلم برقم (١٧٣٩).

(٤) أخرجه أحمد برقم (٣٦٣٨)، والبخاري برقم (٥٧٤٣)، وأبو داود برقم (٤٩٨٩)، والترمذي برقم (١٩٧١) من حديث عبد الله بن مسعود.

إلى الخير، ثم إن الإنسان، إذا اعتاد هذا ولا سيما مع الزوجة، صار كلما حدث بحديث، وبحثت عنه وجدته كذبًا، لن تثق فيه بعد ذلك، وربما يكون سببًا لبغضها إياه وللفراق بالتالي. وعند العامة يستثنى كذبًا أكثر من ذلك يقولون: إن الكذب الحرام ما كان فيه أكل للمال بالباطل، وأما ما سواه فهو كذب أبيض، ويقسمون الكذب إلى قسمين: قسم أبيض، وقسم أسود، والأبيض حلال والأسود حرام، والأسود ما فيه أكل للمال بالباطل والأبيض ما ليس كذلك، لكن هذا دين العامة، وليس شريعة محمد النبي ﷺ وهذا الذي قالوه من التقسيم كذب، الكذب حرام، وليس فيه أبيض وأسود، كله أسود.

قال الأوزاعي[١] - رحمه الله - : تعلم الصدق قبل أن تتعلم العلم، وقال وكيع[٢] - رحمه الله تعالى: هذه الصفة لا يرتفع فيها إلا صادق[٣]، فتعلم- رحمك الله - الصدق قبل أن تتعلم العلم، والصدق: إلقاء الكلام على وجه مطابق للواقع والاعتقاد، فالصدق من طريق واحد، أما نقيضه الكذب فضروب وألوان، ومسالك وأودية يجمعها ثلاثة[٤]:

١- كذب التملق: وهو ما يخالف الواقع والاعتقاد، كمن يتملق لمن يعرفه فاسقًا أو مبتدعًا فيصفه، بالاستقامة.

٢- وكذب المنافق: وهو ما يخالف الاعتقاد ويطابق الواقع كالمنافق ينطق بما يقوله أهل السنة والهداية.

☆ الشـــــرح ☆

الصدق لا شك أنه سبيل واحد، والكذب سبل وهكذا الهداية والضلالة، والهداية

---

(١) هو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد أبو عمر الأوزاعي الإمام الكبير، وُلد في حياة الصحابة سنة (٨٨هـ)، أريد على القضاء مرات فامتنع، وهو أول من دوَّن العلم بالشام، كان كثير الحديث والعلم والفقه، بل كان حجة زمانه، توفي سنة (١٥٧هـ). انظر «الطبقات الكبرى» (٧/ ٤٨٨).

(٢) هو وكيع بن الجراح بن مليح بن عدي أبو سفيان الرؤاسي الكوفي، إمام وقته، وحافظة زمانه، صاحب زهد وعبادة، له مصنفات عديدة منها: «أخبار القضاة». انظر «الطبقات الكبرى» (٦/ ٣٩٤).

(٣) «الجامع» (١/ ٣٠٤)، (٢/ ٧). (الشيخ بكر)

(٤) «رسائل الإصلاح» (١/ ٩٥- ١٠٥). (الشيخ بكر)

سبيلها واحد، والضلالة سُبل متفرقة، يقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وأما قوله تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٦]، فقد جمعها باعتبار تنوع الشرائع، صلاة، زكاة، صيام، حج، برّ، صلة باعتبار، وما أشبه ذلك فجمعها باعتبارها وتوحيدها باعتبار آخر، أما الكذب فطرق وألوان متعددة، وبتعدد أغراضه فهو يجمعها [في] ثلاثة يقول:

١- كذب متملق: وهو ما يخالف الواقع والاعتقاد كمن يتملق لمن يعرفه فاسقًا، أو مبتدعًا فيصفه بالاستقامة، هذا كذب، تعرف أن هذا الرجل فاسقًا، ثم تأتي إليه تقول: ما شاء الله أنت رجل مستقيم المنهج، وأنت تعرف أنه من أفسق عباد الله!! هذا يقال له: تملق، وهذا أكثر ما يكون عند الملوك والأمراء، تجد الرجل يتملق إلى الأمير أو الملك ويقول: أنت فيك كذا، لا أنت فيك كذا، وأنت فيك كذا، وهذا لا شك من النفاق، والعياذ بالله؛ لأن الواجب أن يوصف الإنسان بما يستحق، هذا يخالف الواقع، ويخالف الاعتقاد؛ لأن المتملق يعتقد خلاف ما يقول لهذا الرجل الذي تملق عنده، ويخالف الواقع؛ لأن الواقع ليس كما قال.

٢- كذب المنافق: وهو ما يخالف الاعتقاد، ويطابق الواقع، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ١]، كونه رسول الله ﷺ مطابق للواقع، نعم ما هو الدليل؟ قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ لكن شهادتهم هذه مخالفة لاعتقادهم؛ لأن الله قال: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾، أي في قولهم: نشهد إنك لرسوله. لا في قولهم: إنه رسول الله. هذا يخالف الاعتقاد، ويطابق الواقع، وهذا باعتبار قول المنافقين في غيره، إما باعتبار قوله في نفسه، فهذا إذا قال عن نفسه إنه صالح، فهذا يخالف الاعتقاد، ويخالف الواقع ظاهرًا.

٣-وكذب الغبي: بما يخالف الواقع، ويطابق الاعتقاد، كمن يعتقد صلاح صوفي، مبتدع فيصفه بالولاية.

☆ الشـــــرح ☆

وأما الثالث فكذب الغبي بما يخالف الواقع ويطابق الاعتقاد، هذا أيضًا هو أن يقول للشيء ما ليس فيه لغبائه، فيقول مثلاً عن أهل الكلام: إنَّهم هم العقلاء، وأنَّهم أهل العلم والحكمة. أما أهل السنة، فهم أغبياء؛ لأنَّهم يفوضون النصوص، ولا

يعرفون لها معنى. نقول: هذا غبي؛ ولهذا عبَّر شيخ الإسلام- رحمه الله - في كتابه «الفتوى الحموية» عبر بهذا الوصف، فقال: قال بعض الأغبياء: طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم. لأن هذا غبي. كذلك من يشاهد الصوفية، وتصنعهم وعبادتهم، فيقول: إنهم أهل الصلاح، وأهل الولاية. نقول: أنت غبي، لا تعرف حقيقتهم، فلا تحكم عليهم بالصلاح، حتى تعرف الحقيقة، وإلا كنت غبيًّا؛ فهذا كاذب، فهل يعذر بكذبه؟ نقول: إن فرط في البحث، فإنه لا يعذر، وإن كان هذا منتهى علمه، فإنه يعذر؛ لأنه جاهل.

أمَّا الأول وهو المتملق، والثاني وهو المنافق، فلا عذر لهم في ذلك.

ولا تفتح لنفسك سابلة المعاريض في غير ما حصره الشرع.

فيا طالب العلم، احذر أن تمرق من الصدق إلى المعاريض فالكذب، وأسوأ مرامي هذا المروق «الكذب في العلم»، لداء منافسة الأقران، وطيران السمعة في الآفاق.

☆ الشـــــرح ☆

هذه المسألة مهمة جدًّا، وهو أن بعض الناس يتسرع في الرقي إلى العلو، بما يلفقه ويوهم الناس أن عنده علمًا واسعًا، وأنه عبقري، وأنه في كل فنٍّ له يد، وما أشبه ذلك، إنه غلط عظيم، فهو مع جمعه الكذب في الخيانة للناس، وإيهامهم خلاف الواقع، وفيه أيضًا التغرير بالنفس، أن الإنسان يزهو بنفسه، حتى يحجمها، ويكبرها، وهي دون ذلك... وكم من إنسان هلك بمثل هذا سواء في طريق العلم أو في طريق العبادة، ولكن سرعان ما ينكشف، سرعان ما يرد عليه شيء يعجز عنه، وحينئذٍ إما أن يقول ما هو معلوم كذبه فينكشف، وإما أن يتذبذب ويفتضح أمره، ولهذا كان مما قاله عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إن من العلم أن تقول لما لا تعلم: لا أعلم»[1].

وذكر بعضهم أن قول القائل: لا أعلم هي نصف العلم، ولكن هي في الواقع العلم كله.. والإنسان إذا عرف بالتحري، وأنه [يقول] لما لا يعلم: لا أعلم. وثق الناس بقوله، أما إذا كان كاذبًا يجيب عن كل ما يسأل، حتى لو كان لا يعرف شيئًا مما سئل عنه أجاب به، فإنه سوف ينكشف أمره، وسوف لا يثق الناس بقوله وإن كان حقًّا، لكن ما الذي يحمل الإنسان على أن يقول مثل هذا؟ يحمله طلب العلوّ أن يكون

(١) أخرجه أحمد برقم (٤١٠٤)، والبخاري (٤٤٩٦- ٤٥٤٥).

فائقًا لأقرانه أو طلب الطيش والشهرة، بحيث يقال: فلان العلامة الفهامة، البحر الزاخر، وما أشبه ذلك، وهذه لا شك أنها من مكائد الشيطان، فالواجب عليك أن تعرف قدر نفسك، وألا تنزلها فوق منزلتها، ثم إن القول في مسائل الدين أخطر ما يكون؛ لأنه قول على الله بلا علم، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

بعض الناس إذا عثر على خطئه، قال: سبحان الله الذي لا ينسى، لكن أنت لا تنسى بل أنت جاهل من الأصل، لم يطرأ عليك النسيان، فالواجب أن الإنسان يعرف نفسه.

ومن تطلع إلى سمعه فوق منزلته، فليعلم أن في المرصاد رجالاً يحملون بصائر نافذة، وأقلامًا ناقدة، فيزنون السمعة بالأثر، فتتم تعريتك عن ثلاثة معان:

١- فقد الثقة من القلوب. ٢- ذهاب علمك وانحسار القبول.

٣- ألَّا تُصدّق، ولو صَدَقت.

وبالجملة فمن يحترف زخرف القول، فهو أخو الساحر، ولا يفلح الساحر حيث أتى[١] والله أعلم.

☆ الشـــــرح ☆

ما قاله صحيح، الإنسان إذا تطلع إلى السمعة فقط، ونزل فوق منزلته، فسرعان ما ينكشف، ثم إن النية في طلب العلم، يجب فيها الإخلاص لله عزَّ وجلَّ، ولهذا ورد عن النبي ﷺ: «من طلب علمًا[٢]، وهو ممَّن يبتغي به وجه الله سبحانه وتعالى لا يريد إلا أن ينال عرضًا من الدنيا، لم يرح رائحة الجنة، وإن من طلب العلم ليماري به السفهاء، أو يجاري به العلماء، فليتبوأ مقعده من النار»[٣]، فالمسألة خطيرة، ولا سيما

---

(١) المرجع قبله. (الشيخ بكر).

(٢) أخرجه أحمد برقم (٨٤٥٧)، وأبو داود (٣٦٦٤)، وابن ماجه برقم (٢٥٢)، وصححه الألباني في «اقتضاء العلم» (١٠٢) و«صحيح الجامع» (٨١٥٦) عن أبي هريرة - رضي الله عنه -.

(٣) أخرجه أحمد (١٤١٣)، والبخاري برقم (١٠٧)، وأبو داود برقم (٣٦٥)، وابن ماجه برقم (٣٦) من حديث عبد الله بن الزبير عن أبيه، وأخرجه أحمد برقم (١٤٢٥٥)، وابن ماجه (١/ ٢٠، ٢١) من حديث جابر.

العلوم الشرعية، وذكر ثلاث مضار.

أولاً: فقد الثقة من القلوب... متى تفقد؟! الجواب إذا تبيَّن أنه قال عن جهل، [فإنهم] لا يثقون به، وينصرفون إلى غيره.

الثاني: ذهاب علمك، وانحسار القبول؛ لأنه يقبله مثلاً غيره، فإنهم إذا فقدوا الثقة انحسروا إلى خمسة أو أقل.

والثالث: ألاَّ تُصدق ولو صَدَقت، حتى لو حدثتهم بحديث يعرفونه.. قالوا: هذا رمية من غير رام، وهو لا يعرف.

فالحاصل: أن الإنسان يجب أن يعرف قدر نفسه، وأن يحترم العلم، وألاَّ يجعله وسيلة للرقي الخادع.

٣٤- جنة طالب العلم:

جنة طالب العلم: «لا أدري». ويهتك حجابه الاستنكاف منه، وقوله: يقال... وعليه، فإن كان نصف العلم: «لا أدري». فنصف الجهل: «يقال». و«أظن»[١]

☆ الشـــــرح ☆

هذا صحيح، هذا تتميم لما قبله، أن الإنسان يجب عليه إذا لم يعلم أن يقول: لا أعلم ولا يضره هذا، بل يزيده ثقة بقوله، وأما قوله: «نصف الجهل أظن أو يقال». هذا صحيح، بعض العامة تسأله، تقول: هذا حرام أم حلال، فيقول: أظنه أنه حرام. هذا أيضًا نصف الجهل في الواقع، ولكن هل أثق بقول عامي: أظن كذا، لا... لا يجوز؛ ولهذا كم من أناس أفتاهم العوام بفتاوى خاطئة، ولا سيما في أيام الحج- سبحان الله العظيم- يكثر العلماء، تجد كل عمود خيمة تحته عالمان... كل واحد يفتي... حتى إنه قيل لي:.. إن واحدًا من الناس.. قال: إن الذي يطوف في السطح، أو في الدور الثاني يكفيه، عن سبعة أشواط، ثلاثة أشواط ونصف، لماذا؟ لاتساع الدائرة، وكأنه قاس الأشواط بالخطوات.

وعلى قياس قوله: إن الذي يطوف في أطراف الصحن، يكفيه خمسة؛ لأنه ليس كالذي عند الكعبة، الذي عند الكعبة أقل... إلى أن يقال: مشقة هذا الذي عند الكعبة تقابل كثرة خطى هذا فيمتنع القياس، على كل حال.. أنا أقول: إنه لا يجوز الاعتماد على فتوى العامة أبدًا... لا تستفتي إلا إنسانًا تثق به في علمه وأمانته.

---

(١) «التعالم» (ص ٣٦). (الشيخ بكر).

٣٥- المحافظة على رأس مالك «ساعات عمرك»:

الوقت الوقت للتحصيل، فكيف حلف عمل لا حلف بطالة وبطر، وحلس معمل لا حلس تله وسمر، فالحفظ على الوقت، بالجد، والاجتهاد، وملازمة الطلب، مثافنة الأشياخ، والاشتغال بالعلم قراءة، ومطالعة، وتدبرًا، وحفظًا، وبحثًا، لا سيما في أوقات شرخ الشباب، ومقتبل العمر، ومعدن العافية، فاغتنم هذه الفرصة الغالية؛ لتنال رتب العلم العالية، فإنها وقت جمع القلب، واجتماع الفكر؛ لقلة الشواغل والصوارف عن التزامات الحياة، والترؤس، ولخفة الظهر والعيال.

☆ الشـــــرح ☆

ولهذا قال عمر رضي الله عنه: «تفقهوا قبل أن تُسَوَّدوا»، وفي لفظ: قبل أن تَسُودوا[1].

لأن الإنسان إذا ساد في قومه كثرت مشاغله، وكثرت أفكاره، وتفرقت وتمزقت عزائمه، بينما يعزم على شيء إذ بحاجة نزلت به أشد إلحاحًا مما عزم عليه، فيتفرق؛ ولهذا اجتهد ما دمت في زمن الإمهال، واتبع واعمل، وابحث، واجعل بطون الكتب هي مرئياتك، حتى تعتاد على هذا، واعلم أنك إذا اعتدت على هذا- أي على الجد والاجتهاد- صار طبيعة لك، بحيث لو أنك كسلت يومًا من الأيام، فإنك تستنكر هذا وتجده فراغًا، انظر الآن أنتم على أبواب الامتحان، إذا انتهت الامتحانات تجد الإنسان يجد فراغًا، وما سيعمل، فإذا عودت نفسك الاجتهاد والجد، أخذت عليه، وليكن بحثك مركزًا، الأهم فالأهم، حتى يكون لك مَلَكَةً، تستطيع أن تخرج المسائل على القواعد، والفروع على الأصول.

ما للمعيل وللعوالي إنما يسعى إليهن الفريد الفاره

☆ الشـــــرح ☆

المعيل: كثير العيال، والعوالي جمع عالية؛ يعني: المنازل العالية، إنما يسعى إليهن الفريد الفارد المتفرغ لكن إذا كثر العيال، وكثرت المشاغل، ألهتك؛ لأن الإنسان

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٣٦٦) برقم (٥٠٨، ٥٠٩)، والدارمي في «المسند» (١/ ٧٩)، وأبو خيثمة في «العلم» (٩).

بشر، والطاقة محدودة، فما دمت متفرغًا فلتكن متفردًا، ولا تظن أننا نريد بهذا أو أن المؤلف يريد بهذا ألا نطلب العيال، والنكاح... أبدًا... بل إن النكاح قد يكون من أسباب الراحة، إذا وفق الإنسان فيه، ويسرت له امرأة صالحة.

وإياك وتأمير التسويف على نفسك، فلا تسوف لنفسك، بعد الفراغ من كذا، وبعد «التقاعد» من العلم هذا... وهكذا، بل البدار قبل أن يصدق عليك قول أبي الطحان القيني:

حنتني حانيات الدهر حتى ... كأني خاتل أدنو لصيد
قصير الخطو يحسب من رآني ... ولست مقيدًا أني بقيد

☆ الشـــــرح ☆

خاتل أدنو لصيد: الرجل يكسر ظهره كأنه راكب يمشي ببطء على الأرض يخشى أن الطير يحس به فيطير.

ولست مقيدًا أني بقيد: وهذا صحيح، لأن الله - عز وجل - قال في كتابه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

والإنسان في حال شبابه يظن أنه لن يتعب، ولن يسأم، ولن يمل، لكن إذا كبر، فكما قال زكريا: ﴿رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤]، لابد أن يتعب.. لابد أن يمل، فكون الإنسان ينتهز الفرصة، هذا أمر لابد منه.

وقال أسامة بن منقذ:

مع الثمانين عاث الضعف في جسدي ... وساءني ضعف رجلي واضطراب يدي
إذا كتبت فخطي خط مضطرب ... كخط مرتعش الكفين مرتعد
فاعجب لضعف يدي عن حملها قلمًا ... من بعد حمل القنا في لبة الأسد
فقل لمن يتمنى طول مدته ... هذي عواقب طول العمر والمُدد

فإن أعملت البدار، فهذا شاهد منك على أنك تحمل «كبر الهمة في العلم».

☆ الشـــــرح ☆

هذه كلها أبيات... أبيات حكمة... إن الإنسان مآله إلى هذا، يقول: مع الثمانين، أي بلغ الثمانين سنة، عاث الضعف في جسدي، أي: انتشر وشاع، اليد، والرجل، الظهر، الصدر، القلب، الرأس.

قد ساءني ضعف رجلي، واضطراب يدي.. الرجل ما تحمل الإنسان؛ ولهذا يحتاج إلى عصا، تكون رجلاه بدل الاثنتين ثلاثة، وساءني ضعف رجلي واضطراب يدي،

إذا كتبت فخطي خط مضطرب كخط مرتعش الكفين مرتعد

تجد الإنسان مثلاً كهذا؛ لأنه ضعف مرة، وهذا مشاهد في كبار السن، تجده يصل إلى هذا الحدّ، إذا كتب ما يستطيع أن يكتب حتى لو أمسك يده اليمنى باليسرى فاليدان كلتاهما ترتعش لا يستفيد، كخط مرتعش الكفين مرتعد، فاعجب لضعف يدي عن حملها قلمًا، والقلم ثقيل أم خفيف؟ خفيف. «من بعد حمل القنا في لبة الأسد» القَنا: الرمح الذي يرمى به، «في لبة الأسد» وهو أثقل من القلم بكثير.

فقل لمن يتمنى طول مدته هذي عواقب طول العمر والمدد

نعم هذه [هي] العاقبة ولهذا قال الشاعر:

لا طيب للعيش ما دمت منغصة لذاته بذكر الموت والهَرَم

لكن المؤمن الحمد لله ما دام عقله باقيًا وقلبه ثابتًا فإنه وإن بلغ هذا المبلغ من العجز البدني فالقلب حاضر يستطيع أن يستغل وقته بذكر الله عزَّ وجلَّ ورجاءه والتفكر في آياته، وغير ذلك؛ لأن هذا لا عجز عن فعله إلا الغفلة، والغفلة شيء مشكل، على كل حال، فالمؤلف- وفقه الله - يدعونا إلى انتهاز الفرصة وألَّا نضيع الأوقات، واعلم أنك إذا اعتدت إضاعة الوقت فسوف تعجز فيما بعد عن الحرص عليه، وعن الانتفاع به؛ لأنك تكون اعتدت الكسل. فإن قال قائل: أليس لنفسك عليك حقًّا؟ فالجواب: بلى لنفسك عليك حق، ونحن لا نقول: إذا تعبت أو مللت استمر... نقول: استرح، حتى الإنسان الذي يصلي إذا أتاه النعاس [فهو] مأمور بأن يدع الصلاة وينام، لكن نقول: ما دمت نشيطًا فاحرص؛ لأن هناك فرق بين العجز وبين الكسل:

الكسل: ضعف في الإرادة. والعجز: ضعف في البدن، وضعف البدن لا حيلة فيه، لكن الإرادة هي التي يستطيع الإنسان أن يعود نفسه على الهمة العالية.

٣٦- إجمام النفس:

خذ من وقتك سويعات تجم بِها نفسك في رياض العلم مِن كتب المحاضرات «الثقافة العامة»، فإن القلوب يروح عنها ساعة وساعة.

وفي المأثور عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: أجموا هذه القلوب، وابتغوا لها طرائف الحكمة، فإنها تمل كما تمَل الأبدان[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله تعالى- في حكمة النهي عن التطوع في مطلق الأوقات[٢]:

بل في النهي عن بعض الأوقات مصالح أُخرَ من إجمام النفس بعض الأوقات، ومن ثقل العبادة، كما يجم بالنوم وغيره؛ ولهذا قال معاذ: إني لأحتسب نومتي، كما أحتسب قومتي...

وقال[٣]: بل قد قيل: إن من جملة حكمة النهي عن التطوع المطلق في بعض الأوقات، إجمام النفوس في وقت النهي؛ لتنشط للصلاة، فإنها تنبسط إلى ما كانت ممنوعة، وتنشط للصلاة بعد الراحة. والله أعلم.

☆ الشـــــرح ☆

وهنا يجب أن نعلم أن إجمام النفس، وإعطائها شيئًا من الراحة حتى تنشط في المستقبل، وحتى تستريح بعض الراحة، مما سبق أن هذا من الأمور الشرعية التي دلَّ عليها قول النبي ﷺ: «إن لنفسك عليك حقًا، ولربك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، ولزوجتك عليك حقًا». يعني:- الزائد- «فأعط كل ذي حق حقه»[٤]. وهذا الحديث هو الميزان الحقيقي، الذي تطمئن إليه النفس، لا ما روي عن علي، ولا غيره، فلو أن المؤلف استدل بهذا الحديث؛ لكان أبين، وأظهر، والنفس إذا جعلتها دائمًا في جد لابد أن تمل وتسأم، وأما ما قيل: إن من جملة حكمة النهي عن التطوع المطلق في بعض الأوقات، فهذا من جملة الحكمة، وليس هو الحكمة، بل الحكمة الحقيقية ما ذكره النبي ﷺ: «إن الشمس إذا طلعت، فإنها تطلع بين قرني شيطان،

---

(١) «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (١/ ٤٣٣) رقم (٦٥٩). (الشيخ بكر).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ١٨٧). (الشيخ بكر).

(٣) «=مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٢١٧). (الشيخ بكر).

(٤) أخرجه البخاري برقم (١٩٦٨، ٧٦١٣٩).

وحينئذ يسجد لها الكفار، وكذلك إذا غربت يسجدون لها»[(١)]، فهم يسجدون لها استقبالا، ويسجدون لها وداعًا، أما وقت الزوال، فإن الحكمة فيه أنه الوقت الذي تُسَّجر فيه جهنم، فيلحق النفس من التعب في الحر، لا سيما في أيام الصيف، ما ينهي أن يصلي الإنسان فيه، وليس هذا القيل معارضًا، للحديث، لكنه من جملة الحكمة. والله أعلم.

ولهذا كانت العطل الأسبوعية للطلاب منتشرة منذ أمد بعيد، وكان الأغلب فيها، يوم الجمعة، وعصر الخميس، وعند بعضهم يوم الثلاثاء، ويوم الاثنين، وفي عيدي الفطر والأضحى من يوم إلى ثلاثة أيام، وهكذا...

☆ الشـــــرح ☆

صحيح... العطل الأسبوعية منتشرة من زمان، لكن بعضهم يقتصر على الجمعة فقط، وبعضهم يضيف إلى الجمعة يوم الخميس، وبعضهم يجعل الجمعة ونصف الأسبوع، وكان شيخنا عبد الرحمن بن سعدي - رحمه الله - يفعل هذا، تكون العطلة يوم الجمعة، ويوم الثلاثاء، الذي هو وسط الأسبوع لأجل ألَّا يتوالى يومان كلاهما عطلة، ولئلا يَملَّ الإنسان، وهذا يرجع على كل حال إلى أحوال الناس، والأحوال تختلف، فيجعل من العطل ما يناسب.

ونجد ذلك في كتب آداب التعليم، وفي السير، ومنه على سبيل المثال «آداب المعلمين» لسحنون، و«الرسالة المفصلة» للقابسي ص (١٣٥- ١٣٧)، و«الشقائق النعمانية» ص (٢٠)، وعنه في «أبجد العلوم» (١/ ١٩٥، ١٩٦)، وكتاب «أليس هذا الصبح بقريب» للطاهر بن عاشور، وفتاوى رشيد رضا» (١٢١٢)، و«معجم البلدان» (٣/ ١٠٢)، و«فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (٢٥/ ٣١٨- ٣٢٠، ٣٢٩).

٣٧- قراءة التصحيح والضبط:

احرص على قراءة التصحيح والضبط على شيخ متقن، لتأمن من التحريف والتصحيف، والغلط والوهم.

وإذا استقرأت تراجم العلماء، وبخاصة الحفاظ منهم، تجد عددًا غير قليل ممن جرد المطولات في مجالس أو أيام قراءة ضبط على شيخ متقن.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٨٢، ٥٨٣)، ومسلم برقم (٨٣٣)، والنسائي في «الكبرى» (٢/ ٢٢٤) برقم (١٥٥٧).

☆ الشـــــرح ☆

وهذه الفقرة من أهم الفقرات، وهو إتقان العلم وضبطه، ومحاولة الرسوخ في القلب؛ لأن ذلك هو العلم، ولابد أن يكون على شيخ متقن، أما الشيخ المتشيخ...، فإياك إياك، فقد يضرّك ضررًا كثيرًا، والإتقان يكون في من يحسنه، قد نجد رجلًا متقنًا في الفرائض، مثلًا غير متقن في أحكام الصلاة، ونجد رجلًا متقنًا في علوم العربية، غير عارف بالعلوم الشرعية وآخر بالعكس، نجد من كل عالم ما يكون متقنًا فيه، ما لم يتضمن ضررًا، مثل أن نجد رجلًا متقنًا في علوم العربية، لكنه منحرف في عقيدته وسلوكه.

فهذا الحافظ ابن حجر- رحمه الله تعالى- قرأ «صحيح البخاري» في عشرة مجالس، كل مجلس عشر ساعات.

☆ الشـــــرح ☆

كم يكون من ساعة؟ مائة ساعة، نحن نظن مائة يوم، أو أكثر، الله المستعان، لكن على كل حال هو قراءة فقط، يعني: تسميعًا دون الشرح والتأمل.

وصحيح مسلم في أربعة مجالس في نحو يومين، وشيء من بكرة النهار إلى الظهر.

☆ الشـــــرح ☆

طيب الآن أيهما أكثر؟! هذا عشرة مجالس، وهذا أربعة مجالس، ما هذه المشكلة الآن، هذا هو محل إشكال، يعني سيكون خُمُسَين «صحيح مسلم» بالنسبة لـ«البخاري» كم؟

خمسان، وهذا أقول: فيه نظر.

وانتهى ذلك في يوم عرفة، وكان يوم الجمعة سنة ٨١٣هـ، وقرأ «سنن ابن ماجة» في أربعة مجالس، و«معجم الطبراني الصغير» في مجلس واحد، بين صلاتي الظهر والعصر.

وشيخه الفيروزآبادي قرأ في دمشق «صحيح مسلم» على شيخه ابن جهبل قراءة ضبط في ثلاثة أيام.

وللخطيب البغدادي والمؤتمن الساجي، وابن الأبار، وغيرهم في ذلك، عجائب وغرائب يطول ذكرها، وانظرها في «السير» للذهبي (١٨/ ٢٧٧، ٢٧٩، ١٩/ ٣١٠، ٢١/ ٢٥٣)، و«طبقات الشافعية» للسبكي (٤/ ٣٠)، و«الجواهر والدرر» للسخاوي (١/ ١٠٣- ١٠٥)، و«فتح المغيث» (٢/ ٤٦)، و«شذرات الذهب» (٨/ ٢٠٦، ١٢١)، و«خلاصة الأثر» (١/ ٧٢، ٧٣)، و«فهرس الفهارس» للكتاني، و«تاج العروس» (١/ ٤٥، ٤٦). فلا تنس حظَّك من هذا.

☆ الشـــــرح ☆

الظاهر ما لنا حظٌّ أبدًا... والله المستعان.

٣٨- جرد المطولات:

الجرد للمطولات من أهم المهمات، لتعدد المعارف، وتوسيع المدارك، واستخراج مكنونها من الفوائد، والخبر في مظان الأبحاث والمسائل، ومعرفة طرائق المصنفين في تآليفهم، واصطلاحهم فيها.

وقد كان السالفون يكتبون عند وقوفهم: «بلغ» حتى لا يفوته شيء عند المعاودة، لاسيما مع طول الزمن.

☆ الشـــــرح ☆

هذه فيها نظر- يعني: جرد المطولات- قد يكون فيه مصلحة للطالب، وقد يكون فيه مضرة، فإذا كان الطالب مبتدئًا، فإن جرد المطولات له هلكة كرجلٍ لا يحسن السباحة يرمي نفسه في البحر، وإن كان عند الإنسان علم، ولكنه أراد أنْ يسرد هذه المطولات، من أجل أن يستفيد يكسب فوق علمه الذي عنده، فهذا قد يكون حسنًا، فهذه الجملة، أو هذه الفقرة تحتاج إلى تفصيل، لو أن رجلاً بدأ بالعلم، قلنا له: هيا اذهب راجع، ويراجع كذا، وعددت له من الكتب الموسعة.

فأنت معناه أنك أهلكته، رميته في بحر لُجيٍّ يغشاه موجٌ من فوقه موج، أما الإنسان الذي أعطاه الله علمًا، وأراد أن يتبحر أو يتوسع، فهنا نقول: عليك بالمطولات، وقد ذكر لي بعض الإخوة أنه لم يتجاوز «الروض المربع» في مراجعاته

في الفقه، ومع ذلك كان يطلق عليه مفتي الديار النجدية، وله حواش على «الروض المربع»، وهو لم يتجاوزه، لكنه يكرره، ويتأمله، منطوقًا ومفهومًا، وإيماء، وإشارة، أما كتابة «بلغ» فهذا طيب، إنك إذا راجعت كتابًا يكتب عند المنتهى «بلغ»، لتستفيد فائدتين: الأولى: ألا تنسى ما قرأت؛ لأن الإنسان ربما ينسى، فلا يدري هل بلغ هذه الصفحة أو لا، وربما يفوته بعض الصفحات إذا ظنَّ أنه قد تقدم في المطالعة. والفائدة الثانية: أن يعلم الآتي بعدك الذي يقرأ هذا الكتاب أنك قد أحصيته وأكملته، فيثق به أكثر.

٣٩- حسن السؤال:

التزام آداب المباحثة، من حسن السؤال، فالاستماع، فصحَّة الفهم للجواب، وإياك إذا حصل الجواب أن تقول: لكن الشيخ فلان قال لي كذا، أو قال كذا، فإن هذا وهن في الأدب، وضرب لأهل العلم بعضهم ببعض، فاحذر هذا.

وإن كنت لابد فاعلًا، فكن واضحًا في السؤال، وقل: ما رأيك في الفتوى بكذا ولا تسم أحدًا.

☆ الشـــــرح ☆

صحيح هذا من أهم ما يكون من آداب طالب العلم:

الأول: أن يكون عنده حسن سؤال، حسن إلقاء، مثل أن يقول: أحسن الله إليك، ما يقول: في كذا؟ وإن لم تقل هذه العبارة، فليكن قوله رقيقًا بأدب.

الثاني: حسن الاستماع، أما أن تقول: يا شيخ أحسن الله إليك ما تقول: في كذا وكذا، ثم تلتفت إلى زميلك، فتقول له: ما تقول اليوم... يصلح هذا أم لا يصلح لماذا؟ ما استمعت، لابد أن تستمع.

الثالث: صحة الفهم للجواب، وهذا أيضًا يكون عند بعض الطلبة، تجده إذا سأله، وأجيب يستحي أن يقول: ما فهمت، ويقول: دعه يمشي إلى أن نلتقي بالشيخ مرة ثانية، أو ما هو لازم، لست ممن لم يفقه من العلم إلا هذه المسألة، والذي ينبغي لطالب العلم أن يقول: ما فهمت لكن بأدب.

هذه ثلاثة أشياء:

أولاً: حسن السؤال؛ أي: حسن إلقائه، صفته، وكيفيته.

والثاني: حسن الاستماع حيث يفهم المجيب أنك تستمع إليه.

والثالث: صحة الفهم، بعد هذا يجيء بعض الناس، ويقول: بعدما تم الجواب، وهو يستمع، ويقول: لكن قال الشيخ الفلاني: كذا وكذا، في وسط الحلقة، هذا من الأدب أم من سوء الأدب؟ هذا من سوء الأدب؛ لأن معنى هذا أنك لم تقتنع بجوابه، ومعنى هذا إثارة البلبلة بين العلماء.

لكن إن كان ولابد أن يقول: فإن قال قائل، ثم يورد ما أجاب به الشيخ الفلاني؛ لأن أحدًا لا يفهم أنه إذا قال: إن قال قائل أنه أراد بذلك جواب شيخ آخر، ولهذا يقول: «لكن إن كنت لابد فاعلاً، فقل: «ما رأيك في الفتوى بكذا؟ وهذا أيضًا ما هو حسن، أحسن منه أن تقول :فإن قال قائل، لكن إذا قلت :ما رأيك في الفتوى بكذا وهي خلاف ما أفتاك به، فيعني أنك تريد أن تعارض فتواه بفتوى أخرى، لكنها هي أحسن من قولك، قال الشيخ الفلاني: كذا، فعندنا آخر المراتب.

المرتبة الأولى: أسوؤها أن يقول: بعد أن يجيبه.. يقول: قال الشيخ الفلاني: كذا وكذا.

ولاسيما إن كان الشيخ الفلاني أقبل عند الناس قولاً من هذا الذي أجاب؛ لأن هذا تحطيم للمجيب تمامًا.

الثاني: أن يقول: ما رأيك في الفتوى بكذا وكذا؛ لأن هذا يشعر بأن هذا السائل قد استفتى وأفتي بخلاف ما أفتاه به هذا العالم.

الثالث: وهو أحسنها أن يقول: فإن قال قائل: كذا وكذا؛ لأن هذا لا يفهم منه أحد أنه جواب مسئول، بل هو إيراد بإشكال على الطالب، وهذا خير ما يكون، وأيضًا ينبغي ألاَّ يكون عندنا علم بأن هذه الفتوى مشهورة؛ لأنه إذا كان عندنا علم بأن هذه الفتوى مشهورة التي أوردها الإنسان بصورة الإشكال، صار كالتصريح بأن فلانًا خالف، مثلاً إذا سأله عن وجوب الوضوء من لحم الإبل، فإن قال قائل: أحتج بحديث جابر حيث قال لرسول الله ﷺ: أتوضأ من لحوم الإبل؟ قال: «نعم». فتوضأ من لحوم الإبل[1]. وكان مشهورًا عند الناس أن هناك قولاً ما هو؟ الاعتراض على هذا [الجواب] الذي [أجيب عنه بالسؤال للنبي ﷺ فعملوا به]، وهذا أيضًا ينبغي ملاحظته، إذا كنت تعرف أن هذا القول مشهور لا تورده، ولا بصيغة الإشكال. بعد سؤال سائل.

أنت الآن بين يدي معلم، لست بين يدي إي إنسان، فلذلك لا تجابه بهذا ربما

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٣٦٠)، وابن حبان (١١٢٤) من حديث جابر بن سمرة، أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ أتوضأ من لحوم الإبل قال: نعم... الحديث.

يكون عنده من العمل أكثر مما عند الذي أجاب أولا؛ ولهذا قلنا: نقول: كمال الأدب أن تقول: فإن قال قائل، وقيدت ذلك فيما ذكرت، ألا يكون هذا القول مشهورًا، فيكون المراد بإيراده المعارضة، والحمد لله إذا كان عنده إشكال، فليبحث مع شيخه في مكان آخر، ويزول عنه الإشكال.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى[١]: وقيل: إذا جلست إلى عالم، فسل تفقهًا لا تعنتًا.

☆ الشـــــرح ☆

نحن الآن فيها... في مضمون السؤال، أنه ينبغي حسن السؤال، والثاني الاستماع، والثالث الفهم. التفقه واضح؟ يعني طلب الفقه، التعنت يعني طلب الإعنات، يعني المشقة على المسئول؛ لأن بعض الناس قد يكون عنده علم، لكن لا يريد التفقه، إنما يسأل العالم من أجل الإعنات عليه والمشقة وإظهار عجزه، وما أشبه ذلك من المقاصد السيئة.

وقال أيضًا: وللعلم ست مراتب: أولها: حسن السؤال، الثانية: حسن الإنصات والاستماع، الثالثة حسن الفهم، الرابعة: الحفظ، الخامسة: التعليم، السادسة: وهي ثمرة العمل به ومراعاة حدوده. اهـ. ثم أخذ في بيانها ببحث مهم.

☆ الشـــــرح ☆

ترتيبها على هذا الوجه لا شك أنه مناسب، حسن السؤال إذا دعت الحاجة إلى السؤال، أما إذا لم تدع الحاجة إلى السؤال، فلا تكثر السؤال؛ لأنه لا ينبغي للإنسان أن يسأل إلا إذا احتاج هو إلى السؤال، أو ظن أن غيره يحتاج إلى السؤال، قد يكون مثلًا درس، فهو فاهم للدرس، ولكن فيه مسائل صعبة تحتاج إلى بيانها لبقية الطلبة، فيتساءل من أجل حاجة غيره، والسائل من أجل حاجة غيره، كالمعلم؛ لأن النبي ﷺ لما جاءه جبريل عليه السلام، وسأله عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، والساعة، وأشراطها، قال: «هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»[٢] فإذا كان الباعث على السؤال

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (ص ١٨٤). (الشيخ بكر).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٥٠، = ٤٧٧٧)، ومسلم برقم (٩)، وابن =ماجه برقم (٦٤)، وغيرهم من حديث أبي هريرة.

حاجة السائل، فسؤاله واضح أنه وجيه، أو حاجة غيره وسأل ليعلم غيره، فهذا أيضًا طيب، أما إذا سأل ليقول الناس: ما شاء الله فلان عنده حرص على العلم، كثير السؤال، وابن عباس رضي الله عنه يقول: لما سئل بما أدركت العلم؟ قال: بلسان سئول، وقلب عقول، وبدن غير ملول. فهذا غلط، وعلى العكس من ذلك يقول: لا أسأل حياء، فالثاني مفرط، والأول مفرط، وخير الأمور أوسطها، ولننظر إلى هذا الترتيب، حسن السؤال، وقلت لكم: إن حسن السؤال يشمل الصيغة، والأداء، يعني كيف يصوغ السؤال، وكيف يؤديه؟ هل باحترام وتعظيم أم بغطرسة وشعور بأنه كالمسئول؟ الثاني: حسن الإنصات والاستماع، وقد مر شرحها. الثالث: حسن الفهم أيضًا... الرابع: الحفظ: وهذا الحفظ ينقسم إلى قسمين، قسم غريزي يهبه الله تعالى لمن يشاء، فتجد الإنسان تمر عليه المسألة، والبحث فيحفظه ولا ينساه، وقسم آخر نسبي بمعنى أن يمرن الإنسان نفسه على الحفظ، ويتذكر ما حفظ، فإذا عود نفسه على تذكر ما حفظ، سهل عليه حفظه، الخامس: التعليم و[الذي] أرى أن تكون هي السادسة، وأن العمل بالعلم مثل التعليم، فيعمل بالعلم لإصلاح نفسه، قبل أن يحاول إصلاح غيره، ثم بعد ذلك يعلم الناس، قال النبي ﷺ: «ابدأ بنفسك ثم بمن تعول»[(١)]، والعمل به قبل تعلمه، بل قد يقول: إن تعلمه من العلم به؛ لأن جملة العمل بالعلم، أن تفعل ما أوجب الله تعالى فيه من بثه ونشره.

يقول: إن البحث هذا مهم، يعني: كأنه يشير إلى أننا ينبغي أن نطالعه، لكن ما أدري ما أشار إلى القصد، أن مساق الكلام واحد؟

٤٠- المناظرة بلا مماراة[(٢)]:

إياك والمماراة، فإنها نقمة، أما المناظرة في الحق فإنها نعمة، إذ المناظرة الحقة فيها إظهار الحق على الباطل، والراجح على المرجوح، فهي مبنية على المناصحة والحلم ونشر العلم، أما المماراة في المحاورات والمناظرات، فإنها تحجج ورياء، ولغط وكبرياء، ومغالبة ومراء، واختيال وشحناء، ومجاراة للسفهاء؛ فاحذرها، واحذر فاعلها تسلم من المأثم وهتك المحارم، وأعرض تسلم وتكبت المأثم والمغرم.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٤٢٧)، ومسلم برقم (١٠٣٤)، وأبو داود (١٦٤٨)، والنسائي في «الكبرى» (٤/ ٣٢٦) برقم (٧٨٦٥) من حديث حكيم بن حزام.

(٢) وانظر: «فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (٢٤/ ١٧٢- ١٧٤). (الشيخ بكر).

☆ الشـــــرح ☆

لا شك أن المناظرة شحذ للأفهام، فالمناظرة والمناقشة تسعد الفهم، وتعطي الإنسان قدرة على المحاولة، والمجادلة، والمجادلة بالحق مأمور بها، كما قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، فإذا تمرن الإنسان على المناظرة والمجادلة حصل على خير كثير، وكم من إنسان جادل بالباطل، فغلب صاحب الحق، ما نقول: غلب الحق، غلب صاحب الحق؛ لعدم قدرته على المجادلة، لكن المجادلة نوعان: [النوع الأول]: مجادلة ومماراة، تماري بذلك السفهاء، وتجاري العلماء، ويريد أن ينتصر لقوله، فهذه مذمومة. [والنوع الثاني]: مجادلة لإثبات الحق وإن كان عليه، فهذه محمودة، مأمور بها، وعلامة المجادلة الحقة أن الإنسان إذا بان له الحق افتتح وأعلن الرجوع، أمَّا المجادل الذي يريد الانتصار لنفسه، فتجده لو بان له الحق، وكان ظاهر الحق مع خصمه، يورد إيرادات... يقول: طيب لو قال قائل.... ثم إذا أجيب قال: ولو قال قائل، ثم إذا أجيب قال: ولو قال قائل، ثم تكن سلسلة لا منتهى لها، ومثل هذا عليه خطر، خطر ألاَّ يقبل قلبه الحق، لا بالنسبة لمجادلته مع الآخر، ولكن حتى في خلوته، ربما يورد الشيطان عليه هذه الإيرادات... قال الله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩]، فعليك يا أخي أن تقول الحق، سواء مع مجادلة غيرك، أو محاورة، متى تبين قل: سمعنا وأطعنا؛ ولهذا تجد الصحابة يقبلون ما حكم به الرسول ﷺ أو ما أخبر به، دون أن يورد عليه الاعتراضات، أو رأيت... أرأيت؛ ولهذا جادل عبد الله ابن عمر، وقال له: أرأيت... قال: اجعل أرأيت في اليمن؛ لأنه من أهل اليمن فجادل، ولما سأله أهل العراق عن دم البعوضة، وهل يجوز أن تقتل البعوضة، أو كلمة نحوها، أو شيء نحوها، قال: سبحان الله، أهل العراق يقتلون ابن بنت رسول الله ﷺ ويأتون يسألون عن دم بعوضة، ما المقصود بهذا إثبات الحق، وإبطال الباطل، فهي خير، وتعودها وتعلمها، لاسيما في زمننا هذا فإن زمننا هذا كثير فيه الجدال، كثير فيه المراء، حتى إن الشيء يكون ظاهرًا في الكتاب والسنة، ثم يورد عليك إشكالات إن لم يسعف الله الإنسان بقوة وبعقل ثاقب هُزم.

٤١- مذاكرة العلم:

تمتع مع البصراء بالمذاكرة والمطارحة، فإنها في مواطن تفوق المطالعة، وتشحذ الذهن، وتقوي الذاكرة، ملتزمًا الإنصاف والملاحظة، مبتعدًا عن الحيف والشغب والمجازفة:

وكن على حذر، فإنها تكشف عوار من لا يصدق، فإن كانت مع قاصر في العلم، بارد الذهن، فهي داء ومنافرة، وأما مذاكرتك مع نفسك في تقليبك لمسائل العلم، فهذا ما لا يسوغ أن تنفك عنه، وقد قيل: إحياء العلم مذاكرته.

☆ الشـــــرح ☆

هذا أيضًا من الذي ينبغي لطالب العلم أن يقوم به، وهو المذاكرة، والمذاكرة نوعان: مذاكرة مع النفس، ومذاكرة مع الغير، المذاكرة مع النفس، تجلس جلسة وحدك ثم تطلب مسألة من المسائل أو تكون مسألة مرت عليك، ثم تأخذ في محاولة ترجيح ما قيل في هذه المسألة بعضها على بعض، وهذه سهلة على الإنسان، هي أيضًا تساعد على مسألة المناظرة، المناظرة السابقة، أما المذاكرة مع الغير، فهي أيضًا واضحة يختار إنسان من إخواته الطلبة من يكون عونًا على طلب العلم، مفيدًا له... فيجلس معه، ويتذاكر معه ويقرأ عليه، مثلاً ما حفظاه على واحد يقرأ على الآخر قليلاً، أو يتذاكران في مسألة من المسائل بالمراجعة أو بالمفاهمة إن قدرا على ذلك، فإن هذا مما ينمِّي العلم ويزيده، لكن إياك والشغب والصلف؛ لأن هذا لا يفيد، أنت الآن بحاجة في مقام الإقناع، أو في مقام التأديب؟! واعلم أنه لن يقتنع كلما اشتد غضبك عليه، بل ربما إذا اشتد غضبك عليه، اشتد غضبه عليك، ثم ضاع الحق بينكما، لكن بالهدوء... نعم لو لمست منه الإعنات... مثل أن تكون أنت أعلم منه، وتفهم من العلم ما لا يفهمه، ولكن عرفت أن هذا الرجل يريد العنت، فحينئذٍ لك أن تشتد عليه، وأن تقول: لن أفهمك؛ لقول الله تعالى للنبي ﷺ: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ [المائدة: ٤٢]؛ ولهذا قال المؤلف: «فإن كانت مع قاصر في العلم، بارد الذهن، فهي داء ومنافرة».

٤٢- طالب العلم يعيش بين الكتاب والسنة وعلومهما:

فهما له كالجناحين للطائر، فاحذر أن تكون مهيض الجناح.

☆ الشـــــرح ☆

صحيح، هذه أيضًا من آداب طالب العلم، وبقي شيء آخر، طالب العلم يعيش بين الكتاب والسنة، فهما كالجناحين للطائر، والطائر لا يطير إلا بجناحين، إذا انكسر أحدهما لم يطر... إذًا لا تراع السنة وتغفل عن القرآن، أو القرآن، وتغفل عن السنة، كثير من طلاب العلم، يعتني بالسنة وشروحها ورجالها ومصطلحاتها اعتناء كاملًا، لكن لو سألته عن آية من كتاب الله، ما قدَّم رجل، ولا عرف شيئًا، هذا غلط، بل لابد أن يكون الكتاب والسنة كلاهما جناحان لك، والجناح الأصل هو القرآن، كذلك أيضًا تألف لكنه داخل في قول المؤلف: «وعلومهما» كلام العلماء، أيضًا لا تُهمله ولا تغفل عنه؛ لأن العلماء أشد منك رسوخًا في العلم، وعندهم من قواعد الشريعة وضوابط الشريعة وأسرارها ما ليس عندك، فلا تُهمله؛ ولهذا كان العلماء الأجلاء المحققون إذا ترجح عندهم قول... يقولون: إن كان أحدًا قال به، وإلا فلا نقول به.

شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله - على علمه وسعة اطلاعه، إذا قال قولاً لا يعلم به قائلًا، قال: أنا أقول إن كان قد قيل به، ولا يأخذ برأيه، ويقول: أنا خلاص فهمت من القرآن كذا، ولا على من الناس.

هذا غلط، أنت إذا رأيت أكثر العلماء على قول فلا تعدل عن قول أكثر العلماء، إلا بعد التمحيص، والتحقق؛ لأنه من المستبعد أن يكون الأقل هم أهل العلم.

٤٣- استكمال أدوات كل فنّ:

لن تكون طالب علم متقنًا متفننًا- حتى يلج الجملُ في سَمِّ الخياط- ما لم تستكمل أدوات ذلك الفن، ففي الفقه وأصوله، وفي الحديث بين علمي الرواية والدراية...، وهكذا وإلا فلا تَتَعَنَّ.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١]، فيستفاد منها أن الطالب لا يترك علمًا حتى يتقنه[1].

---

(١) «شرح الإحياء» (١/ ٣٣٤). (الشيخ بكر).

☆ الشـــــرح ☆

استكمال أدوات كل فنٍّ؛ يريد بذلك أنك إذا أردت أن تكون طالب علم فنٍّ ما معين، وهو ما يعرف عندنا بالتخصص، فلابد أن تكون مستعملاً أدوات ذلك الفن، يعني عندك إلمام به، فمثلاً في الفقه، إذ كنت تريد أن تكون عالمًا في الفقه، فلابد أن تقرأ في الفقه وأصول الفقه، لتكون متبحرًا متخصصًا فيه، وإلا فيمكن أن تعرف الفقه بدون علم الأصول، ولكن لا يمكن أن تعرف أصول الفقه وتكون فقيهًا بدون علم الفقه؛ أي: إنه يمكن أن يستغني الفقهي عن أصول الفقه، ولا يمكن أن يستغني الأصولي عن الفقه إذا كان يريد الفقه؛ ولهذا اختلف العلماء.. علماء الأصول هل الأولى لطالب العلم أن يبدأ بأصول الفقه، لابتناء الفقه عليها، أو بالفقه لدعاء الحاجة إليه؟ حيث إن الإنسان يحتاج إليه في علمه، وفي عبادته، ومعاملاته، قبل أن يتقن أصول الفقه، والثاني: هو الأولى، وهو المتبع غالبًا، وهنا استدل بقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١] والمراد بالتلاوة هنا التلاوة اللفظية، والتلاوة المعنوية، والتلاوة العملية، مأخوذة من تلاه.. إذا تبعه ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الذين آتاهم الكتاب لا يمكن أن يوصفوا بأنهم أهل كتاب حتى يتلونه حق تلاوته.

قوله: «وفي الحديث بين علمي الرواية والدراية» يعني: بذلك الرواية في أسانيد الحديث، ورجال الحديث، والدراية في فهم معناه.

الفصل السادس
التحلي بالعمل

٤٤- من علامات العلم النافع:

تساءل مع نفسك عن حظك من علامات العلم النافع، وهن:

١- العمل به.

٢- كراهية التزكية والمدح والتكبر على الخلق.

٣- تكاثر تواضعك كلما ازددت علمًا.

٤- الهرب من حب الترؤس والشهرة والدنيا.

٥- هجر دعوى العلم.

٦- إساءة الظن بالنفس، وإحسانه بالناس، تنزهًا عن الوقوع بِهم.

☆ الشـــــرح ☆

هذه من علامات العلم النافع:

أولاً: العمل به، وهذا بعد الإيمان، أن تؤمن بما علمت ثم تعمل، إذ لا يمكن عمل إلا بالإيمان، فإن لم يوفق الإنسان لذلك بأن كان يعلم الأشياء ولكن لا يعمل بها، فعمله غير النافع، لكن هل هو ضار.. أم لا نافع ولا ضار؟ بل هو ضار؛ لأن النبي ﷺ قال: «القرآن حجة لك أو عليك»[(١)]، ولم يقل: لا لك ولا عليك، فالعلم إما نافع، وإما ضار.

والثاني: يقول: «كراهية التزكية والمدح والتكبر على الخلق» فهو مخطئ، وما أشبه ذلك... كذلك حب المدح، فتجده يسأل: ماذا قالوا عني، وزاد انتفاخه، حتى يعجز جلده عن تحمل بدنه، كذلك التكبر على الخلق... بعض الناس- والعياذ بالله - إذا آتاه الله علمًا تكبر، الغني بالمال ربما يتكبر؛ ولهذا جعل النبي ﷺ: «العائل

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٢٣)، والترمذي برقم (٣٥١٧)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في «الكبرى» برقم (٢٢١٧)، وابن حبان في «صحيحه» (٣/ ١٢٣، ١٢٤) برقم (٨٤).

المستكبر من الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم»[١]؛ لأنه ليس عنده مال يوجب الكبرياء، لكن العالم لا ينبغي أن يكون كالغني، كلما ازداد علمًا ازداد تكبرًا، بل ينبغي العكس، كلما ازداد علمًا ازداد تواضعًا؛ لأن من العلوم التي يقرؤها؛ أخلاق النبي ﷺ كلها تواضع للحقِّ، وتواضع للخلق، لكن على كل حال إذا تعارض التواضع للخلق أو للحق، أيهما يقدم، يعني: بمعنى أنك تتواضع لإنسان يسب الحق، ويصرح بمعاداة من يعمل به، فهنا لا تتواضع له، تواضع للحقِّ، وجادل هذا الرجل، وإن أهانك أو تكلم فيك، فلا تَهتم به.. لابد من نُصرة الحق.

ثالثًا: تكاثر تواضعك كلما ازددت علمًا، وهذا في الحقيقة فرع من الثاني؛ يعني تكره التكبر على الخلق، وينبغي كلما ازددت علمًا أن تزداد تواضعًا.

رابعًا: الهرب من حب الترؤس والشهرة والدنيا، هذه أيضًا قد تكون متفرعة على كراهية التزكية، والمدح يعني: لا تحاول أن تجعل علمك مطية إلى نيلِ الدنيا، فإن هذا يعني: أنك جعلت الوسيلة غاية، والغاية وسيلة، ولكن هل يعني ذلك... لو أنك كنت تجادل شخصًا لإثبات الحق، هل ينبغي أن تعتبر نفسك فوقه أو دونه؟ هل أنتم فاهمون؟ إنسان يجادلني... أنا أريد إثبات الحق، وهو يريد إثبات الباطل، هل الأفضل أن تشعر بأنك دونه أو بأنك فوقه؟ [طبعًا] فوقه...؛ لأنك إذا شعرت بأنك دونه، ما استطعت أن تجادله، لكن إذا شعرت أنك فوقه من أجل أن الحق معك؛ فإنك حينئذٍ تستطيع أن تسيطر عليه.

خامسًا: هجر دعوى العلم: يعني معناه ألا يدعي العلم [فلا] يقول: أنا عالم.

أنـا ابـن جـلا وطـلاع الـثـنـايـا ئتى أضع العِمامة تعرفوني[٢]

كلما كان في مجلس تصدَّر المجلس، وإذا أراد أحدَ أن يتكلم قال: اسكت... أنا أعلم منك، فهذا لا ينبغي، واعلم أن من ادعى العلم فهو جاهل، وربما يفشل ويخزى في مكان يحب أن يكون فيه عزيزًا.

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٢١٣١٨)، وأبو داود برقم (٤٠٨٧)، والترمذي برقم (١٢١١) من حديث أبي ذرٍّ، رواه مسلم برقم (١٠٧)، والنسائي برقم (٢٥٧٦).

(٢) البيت لسحيم الرياحي، وهو سحيم بن وثيل بن عمرو الرياحي، قال ابن دريد: عاش أربعين سنة في الجاهلية وستين في الإسلام، أشهر أشعاره:

أنـا ابـن جـلا وطـلاع الـثـنـايـا متى أضع العمامةَ تعرفوني

سادسًا: إساءة الظنّ بالنفس وإحسانه بالناس.. أن أسيء الظن بنفسي؛ لأنَّها ربما تغره، وتأمره بالسوء، فلا يحسن الظن بالنفس، وكل ما أملت عليه أخذ به.

أما قوله: «إحسانه الظن بالناس» وإنك متى وجدت محملاً حَسَنًا لكلام غيرك، فاحمله عليه، ولا تسيء الظن، لكن إذا علم عن شخص من الناس أنه محل لإساءة الظن، فهنا لا حرج أن تسيء الظن من أجل أن تحترز منه..؛ لأنك لو أحسنت الظن به لأفضت إليه كل ما في صدرك، ولكن ليس الأمر كذلك، ولعل قوله: «تنْزِيهًا عن الوقوع بِهِم» أنه أراد بقوله: إحسانه بالناس ألا يأخذ الناس بالتهمة والظن فيتكلم فيهم بما لا يثبت عنده، فعلى كل حال ربما يقال أيضًا: وينبغي للعالم أن يكون كريمًا، سخيًّا في علمه، يبذله كلما احتاج الناس إليه، ولا يقل: أخشى أن أكون ثقيلاً على الناس. فما دام الناس محتاجين إلى بيان العلم نبين، وإذا كان الله علم من نيتك أنك تريد نشر العلم، وبيان ما قد يكون مشكلاً على الناس، فإن الله يخفف كلامك على الناس ولا يستثقلونه.

وقد كان عبدالله بن المبارك إذا ذكر أخلاق من سلف ينشد:

لا تعرضن بذكرنا مع ذكرهم ليس الصحيح إذا مشى كالمقعد

٤٥- زكاة العلم:

أدّ زكاة العلم، صادعًا بالحق، أمَّارًا بالمعروف نَهَّاءً عن المنكر، موازنًا بين المصالح والمضار، ناشرًا للعلم، وحب النفع، وبذل الجاه، والشفاعة الحسنة للمسلمين في نوائب الحق والمعروف، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» رواه مسلم وغيره.

☆ الشـــــرح ☆

هذه زكاة العلم، تكون بأمور.

الأمر الأول: نشر العلم، هذه من زكاته، كما يتصدق الإنسان بشيء من ماله، فهذا العالم يتصدق بشيء من علمه، وصدقة العلم أبقى وأبقى، دوامًا، وأقل كلفة ومؤونة، أبقى دوامًا؛ لأنه رب كلمة من عالم تسمع ينتفع بها أجيال من الناس، وما زلنا الآن ننتفع بأحاديث أبي هريرة، ولم ننتفع بدرهم واحد من الخلفاء الذين كانوا في عهده، وكذلك العلماء ننتفع بكتبهم، وعلومهم، فهذه زكاة، وأي زكاة لا تنقص العلم بل تزيده.

يـزيـد بـكـثـرة الإنـفـاق مـنـه ويـنـقـص إن بـه كـفًـا شـددتـا[١]

تزيده وتنميه، هذه من زكاة العلم، ومن زكاة العلم أيضًا العمل به؛ لأن العمل به دعوة إليه، بلا شك، وكثير من الناس يتأسون بالعالم في أخلاقه، وأعماله، أكثر مما يتأسون بأقواله، وهذا لا شك زكاة... زكاة، وأي زكاة؛ لأن الناس يشربون منها ويردون إليها، فينتفعون.

ومنها أيضًا ما قاله المؤلف: أن يكون صداعًا بالحق، وهذا من جملة النشر للعلم، لكن النشر قد يكون في حال الخطر، فيكون صداعًا بالحق، ومنها أي من زكاة العلم، وهو الرابع: أظن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا شك أنه من زكاة العلم؛ لأن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر عارف بالمعروف وعارف بالمنكر، ثم قائم بما يجب عليه نحو هذه المعرفة، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

يقول- رحمه الله وعفا عنه - : «أما زكاة العلم: أدِّ زكاة العلم، صادعًا بالحق، أمارًا بالمعروف نَهَّاءً عن المنكر، موازنًا بين المصالح والمضار» ولا شك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أول من يطالب به هم أهل العلم؛ لأن الله تعالى حمَّلهم العلم، والعلم لابد له من زكاة، والمعروف: كل ما أمر الله به ورسوله، والمنكر كل ما نهى الله عنه ورسوله، موازنًا بين المصالح والمضار؛ أي: مصالح الأمر، ومضاره؛ لأنه قد يكون من الحكمة ألا تأمر، وقد يكون من الحكمة ألا تنهي حسب ما تقتضيه المصلحة، فالإنسان ينظر المصالح، والمضار.

وقوله: ناشرًا للعلم وحب النفع؛ يعني: تنشر العلم بكل وسيلة للنشر، من قول باللسان، وكتابة بالبنان، وكل طريق وفي عصرنا هذا سهَّل الله سبحانه وتعالى الطرق لنشر العلم، فعليك أن تنتهز هذه الفرصة، من أجل أن تنشر العلم الذي أعطاك الله إياه، أن يبينوه للناس، ولا يكتمونه، ثم ساق المؤلف حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن الإنسان «إذا مات انقطع عمله إلا من ثلاث... صدقة جارية أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» والشاهد من هذا الحديث قوله: «أو علم ينتفع به»[٢].

---

(١) البيت لأبي إسحاق الإلبيري، وهو : إبراهيم بن مسعود بن سعد الإلبيري، شاعر أندلسي أصله من أهل حصن العقاب، شعره كله في الحكم والمواعظ.

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٦٣١)، والبخاري في «الأدب المفرد» برقم (٣٨)، وأبو داود برقم (٢٨٨٠)، والترمذي برقم (١٣٧٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وبرقم (٣٦٨١)، والنسائي (٦/ ٢٥١).

قال بعض أهل العلم[١]: هذه الثلاث لا تجتمع إلا للعالم الباذل لعلمه، فبذله صدقة ينتفع بِها، والمتلقي لها ابن للعالم في تعلمه عليه.

☆ الشـــــرح ☆

هذا قول مقصور، والصواب خلاف ذلك، المراد بالصدقة الجارية، صدقة المال، وأما صدقة العلم، فذكرها بعد قوله: «أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» المراد بذلك العالم يعلم فيكون صدقة، ويبقى علمه بعد موته، فينتفع به، ويكون طلابه أبناء له، فهذا لا شك أنه تقصير في تفسير الحديث. والصواب: أن الحديث دل على ثلاثة أجناس مما ينتفع به الإنسان بعد موته، وهي الصدقة الجارية المستمرة؛ لأن الصدقة إما جارية، وإما مؤقتة، فإذا أعطيت فقيرًا، يشتري طعامًا، فهذه صدقة لكنها مؤقتة، وإذا حفرت بئرًا ينتفع بِها المسلمون بالشرب، فهذه صدقة جارية.

فاحرص على هذه الحلية، فهي رأس ثمرة علمك، ولشرف العلم، فإنه يزيد بكثرة الإنفاق، وينقص مع الإشفاق، وآفته الكتمان.

☆ الشـــــرح ☆

الأولى: أن يقال: ولبركة العلم، فإن هذا أنسب كونه يزيد بكثرة الإنفاق، فما وجه زيادته؟ وجه زيادته أن الإنسان إذا علّم الناس مكث علمه في قلبه، واستقرّ، وإذا غفل ونسي.

ثانيًا: أنه إذا علّم الناس فلا يخلو هذا التعليم من فوائد كثيرة، في مناقشة أو سؤال فينمى، عليه ويزداد، وكم من إنسان تعلم من تلاميذه، قد يذكر التلميذ مسألة ما جرت على بال الأستاذ وينتفع بها الأستاذ؛ فلهذا كان بذل العلم سببًا لزيادته وكثرته.

ولا تحملك دعوى فساد الزمان، وغلبة الفساق، وضعف إفادة النصيحة عن واجب الأداء والبلاغ، فإن فعلت فهي فعلة يسوق عليها الفساق الذهب الأحمر، ليتم لهم الخروج على الفضيلة، ورفع لواء الرذيلة.

---

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» (الشيخ بكر).

☆ الشـــــرح ☆

نعم لا تيأس، ولا تقل: إن الناس غلب عليهم الفسق، والمجون، والغفلة، لا! ابذل النصيحة ما استطعت، ولا تيأس؛ لأنك إذا تقاعست واستحسرت فمن يفرح بذلك؟ [يفرح بذلك] الفساق، والفجار، كما قيل:

خلا لك الجو فبيضي وَاصْفِري ونقِّري ما شئت أن تنقِّري[1]

فلا تيأس، فكم من إنسان يئست من صلاحه، ففتح الله عليه وصلح.

٤٦- عزة العلماء:

التحلي بـ«عزة العلماء»: صيانة العلم، وتعظيمه، وحماية جناب عزه وشرفه، وبقدر ما تبذله في هذا يكون الكسب منه ومن العمل به، وبقدر ما تُهدره يكون الفوت، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم، وعليه، فاحذر أن يتمندل بك الكبرياء، أو يمتطيك السفهاء، فتُلاين في فتوى، أو قضاء، أو بحث، أو خطاب.

ولا تسعَ به إلى أهل الدنيا، ولا تقف على أعتابِهم، ولا تبذله إلى غير أهله، وإن عظم قدره.

☆ الشـــــرح ☆

هذا فيه شيءٌ صواب، وشيءٌ فيه نظر، صيانة العلم وتعظيمه، وحماية جنابه، لا شك أنه عز وشرف، فإن الإنسان إذا صان علمه عن الدناءة، وعن التطلع عما في أيدي الناس، فهو أشرف له وأعز، ولكن كون الإنسان لا يسعى به إلى أهل الدنيا، ولا يقف على أعتابِهم، ولا يبذله إلى غير أهِله، وإن عظم قدره، فيه تفصيل؛ فيقال: إذا سعيت به إلى أهل الدنيا، وكانوا ينتفعون بذلك، فهذا خير، وهو داخل في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، أما إذا كانوا يقفون من هذا العالم الذي دخل عليهم، وجعل يحدثهم، موقف الساحر المتململ، فهنا لا ينبغي أن يهدي العالم إلى هؤلاء؛ لأن هذه إهانة له، وإهانة لعلمه، ولنفرض أن رجلاً دخل على أناس من هؤلاء

---

(١) البيت لكُلَيب بن ربيعة، وهو كليب وائل بن ربيعة بن الحارث بن مرة التغلبي، سيد الحيين «بكر وتغلب» في الجاهلية.

المترفين، وجلس وجعل يتحدث إليهم بأمور شرعية، ولكنه يشاهدهم تتمعرَّ وجوههم، ويتململون، ويتغامزون فهؤلاء، لا ينبغي أن يحوم حولهم؛ لأن ذلك ذل له ولعلمه، أما إذا كان إذا دخل على هؤلاء، وجلس وتحدث وجد نفوسًا تهش، وأفئدة تطمئن، ووجد منهم إقبالاً، فهنا ينبغي أن يفعلَ فلكل مقامٍ مقال.

لو دخل طالب علم صغير على مثل هؤلاء المترفينَ، فلربَّما يقفون معه موقف الاستهزاء، والسخرية، لكن لو دخل عليهم، من له وزن عندهم، عند غيرهم، لكان الأمر بالعكس، فلكل مقام مقال: إذا رأيت من أهل الدنيا أنَّهم يقبلون على قولك، وأنَّهم يطمئنون إليه، وأنَّهم ينتفعون به، فلا حرج أن تذهب إليهم وتدعوهم، والعكس بالعكس.

ومتع بصرك وبصيرتك بقراءة التراجم والسير لأئمة مضوا، تَرَ فيها بذل النفس في سبيل هذه الحماية، لاسيما من جمع مُثُلًا في هذا، مثل كتاب «من أخلاق العلماء» لمحمد سليمان- رحمه الله تعالى-[١]، وكتاب «الإسلام بين العلماء والحكام» لعبد العزيز البدري- رحمه الله تعالى- وكتاب «مناهج العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» لفاروق السامرائي[٢].

وأرجو أن ترى أضعاف ما ذكروه في كتاب «عزة العلماء» يسر الله إتمامه وطبعه.

وقد كان العلماء يلقنون طلابهم حفظ قصيدة الجرجاني علي بن عبد العزيز (م سنة ٣٩٢هـ)- رحمه الله تعالى- كما نجدها عند عدد من مترجميه، ومطلعها:

يقولون لي فيك انقباض وإنما ... رأوا رجلًا عن موضعِ الذلِّ أحْجَمَا

أرى الناس من داناهم هان عندهم ... ومن أكرمته عزة النفس أكرما

ولو أن أهل العلم صانوه صَانهم ... ولو عظموه في النفوس لعظما

لعظما؛ بفتح الظاء المعجمة المشالة.

☆ الشـــــرح ☆

هذا الضبط فيه نظر، والظاهر: ولو عظموه في النفوس لعُظِّما، يعني: لكان عند الناس عظيمًا، لكنهم لم يعظموه في النفوس بل أهانوه وبذلوه بكل غالٍ ورخيص،

---

(١) مطبوع مرارًا. (الشيخ بكر).

(٢) طبع بجدة عام (١٤٠٧هـ) نشر دار الوفاء بجدة. (الشيخ بكر).

وهذه مرت عليَّ في «البداية والنهاية» لابن كثير في ترجمة الناظم، الذي نظمها، وإن كانت توجد في غيرها.

٤٧- صيانة العلم:

إن بلغت منصبًا فتذكر أن حبل الوصل إليه طلبك للعلم، فبفضل الله ثم بسبب علمك بلغت ما بلغت من ولاية في التعليم، أو الفتيا، أو القضاء... وهكذا فأعط العلم قدره وحظه من العلم به وإنزاله منْزلته.

واحذر مسلك من لا يرجون لله وقارًا، الذين يجعلون الأساس (حفظ المنصب)، فيَطْوون ألسنتهم عن قول الحق ويحملهم حب الولاية على المجاراة فالزم- رحمك الله - المحافظة على قيمتك بحفظ دينك، وعلمك وشرف نفسك، بحكمة ودراية وحسن سياسة: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله في الرخاء يحفظك في الشدة..».

☆ الشـــــرح ☆

إن أراد بهذا الحديث فليس هذا لفظه، الحديث: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك». والجملة الثانية، «تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة»... فهذا لفظ الحديث، يريد بِهذا الأدب، أن الإنسان يصون علمه، فلا يجعله مبتذلاً بل يجعله محترمًا معظمًا، فلا يلين في جانب من لا يريد الحق بل يبقى طَودًا، شامخًا ثابتًا، وأما أن يجعله الإنسان سبيلاً إلى المداهنة، وإلى المشي فوق بساط الملوك، وما أشبه ذلك؛ فهذا أمر لا ينبغي، ولم يكن الإنسان صائنًا لعلمه إذا سلك هذا المسلك، والواجب قول الحق... لكن قول الحق قد يكون في مكان دون مكان، والإنسان ينتهز الفرصة فلا يفوتها، ويحذر الزلة فلا يقع فيها... قد يكون من المستحسن ألَّا أتكلم في هذا المكان بشيء وأتكلم في موضع آخر، لأني أعرف أن كلامي في الموضع الآخر، أقرب إلى القبول، والاستجابة، فلكل مقام مقال، ولهذا يقول: «بحكمة ودراية وحسن سياسة» بحيث يتكلم إذا كان للكلام محل، ويسكت إذا كان ليس للكلام محل، وقوله ﷺ في الحديث: «احفظ الله يحفظك» يعني: احفظ حدود الله كما قال الله تعالى في سورة «التوبة»: ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢]، فلا ينتهكونها بفعل محرّم، ولا يضيعونَها بترك واجب.

وقوله: «يحفظك» يعني في دينك، وفي دنياك، وفي أهلك، وفي مالك، فإن قال قائل: إننا نرى بعض الحافظين لحدود الله يصيبهم ما يصيبهم، فنقول: هذه زيادة في

تكفير سيئاتهم، ورفعة في درجاتهم، ولا ينافي قوله ﷺ: «احفظ الله يحفظك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة»[(١)]، قوله: «يعرفك» لا تظن أن الله تعالى لا يعرف الإنسان إذا لم يتعرف إليه لكن هذه معرفة خاصة، فهي في النظر الخاص المنفي عمن نفي عنه في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧]، مع أن الله لا يغيب عن بصره شيء، لكن النظر نظران: نظر خاص، ونظر عام، كذلك المعرفة، معرفة خاصة، ومعرفة عامة، والمراد هنا المعرفة الخاصة. بقي أن يقال: إن المشهور عند أهل العلم والمعرفة بأن المعرفة تكون للعلم اليقيني وللظن، وأنَّها- أي: المعرفة-: انكشاف بعد خفاء، وأما العلم فليس كذلك. فنقول: ليس المراد بالمعرفة هنا ما أراده الفقهاء أو أراده الأصوليون، وإنما المراد بالمعرفة هنا أن الله تعالى يزداد عناية بك ورحمة بك، مع علمه بأحوالك عزَّ وجلَّ... لكن هل تعرفون الرخاء، والشدة؟ الرخاء: الغناء.

والثاني: الصحة، والثالث: الأهل، «يعرفك في الشدة» يعني: إذا افتقرت، يعرفك في الشدة يعني: إذا فقدت أهلك، يعرفك في الشدة إذا مرضت.

وإن أصبحت عاطلًا من قلادة الولاية، فهذا سبيلك، ولو بعد حين، فلا بأس، فإنه عزل محمدة، لا عزل مذمة ومنقصة.

☆ الشـــــرح ☆

على كل حال هذه القاعدة مهمة، وهو أن الإنسان إذا أصبح عاطلًا عن قلادة الولاية، وهذا سبيلك، ولو بعد حين.. يعني سوف تترك الولاية، ولو بقيت في الولاية إلى الموت، فإنك سوف تتركها.... لابد.. فلا بأس، «فإنه عزل محمدة لا عزل مذمَّة ومنقصة» هذا أيضًا ليس على عمومه؛ لأن من الناس من يعزل عزل ملكة وعزة لكونه يقوم بالواجب عليه من الملاحظة، والنَّزاهة، لكن يضيق على من تحته فيحفرون له حتى يقع، وهذا كثير مع الأسف، ومن الناس من يعزل، لأنه تبين أنه ليس أهلًا للولاية، فهل هذا العزل عزل محمدة، أو مذمة؟ مذمة لا شك... أما الأول؛ فلا... الأول عزل محمدة، أما الثاني فإنه عزل مذمة، فالشيخ أراد بهذا العزل الأول؛ لأنه قام بوظيفة، ولم يفرِّط في المسئولية.

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٢٧٦٣، ٢٨٠٣)، والترمذي برقم (٢٥١٦) من حديث حنظلة، وقال: حديث حسن صحيح، والترمذي أيضًا برقم (٢٥١٩)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

ومن العجيب أن بعض من حرم قصدًا كبيرًا من التوفيق، لا يكون عنده الالتزام والإنابة، والرجوع إلى الله إلا بعد «التقاعد»، فهذا وإن كانت توبته شرعية، لكن دينه، ودين العجائز سواء، إذ لا يتعدى نفعه، أما وقت ولايته حال الحاجة إلى تعدي نفعه فتجده من أعظم الناس فجورًا وضررًا، أو بارد القلب أخرس اللسان عن الحق، فنعوذ بالله من الخذلان.

☆ الشـــــرح ☆

هذه القطعة، قطعة شديدة، عبارات شديدة، نعم من العجيب أن بعض الناس إذا عزل من الولاية، وترك المسئولية ازداد إنابة إلى الله عزَّ وجلَّ؛ لأنه إن عزل في حال يحمد عليها لجأ إلى الله، وعرف أنه لا يغنيه أحد عن الله عزَّ وجلَّ، وعرف افتقاره إلى ربه سبحانه وتعالى، فصلحت حاله، وإن كان انفصاله، لغير ذلك فإنه ربما يمن الله عليه بالتوبة لتفرغه، ولعدم تحمله، المسئولية، فيعود إلى الله - سبحانه وتعالى - ، قوله: وأما وقت ولايته... حال الحاجة إلى تعدي نفسه فتجده من أعظم الناس فجورًا وضررًا، هذا موجود، لا شك لكنه ليس كثيرًا في الناس، والحمد لله... لكن من الناس من يكون متهاونًا في أداء وظيفته، فإذا تركها رجع إلى الله عزَّ وجلَّ.

٤٨- المداراة لا المداهنة:

المداهنة خلق منحط، أما المداراة فلا، لكن لا تخلط بينهما، فتحملك المداهنة إلى حضار النفاق مجاهرة، والمداهنة هي التي تمس دينك[١]

☆ الشـــــرح ☆

لكن لابد أن نعرف ما الفرق بين المداراة والمداهنة. المداهنة: أن يرضى الإنسان بما عليه قبيله، كأنه يقول لكم دينكم ولي دين ويتركه.

وأما المداراة فهو أن يعزم بقلبه على الإنكار عليه لكنه يداريه فيتألفه تارة ويؤجل الكلام معه تارة أخرى، وهكذا حتى تتحقق المصلحة.

الفرق بين المداراة والمداهنة: أن المداراة يراد بها الإصلاح، لكن على وجه

---

(١) انظر «الغرباء» للآجري (ص٧٩، ٨٠)، و«روضة العقلاء» (ص ٧٠) لابن حبان. (الشيخ بكر)

الحكمة والتدرج في الأمور، وأما المداهنة فإنَّها الموافقة، ولهذا جاءت بلفظ الدهن لأن الدهن يسهل الأمور، والعامة يقولون في أمثالهم: ادهن السيف يسيل.

يعني: أعط الرشوة إذا أردت أن تمشي أمورك، على كل حال المداهنة أن الإنسان يترك خصمه وما هو عليه ولا يحاول إصلاحه يقول: فلان ساكت عني أنا سأسكت عنه ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾.

والمداراة أنه يريد الإصلاح ويريد إصلاح خصمه، لكن على وجه الحكمة فيشد أحيانًا ويلين أحيانًا وينطق أحيانًا ويسكت أحيانًا، والمطلوب من طالب العلم المداراة.

٤٩- الغرام بالكتب[١]:

شرف العلم معلوم، لعموم نفعه وشدة الحاجة إليه، كالبدن إلى الأنفاس، وظهور النقص بقدر نقصه، وحصول اللذة والسرور بقدر تحصيله ولهذا اشتد غرام الطلاب بالطلب، والغرام بجمع الكتب مع الانتقاء، ولهم أخبار في هذه تطول، وفيه مقيدات في خبر الكتاب يسر إتمامه وطبعه، وعليه فاحرز الأصول من الكتب، واعلم أنه لا يغني منها كتاب عن كتاب، ولا تحشر مكتبتك وتشوش على فكرك بالكتب الغثائية، لا سيما كتب المبتدعة، فإنها سمٌّ ناقعٌ.

☆ الشـــــرح ☆

يقول: الكتب احتواؤها وجمعها أيضًا مما ينبغي لطالب العلم أن يهتم به، ولكن يبدأ بالأهم فالأهم، فإذا كان الإنسان قليل راتبه، فليس من الخير ولا من الحكمة أن يشتري كتبًا كثيرة يلزم نفسه بغرامة قيمتها، فإن هذا من سوء التصرف، ولذلك لم يأمر النبي ﷺ الرجل الذي أراد أن يزوجه ولم يجد شيئًا -لم يأمره أن يقترض ويستدين[٢]، وعندنا هنا في بلادنا -والحمد لله إذا لم يمكنك أن تشتري من مالك فيمكنك أن تستعير من أي مكتبة.

ثانيًا: احرص على كتب الأصول، دون المؤلفات الحديثة لأن بعض المؤلفين حديثًا ليس عنده العلم الراسخ، ولهذا إذا قرأت ما كتب تجد أنه سطحي، قد ينقل

---

(١) انظر: «روضة المحبين» (ص ٦٨، ٦٩)، و«مفتاح دار السعادة» (ص ٨١) ففيهما أخبار ظريفة وحكايات طريفة. (الشيخ بكر).

(٢) رواه البخاري (٥١٣٥، ٧٤١٧، ٢٣١٠٠)، ومسلم برقم (١٤٢٥) (٢١)، وأبو داود برقم (١١١٤)، والنسائي (٦/ ١٢٣).

الشيء بلفظه وقد يحرفه إلى عبارة طويلة، لكنها غثاء، فعليك بالأمهات، عليك بالأصل ككتب السلف فإنها خير وأبرك بكثير من كتب الخلف.

احذر أن تضم مكتبتك الكتب التي ليس فيها خير، لا أقول التي فيها ضرر، بل أقول التي ليس فيها خير، لأن الكتب تنقسم إلى ثلاثة أقسام: خير، وشر، ولا خير ولا شر؛ فاحرص على أن تكون مكتبتك خالية من الكتب التي ليس فيها خير أو التي فيها شر، هناك كتب يقال إنها كتب أدب لكنها تقطع الوقت وتقتله في غير فائدة، هناك كتب ضارة ذات أفكار معينة ومنحًى معين، أيضِا هذه لا تدخل مكتبتك سواء كان ذلك في المنهج أو كان ذلك في العقيدة، وتخصيص الشيخ هذه المسألة في كتب المبتدعة أراد به ضرب المثل، وإلا فكل كتب تضر في العقيدة، ككتب المبتدعة أو في المنهج كالكتب الثورية، هذه أيضًا لا تدخل مكتبتك، لأنها ضارة، ومن المعلوم أن الكتب غذاء للروح كالطعام والشراب للبدن، فإذا تغذيت بمثل هذه الكتب صار عليك ضرر عظيم واتجهت اتجاهًا آخر خلاف ما ينبغي لطالب العلم.

٥٠- قوام مكتبتك:

عليك بالكتب المنسوجة على طريقة الاستدلال، والتفقه في علل الأحكام، والغوص على أسرار المسائل، ومن أجلها كتب الشيخين: شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله تعالى- وتلميذه ابن قيم الجوزية -رحمه الله تعالى-، وعلى الجادة في ذلك، من قبل ومن بعد:

١- كتب الحافظ ابن عبد البر (م سنة ٤٦٣هـ) -رحمه الله تعالى- وأجل كتبه «التمهيد».

٢- الحافظ ابن قدامة (م سنة ٦٢٠هـ) -رحمه الله تعالى-، وأرأس كتبه «المغني».

٣- الحافظ الذهبي (م سنة ٧٤٨هـ) -رحمه الله تعالى-.

٤- الإمام الحافظ النووي (م سنة ٦٧٦هـ) -رحمه الله تعالى-.

٥- الحافظ ابن كثير (م سنة ٧٧٤هـ) -رحمه الله تعالى-.

٦- الحافظ ابن رجب (م سنة ٧٩٥هـ) -رحمه الله تعالى-.

٧- الحافظ ابن حجر (م سنة ٨٥٢هـ) -رحمه الله تعالى-.

٨- الحافظ الشوكاني (م سنة ١٢٥٠هـ) -رحمه الله تعالى-.

٩- الإمام محمد بن عبد الوهاب (م سنة ١٢٠٦هـ)- رحمه الله تعالى-.

١٠- كتب علماء الدعوة، ومن أجمعها الدرر السنية. العلامة الصنعاني (م سنة ١١٨٢هـ) -رحمه الله تعالى-، لا سيما كتابه النافع «سبل السلام».

١١- العلامة صديق حسن خان القنوجي (م سنة ١٣٠٧هـ) -رحمه الله تعالى-.
١٢- العلامة محمد الأمين الشنقيطي (م سنة ١٣٩٣هـ) -رحمه الله تعالى- لا سيما كتابه «أضواء البيان».

☆ الشـــــرح ☆

هذا أيضًا مهم، أن يختار الإنسان لمكتبته ومراجعها، الكتب الأصلية القديمة؛ لأن غالب كتب المتأخرين، غالبها قليلة المعاني كثيرة المباني، تقرأ صفحة كاملة يمكن أن تلخصها في سطرين، مع التعريج، والمطاب، والتغريزات في بعض الكلمات التي لا تفهم إلا بعد تكرار... لكن كتب السلف تجدها سهلة، هينة، لينة، رصينة، لا تجد كلمة واحدة ليس لها معنى.

عليك بالكتب... ثم استعرض المؤلف لكتب معينة منها، ثم وصف هذه الكتب؛ قال: «المنسوجة على طريقة الاستدلال، والتفقه في علل الأحكام» وهذا خير ما يكون لطالب العلم، أن تكون المسائل مقرونة بالدلائل، والدلائل إما نصوص، وإما علل، والعلل مستنبطة من النصوص..، لكن قد لا يكون النص في هذه المسألة بعينها، لكن تشملها العلة.

قاعدة عامة: واعلم أنه لا يوجد حكم من أحكام الله عزَّ وجلَّ إلا وله علةٌ؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ فما من حكم إلا وله علة، لكن من الأحكام ما نعلم علته، ونعلم أن لها أكثر من علة، وبعضها يخفى علينا، ولكننا -وإن خفيت علينا العلة الخاصة- لا تخفي علينا العلة العامة، وهي التعبد لله عزَّ وجلَّ، فإن كمال التعبد لله أن تعبده عزَّ وجلَّ بما أمر، سواء علمت الحكمة أم [لم] تعلم، وهذا أبلغ في الانقياد؛ أن ينقاد الشخص لعمل لا يعرف حكمته، وإنما يقوم به لمجرد التعبد والتذلل لله، وقوله: «بلسان المقال والحال سَمعنا وأطعنا» هذه العلة تكفي، لو قال قائل مثلاً: ما هي العلة في نقض الوضوء بأكل لحم الإبل؟ نقول: إن فتح لنا وفهمناها، وهي علة خاصة مثلاً، فهذا مطلوب، وإلا فعندنا العلة العامة وهي، التعبد لله تعالى بما أمر، وكفى بها علة. رمي الجمرات، لماذا نرمي هذه الجمرات حصى في مكان أتعبد الله به؟ لأن الله أمرنا بذلك، فقلنا: سمعنا وأطعنا، ولو كان هذا في غير هذا المكان، وفي غير هذا الزمان، لعد عبثًا أو جنونًا، فلو أن واحدًا منا الآن خرج إلى السوق، وأخذ حصيات، وقام يحذف بالشارع، ما نقول؟ هذا مجنون، لكن

لما وقع بأمر الله، صارت عبادة يتقرب إلى الله بها.

إذًا من أهم ما يكون اقتناء الكتب التي تشتمل على المسائل والدلائل، حتى تفتح لطالب العلم أبواب العلم، ثم اعلم أن الحكم الذي يقوم به مبني على دليل، تطمئن إليه النفس أكثر، وتلتزم به -أيضًا- أكثر؛ لأنه مبني على دليل... على نص أو علة دل عليها الشرع، ثم ذكر أمثلة للكتب: من أجلها كتب الشيخين... شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم رحمهما الله، وقد حث شيخنا عبدالرحمن ابن سعدي - رحمه الله - على اقتناء كتب هذين العالمين الجليلين، ومن المعلوم أن كتب ابن القيم أسهل وأسلس؛ لأن شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله - كانت عباراته قوية؛ لغزارة علمه، وقوة عارضته، وابن القيم رأى بيتًا معمورًا، فكان منه اللياسة والتحسين، ولسنا نريد بذلك أن نقول: إن ابن القيم نسخة من ابن تيمية، أبدًا... ابن القيم حر، إذا رأى أن شيخه خالف ما يراه صوابًا تكلم، لما ذكر وجوب فسخ الحج للعمرة وأن ابن عباس رضي الله عنهما يرى أنه يجب على من لم يسقِ الهدي إذا أحرم بحج أو بِقران أن يفسخه إلى عمرة.

وكان شيخ الإسلام يرى أن الوجوب خاص بالصحابة، قال: وأنا إلى قوله أميل منِّي إلى قول شيخنا[1]، فصرح بمخالفته، فهو -رحمه الله - مستقلٌّ حر الفكر، لكن لا غرو أن يتابع شيخه -رحمه الله - فيما يراه حقًّا وصوابًا، ولا شك أنك إذا تأملت غالب اختيارات شيخ الإسلام وجدت أنها هي الصواب، وهذا أمر يعرفه من تدبر كتبهم، فالمهم أنَّا نوافق الشيخ بكر أبا زيد، كما أننا نتبع في ذلك شيخنا -رحمه الله - في الحرص على اقتناء كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، كذلك أيضًا، الحافظ ابن عبد البر. وأجل كتبه «التمهيد»... شرح ماذا؟ شرح «الموطأ»، وهذا الكتاب على جلالته، وغزارة علمه، يصعب أن تحصل فيه الفائدة؛ لأنه غير مرتب إذ أنه بناه على الأسانيد -رحمه الله -، وساق «الموطأ» على هذا المنهاج، فصار الإنسان يتعب قبل أن يحصل مسألة من مسائل، ونرجو الله تعالى أن ييسر لبعض شبابنا من طلبة العلم إلى ترتيبه سواء ترتيبًا كاملاً بتغيير الكتاب أصلاً أو ترتيبًا بالفهارس، وأظن ترتيبه بالفهارس، سيكون سهلاً، يأخذ الإنسان مثلاً أوراقًا، ويسجل فيها ما يتعلق بكتب الطهارة على حدة وما يتعلق بالصلاة على حدة، حتى تجتمع ثم بعد ذلك يضم بعضها إلى بعض، ولو فعل الإنسان ذلك لكان خدم هذا الكتاب،

---

(١) زاد =المعاد (ص ١٩٣، ١٩٤).

خدمة عظيمة، وخدم الناس الذين يريدون الانتفاع به.

وكذلك أيضًا، الثاني يقول: الحافظ ابن قدامة -رحمه الله -، أنا إلى الآن لم أسمع أحدًا وصف ابن قدامة بأنه حافظ لكنه لا شك أنه فقيه، من أكبر الفقهاء -رحمه الله -، يقول: ورأس كتبه «المغني»، وإنما قال: رأس كتبه «المغني» إشارة إلى أنه - رحمه الله لو كتب على الترتيب لطالب العلم.

كفى الناس بالكافي وأقنع طالبًا ... بمقنع فقه عن كتاب مطول

وأغنِ بمغني الفقه من كان باحثًا ... وعمدته من يعتمدها يحصل

فهو كتب في الفقه «العمدة»، فيها مسائل ودلائل للطالب المبتدئ، ثم «المقنع» للطالب الذي ترقى بعض الشيء، وكان يذكر فيه القولين في مذهب الإمام أحمد، إما الروايتين، وإما الوجهين، وإما الاحتمالين، لكن بدون ذكر الدليل، ثم إذا ارتفع الإنسان إلى «الكافي»، فيه ذكر القولين والاحتمالين، أو الوجهين مع ذكر الدليل، أو التعليل ثم يرتقي إلى الرأس والقمة، وهو «المغني» الذي يذكر فيه الموفق -رحمه الله - الخلاف في مذهب أحمد، ومع الأئمة الأربعة، وغيرهم، ولهذا قال: ورأس كتبه «المغني».

الثالث: الحافظ الذهبي -رحمه الله -، ولم يذكر شيئًا من كتبه.

الحافظ ابن كثير وله «الأحكام في شرح البخاري» -رحمه الله -.

الحافظ ابن رجب وله كتب كثيرة في الحديث وكذلك في الفقه، ومن أحسن ما اطلعناعليه، «القواعد الفقهية»، حتى أن بعض العلماء قال: إن هذه القواعد الفقهية ليست لابن رجب؛ لأنها أكبر من مستواه. ولكن الصحيح أنها له، وقد اشتهرت، وتناقلها الناس، وفضل الله يؤتيه من يشاء، لكنها أعني «القواعد الفقهية» لطالب العلم الذي يريد التبحر في الفقه من أحسن ما رأيت، لأنها مبنية على التعليل، وعلى المناقشة، وفيها فوائد كثيرة، وهي طبعًا غير مرتبة، لكن في بعض الطبعات رتبت على أبواب الفقه في الفهارس.

الحافظ ابن حجر -رحمه الله - له «فتح الباري»، الذي نعرف من كتبه، وله كتب أخرى حديثية وربما يكون له كتب فقهية أيضًا.

الحافظ الشوكاني[1]، وله كتب حديثية فقهية، «نيل الأوطار» جامع بين علم الحديث، والفقه، و«السيل الجرار».

---

(١) هو العلامة محمد بن علي بن محمد بن عبدالله بن الحسن بن محمد بن صلاح بن علي بن عبد الله الشوكاني =الخولاني، ثم الصنعاني، أبو عبدالله، ولد سنة (١١٧٣هـ) في بلاد خولان، ونشأ بصنعاء، وتوفي بها سنة (١٢٧٢هـ). انظر «معجم المؤلفين» (١١/ ٥٣).

الإمام محمد بن عبدالوهاب -رحمه الله - أيضًا له كتب متعددة في فنون متعددة... وأكثر ما ألف فيه: التوحيد، لحاجة الناس إلى ذلك.

كتب علماء الدعوة، ومن أجمعها «الدرر السنية» كتب بعضها باعتبار المشايخ بحيث جمع لكل شيخ ما كتبه أو أجاب عنه، أو أجاب عليه من أسئلة، وجمعت على وجه آخر مرتبة على أبواب الفقه، وهي لا شك أنَّها نافعة جدًّا فيها رسائل صغيرة، وفيها أجوبة كثيرة نافعة.

العاشر: العلامة الصنعاني[1] لا سيما كتابه «سبل السلام في شرح بلوغ المرام»، فهو جامع بين الحديث والفقه.

الحادي عشر: العلامة صديق حسن خان -رحمه الله تعالى-، وله كتب في الفقه، وكتب في التفسير، وتفسيره من أجمع التفاسير للأقوال مع اختصاره، لكنه مفيد جدًّا، وكان مشايخنا يوصوننا به أي بتفسير صديق خان.

الثاني عشر: العلامة محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله - لاسيما كتابه «أضواء البيان» في التفسير، لكنه في الحقيقة جامع بين التفسير، والحديث والفقه، ولا سيما حينما تجاوز «البقرة»، و«آل عمران»، و«النساء»، أما كلامه في «البقرة»، و«آل عمران»، و«النساء»، فهو قليل لكن فيما بعد، ما شاء الله، [فقد] انفجر كالبحر، وصار يتكلم بكلام قل أن تجده في غيره.

٥١- التعامل مع الكتاب:

لا تستفد من كتاب حتى تعرف اصطلاح مؤلفه فيه، وكثيرًا ما تكون المقدمة كاشفة عن ذلك، فابدأ من الكتاب بقراءة مقدمته.

☆ الشـــــرح ☆

التعامل مع الكتاب يكون بأمور:

الأول: معرفة موضوعه حتى يستفيد الإنسان منه؛ لأنه يحتاج إلى تخصص.. فتقرأ كتاب وأنت لا تدري ما هو... ربما يكون كتاب شعوذة، أو سحر، أو باطل، فلابد أن تعرف موضوعه.

---

[1] هو محمد بن إسماعيل الأمير الهاشمي، الفاطمي، الكحلاني، العلامة الصنعاني وُلد سنة (١٠٩٩هـ)، وتوفي سنة (١١٨٢هـ).

ثانيًا: لابد أن تعرف مصطلحاته، وهذا في الغالب يكون لمقلد؛ لأن معرفة المصطلحات يحسن بها في الواقع؛ أنك تحفظ أوقات كثيرة، وهذا يفعله الناس في مقدمات الكتب، فمثلاً: نعرف أن صاحب «بلوغ المرام»، إذا قال: متفق عليه.. يعني رواه البخاري، ومسلم، لكن صاحب «المنتقى» على خلاف ذلك، صاحب «المنتقى» إذا قال: متفق عليه، فإنه يعني أنه رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم، كذلك أيضًا في كتب الفقه يفرق بين القولين والوجهين، والروايتين، والاحتمالين، كما يعرفون الناس من تتبع كتب الفقهاء، الروايتان عن الإمام، والوجهان على الأصحاب، لكن أصحاب المذاهب الكبار، أهل التوجيه، والاحتمالين، للتردد بين قولين، والقولين أعم من ذلك كله، كذلك يحتاج أن تعرف مثلاً: إذا قال المؤلف: إجماعًا. أو إذا قال: وفاقًا. إذا قال: إجماعًا يعني بين الأمة -وفاقًا- مع الأئمة الثلاثة كما هو اصطلاح صاحب «الفروع»، وكذلك بقية أصحاب المذاهب كل له اصطلاح، فلابد أن تعرف اصطلاح المؤلف.

ثالثًا: يكون التعامل مع الكتاب بمعرفة أسلوبه وعباراته؛ ولهذا تجد أنك قرأت أول ما تقرأ لا سيما في الكتب العلمية المملوءة علمًا تجد أنك تمر بك العبارة تحتاج إلى تأمل وتفكير في معناها؛ لأنك لم تألفها، فإذا كررت هذا الكتاب ألِفته، وانظر مثلاً إلى كتب شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله - فالإنسان الذي لم يتمرن في مطالعة كتبه، يصعب عليه أن يفهمها لأول مرة، لكن إذا تمرن عرفها بيسر وسهولة، هذه أيضًا تكون من التعامل مع الكتاب، أما ما يتعلق بأمر خارجي عن التعامل مع الكتاب، وهو التعليق بالهوامش، أو بالحواشي، فهذا أيضًا مما ينبغي لطالب العلم أن يغتنمه، وإذا مرت به مسألة تحتاج إلى شرح، أو إلى دليل أو إلى تعليل، ويخشى أن ينساها فإنه ماذا؟ [عليه أن] يعلقها إما بالهامش، وهو الذي على اليمين أو اليسار، وإما بالحاشية، وهي التي تكون في الأسفل وكثيرًا ما يفوت الإنسان مثل هذه الفوائد التي لو علَّقها لم تستغرق عليه إلا دقيقة أو دقيقتين، ثم إذا عاد ليتذكرها بقي مدة وهو يتذكرها ولا يجدها، فينبغي أيضًا لطالب العلم أن يغتنم مثل ذلك لا سيما مثلاً في كتب الفقه [حيث] تمر بك في الكتاب مسألة، وحكمها، ثم تتوقف وتشكل عليك... ارجع مثلاً إلى الكتب التي أوسع من كتابك الذي بين يديك، فإذا وجدت قولاً فعلق القول من أجل أن ترجع إليه إذا احتجت إليه دون الرجوع إلى أصل الكتاب الذي نقلت منه، فهذا مما يوفر عليك الوقت، وكذلك أيضا إذا كان الكتاب في فقه مذهب من المذاهب، ورأيت أنه يخالف المذهب في حكم هذه المسألة، فإنه من المستحسن

أن تقيد المذهب على الهامش أو في الحاشية حتى تعرف أن هذا الكتاب خرج عن المذهب، ولا سيما إذا كان المذهب أقوى مما ذهب إليه صاحب الكتاب.

هل من التعامل مع الكتاب -وإن كان خارجًا عن التعامل الداخلي- أن تلخص الكتاب مثلًا! تلخيصه على سبيل التأليف والنشر قد يجد الإنسان في هذا حرجًا، لكن استخراج فوائد مبعثرة لا على سبيل التأليف، هذا لا يجد الإنسان حرجًا فيه ولو نشره، وأما اختصار كتاب ونشره، فإن دعت الحاجة إلى ذلك فلا بأس، وإلا فلا تتعرض له؛ لأنك إذا فعلت ذلك ربما يهجر الناس الأصل إلى هذا المختصر، وربما تحذف مسائل أهم مما تثبت.

٥٢- ومنه:

إذا حزت كتابًا فلا تدخله في مكتبتك إلا بعد أن تمر عليه جردًا أو قراءة لمقدمته، وفهرسه، ومواضع منه، أما إن جعلته مع فنه في المكتبة، فربما مر زمان، وفات العمر دون النظر فيه، وهذا مجرب. والله الموفق.

☆ الشـــــرح ☆

هذا صحيح، وهو حاصل كثيرًا، يعني أكثر ما يكون في حال الإنسان أنه إذا جاءه كتاب جديد يتصفحه أو إذا كان كثيرًا يقرأ الفهرس.. قل أن تجد شخصًا مثلًا...، أو أن تمر بك حال من حين يأتيك الكتاب تجعله في الرف، هذا قليل لابد أن تعرف، وإنما قلنا أو قال الشيخ هذا؛ لأجل إن احتجت إلى مراجعته، عرفت أنه يتضمن حكم المسألة التي تريد، أما إذا لم تجرده مراجعة، ولو مرورًا؛ فإنك قد لا تدري ما فيه من المسائل، والفوائد فيفوتك شيء كثير موجود في هذا الكتاب الذي عندك في رفك.

٥٣- إعجام الكتابة:

إذا كتبت فأعجم الكتابة بإزالة عجمتها، وذلك بأمور.

☆ الشـــــرح ☆

أعجم الكتاب، هل معناه اجعله أعجميًا؟

لا، معناه: أزل عجمته بإعرابه، وتشكيله، ونقطه، حتى لا يشكل، وهذا من الأفعال، التي يراد بها الضدّ، كما جاء في الحديث «يتحنث» أي: يعني النبي ﷺ

يتحنث بغار حراء الليالي ذوات العدد[١]. . .

يعني: يزيل الحنث، أم يفعل الحنث؟

يزيله، وهذه لها أمثلة كثيرة، فمعنى «أعْجَمَ الكتاب»، أي: أزال عجمته بتشكيله، وإعرابه.

١- وضوح الخط.

٢- رسمه على ضوء قواعد الرسم «الإملاء»، وفي هذا مؤلفات كثيرة من أهمها: كتاب الإملاء لحسين والي[٢].

☆ الشـــــرح ☆

لابد أن تكون عالمًا. . أخشى أن تقع في قول القائل: يريد أن يعربه فأعجمه.

لابد أن تكون عالمًا بالنحو، أما مثلًا: يعني فكرك يقول لك: هذه مرفوعة، مضمومة، منصوبة، مكسورة، وتفعل؟ لا. . . لابد أن تكون عالمًا، وإذا أشكلت عليك الكلمة، فارجع إلى مظانِّها، إذا أشكل عليك تركيب الكلمة، أو حركاتها في تركيبها لا في إعرابها، فارجع إلى كتب اللغة؛ لأن هناك أخطاء شائعة بين الناس، مثلًا: يقولون: تجرُبة، وتجارُب؛ أكثر الناس إن لم أقل كل الناس يضمون الراء. . فأخشى يأتي واحد يريد أن يعجم فتمر به تجربة، فيقول لك تجرُبة، بضم الراء، فيشكلها نطقًا، وإعرابًا، وهذا غلط؛ لأنه قد يشتهر بين الناس أشياء، ليس لها أصل، فلابد أن ترجع إلى أصل.

«قواعد الإملاء» لعبد السلام محمد هارون[٣]، «المفرد العلم» للهاشمي -رحمهم الله تعالى-[٤].

٣- النقط للمعاجم، والإهمال للمهمل[٥].

٤- الشكل لما يشكل.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير برقم (٣، ٤٩٥٣)، ومسلم برقم (١٦٠، ٢٥٢- ٢٥٤) من حديث عروة بن الزبير.

(٢) طبع ثم صور عام (١٤٠٥هـ) بيروت، دار القلم. (الشيخ بكر).

(٣) مطبعة الخانجي بمصر عام (١٣٣٩هـ) الطبعة الرابعة. (الشيخ بكر).

(٤) الطبعة الثانية والعشرون، المكتبة التجارية الكبرى بمصر. (الشيخ بكر).

(٥) لأن الترك يؤدي إلى الاشتباه. (الشيخ بكر).

٥- تثبيت علامات الترقيم في غير آية، أو حديث[١].

☆ الشـــــرح ☆

كل هذه قواعد إملائية، ينبغي مراعاتُها.. طيب... نسمعهم يقولون: بالظاء المشالة ما هذه؟ أخت الطاء.. طيب بالضاد المعجمة؟ أخت الصاد، طيب بالدال المهملة أخت الذال، وبالذال المعجمة أخت الدال، لكن يقولون هذا لئلا يخطئ الإنسان، وإلا الدال والذال ما تختلف إلا بالإعجام فقط، الضاد والظاء هي التي تختلف، يحتاج أن تقول بالظاء المشالة التي هي أخت الطاء.

(١) «الترقيم وعلاماته» أحمد زكي باشا، طبع عام (١٣٣٠هـ). (الشيخ بكر).

الفصل السابع
المحاذير

٥٤- حلم اليقظة:

إياك وحلم اليقظة، ومنه بأن تدعي العلم لما لم تعلمه، أو إتقان ما لم تتقنه، فإن فعلت فهو حجاب كثيف عن العلم.

☆ الشـــــرح ☆

هذا صحيح، وما أسرع ما يفتر الإنسان، أحيانًا بعض الناس يرى الحاضرين بأنه عالم مطلع، فتجده إذا سئل يسكت قليلًا... يعني كأنه يتأمل، ويطلع على الأسرار، ثم يرفع رأسه، فيقول: هذه المسألة فيها قولان للعلماء، طيب ما هما القولان؟ ثم إما أن يجيب بقول من عنده، وإلا يقول: تحتاج إلى مراجعة، فالمهم أنك لا تدعي العلم، ولا تنصب نفسك عالمًا، مفتيًا، وأنت لا علم عندك؛ لأن هذا من السفه بالعقل، وضلال في الدين، ولهذا قال: «إن فعلت فهو حجاب كثيف عن العلم»؛ لأن الإنسان إذا فعل هذا، ويقول: خلاص أنا الآن صرت عالمًا، ما أحتاج أن أطلب العلم. فيحجب عن العلم بسبب هذا الاعتقاد الباطل.

٥٥- احذر أن تكون أبا شبر[١]

فقد قيل: العلم ثلاثة أشبار، من دخل في الشبر الأول تكبر، ومن دخل في الشبر الثاني تواضع، ومن دخل في الشبر الثالث علم أنه ما يعلم.

☆ الشـــــرح ☆

أبو شبر واحد، الشبر الأول: يتكبر، لأنه ما عرف نفسه وحقيقته، والثاني: تواضع، لكنه متواضع، وهو يرى نفسه عالمًا، الأول: يرى نفسه عالمًا متكبرًا، والثاني: يرى نفسه عالمًا لكنه متواضع، والثالث: يرى أنه جاهل لا يعرف، لا يعلم،

---

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص ٦٥). (الشيخ بكر).

وبالضرورة لن يتكبر، وهو جاهل، يرى نفسه جاهلًا، لكن هل هذه الأخيرة محمودة أم لا؟ أن ترى نفسك جاهلًا! إذا رأيت نفسك جاهلًا، فإنك لن تقدم على عزم في الفتيا مثلًا، ولهذا تجد بعض طلبة العلم لا يعطيك جزمه، يقول: الذي يظهر أو يحتمل... لا يا أخي، ما دام الله قد فتح عليك، وكنت عالمًا، حقًّا، فاعتبر نفسك عالمًا... اجزم في المسألة، لا تجعل الإنسان السائل طريح الاحتمال، وإلا ما أفدت الناس، أما من ناحية الإنسان الذي ليس عنده علم متمكن، فهذا ينبغي أن يرى نفسه غير عالم.

٥٦- التصدر قبل التأهل:

احذر التصدر قبل التأهل: فهو آفة في العلم والعمل، وقد قيل: من تصدر قبل أوانه، فقد تصدى لهوانه.

☆ الشـــــرح ☆

هذا أيضًا مما يجب الحذر منه أن يتصدر الإنسان قبل أن يكون أهلًا للتصدر لأنه إذا فعل ذلك كان هذا دليلًا على أمور:

الأمر الأول: إعجابه بنفسه، حيث تصدر، فهو يرى نفسه أنه علم الأعلام؛ لأنه تصدر.

الأمر الثاني: أن ذلك يدل على عدم فقهه، ومعرفته للأمور؛ لأنه إذا تصدر فربما يقع في أمر وَحَل، لا يستطيع الخلاص منه، لأن الناس إذا رأوه، متصدرًا، أوردوا عليه من المسائل ما يبين عواره.

الأمر الثالث: أنه إذا تصدر قبل أن يتأهل، لزمه أن يقول على الله ما لا يعلم؛ لأن الغالب أن من كان هذا قصده، أنه لا يبالي أن يحطم العلم تحطيمًا، وأن يجيب عن كل ما سئل عنه، وأنه يقول كما قال العوام: «قطة ولو مقطة أبيض»[1] تعرفون ما هذا؟

يعني معناه أنك تضرب بالسكين حتى تخرج ليس فيها دم من شدة القط، والمعنى أن بعض الناس يفعل هذا، يخاطر بدينه، وبقوله على الله عزَّ وجلَّ [بغير حق].

الأمر الرابع: [أن] الإنسان إذا تصدر فإنه في الغالب لا يقبل الحق؛ لأنه يظن

---

(١) هذا مشهور عند عوام أهل نجد، والقط: هو القطع.

بسفهه أنه إذا خضع لغيره، ولو كان معه الحق، كان هذا دليلًا على أنه ليس بأهل للعلم، والمهم، أن هذا فيه آفات، عظيمة، ولهذا يروى عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «تفقهوا قبل أن تُسَوَّدُوا»[1]، أو قبل أن تَسُودُوا... كلاهما صحيح، يعني: اطلبوا العلم وتفقهوا في دين الله قبل أن يجعلكم الناس سادة؛ لأن الإنسان إذا تسود خلاص: لم يكن لنفسه، أنت لنفسك كما قيل: أنك لنفسك ما لم تعرف، فإذا عرفت، فلست لنفسك، وهذا شيء مجرب، الإنسان قبل أن يعرف، وقبل أن يسود تجده وقته واسع، يفعل حاجاته، ويقضي حاجاته، لكن إذا عرف «خلاص» صار للناس، وليس لنفسه، طيب: إذن هذا آفاته، وقد قيل: «من تصدر قبل أوانه فقد تصدى لهوانه»، هذا سجع طيب، وفيه أيضًا جناس، ولكنه ليس بتامٍّ.

وابن رجب -رحمه الله - في «قواعد الفقه» يقول: من تعجل شيئًا قبل أوانه عوقب بحرمانه. ولهذا لو قتل الموصى له الموصي بطلت الوصية، يعني لو أوصى إنسان قائلًا، إذا مت فأعطوا فلانًا عشرة آلاف. وكان هذا الموصى له محتاجًا، وطال به الزمان... أطال الله عمر الموصي... فقال: إلى الآن ما مات، فذهب فقتله، هل يعطى الوصية؟ لا، تبطل الوصية؛ لأنه تعجل شيئًا قبل أوانه -على وجه محرم- عوقب بحرمانه؛ ولهذا كان من موانع الإرث القتل لئلا يتعجل الوارث موت مورثه.

٧٥- التنمر بالعلم:

احذر ما يتسلى به المفلسون من العلم، يراجع مسألة أو مسألتين، فإذا كان في مجلس فيه من يشار إليه، أثار البحث فيهما؛ ليظهر علمه كم في هذا من سوءة، أقلها أن يعلم أن الناس يعلمون حقيقته.

وقد بينت هذه مع أخوات لها في كتاب «التعالم». والحمد لله رب العالمين.

☆ الشـــــرح ☆

هذا مثله، التنمر بالعلم، يعني: أن يجعل الإنسان نفسه نمرًا، تعرفون النمر؟ أخو الأسد فيأتي مثلًا إلى مسألة من مسائل العلم، ويبحثها ويحققها بأدلتها، ومناقشتها مع العلماء، وإذا حضر مجلس عالم يشار إليه بالبنان، قال: ما تقول أحسن الله إليك

---

(١) ذكره البخاري معلقًا في باب «الاغتباط في العلم والحكمة» وقال عمر: «تفقهوا قبل أن تسودوا»، ووصله ابن حجر في «تغليق التعليق» (٢/ ٨١، ٨٢)، وأخرجه الدارمي برقم (٢٥٠).

بكذا، وكذا، قال: هذا حرام، مثلاً، قال: كيف؟ بماذا تجيب عن قوله ﷺ كذا، عن قول فلان كذا، ثم أتى من الأدلة التي لا يعرفها العالم؛ لأن العالم ليس مجيدًا بكل شيء، لكي يظهر نفسه أنه أعلم من هذا العالم، ولذلك تجد العوام يتحدثون، يقولون: والله فلان البارحة، جلس مع فلان كبير من العلماء وأفحمه في مسألة، ما شاء الله، بلغ مبلغًا عظيمًا صار كبير كبار العلماء؛ لأن العامي ما يدري، وهذه تقع كثيرًا جدًّا، فكثيرًا ما يأتي إنسان يكون بحث المسألة بحثًا دقيقًا جيدًا، ثم يباغت العلماء بمثل هذا، وهذا ولا شك أنه كما قال الشيخ -رحمه الله -، تنمر لكنه من مفلس، لكن ما دواء هذا الذي يبين عواره، إذا انتهينا من هذه المعمعة، نقول تعالى: أعرب قول الشاعر... وحينئذٍ يتبين بلاؤه، أو اقسم هذه المسألة الفرضية.. تبين أنه ليس عنده شيء، ومن قاتلك بسكين فقاتله بسيف، وهذا واقع كثير من العلماء الآن، وكثير من طلبة العلم يكون له اختصاص في شيء معين، مثل أنه يدرس كتاب النكاح، مثلاً، ويحقق فيه لكن لو تخرج به إلى كتاب البيع الذي هو قبل كتاب النكاح في الترتيب عند الفقهاء، لم تجد عنده شيئًا، كثير من الناس الآن في الحديث يتنمر، فيقول: رواه فلان عن فلان، وفيه انقطاع، ثم يضفي على هذا ظلالاً من كبريات العلم، ثم لو تسأله عن آية من كتاب الله ما أجاب، والحاصل: أن الإنسان يجب أن يكون أديبًا مع من هو أكبر منه.

إذا كان من هو أكبر منه أخطأ في هذه المسألة، فالخطأ يجب أن يبين، لكن بحال لبقة، بصيغة لبقة، أو ينتظر حتى يخرج مع هذه العالم ويمشي معه، ويتكلم معه بأدب... والعالم الذي يتقي الله، إذا بان له الحق، فإنه سوف يرجع إليه، وسوف يبين للناس أنه رجع.

٥٨- تحبير الكاغد:

كما يكون الحذر من التأليف الخالي من الإبداع في مقاصد التأليف الثمانية[١]، والذي نِهايته «تحبير الكاغد»[٢].

فالحذر من الاشتغال بالتصنيف قبل استكمال أدواته، واكتمال أهليتك، والنضوج على يد أشياخك، فإنك تسجل به عارًا، وتبدي به شنارًا.

أما الاشتغال بالتأليف النافع لمن قامت أهليته، واستكمل أدواته، وتعددت معارفه،

---

(١) أول من ذكرها ابن حزم في «نقط العروس»، وانظر تسلسل العلماء لذكرها في «إضاءة الراموس» (٢/ ٢٨٨). (الشيخ بكر).

(٢) هو القرطاس: فارسي معرَّب. (الشيخ بكر).

وتمرس به بحثًا، ومراجعةً، ومطالعةً، وجردًا لمطولاته، وحفظًا لمختصراته، واستذكارًا لمسائله، فهو من أفضل ما يقوم به النبلاء من الفضلاء.

☆ الشـــــرح ☆

هذه الشروط التي ذكرها الآن متعذرة، فالآن تجد رسائل في مسألة معينة، يكتبها أناس ليس لهم ذكر ولا معرفة، وإذا تأملت ما كتبوه، وجدت أنه ليس صادرًا عن علم راسخ، وأن كثيرًا منه يكون نقولاً، لكن أحيانًا ينسبون النقل إلى قائله، وأحيانًا لا ينسبونه، فعلى كل حال نحن لا نتكلم في النيات، النية علمها عند الله عزَّ وجلَّ، لكن نقول: انتظر، رأيت مثلاً من يكتب في الصيام، يكتب رسائل في الصيام، يوجد رسائل في القوم الكبار في الصيام، ما هو خير منها، لكن النفس مولعة بكل جديد، إذا ظهر هذا في الأسواق ربما يشتغل الناس به عما هو أنفع.

كذلك في الحج كثرت المناسك الآن في الحج كثرة عجيبة، بينما كنا في زمن الطلب لا نعرف إلا ما رتبه الفقهاء في «زاد المستقنع» وغيره، أو أشياء قليلة، لكن ما شاء الله اليوم، حدِّث ولا حرج في المناسك، أحيانًا تجد الكاتب الفلاني الذي كتب هذه المناسك، تجده نقل العبارة برمتها، وشكلها، ونقطها، وإعرابها من كتاب آخر، ولا يقول: قال فلان في الكتاب الفلاني، وهذه سرقة، هذه ما هي سرقة مال يأخذه من الجيب، [بل] سرقة علم، لكن على كل حال بالنسبة للمؤلف الأول، هو يقول: لا يهمني إذا انتشر الكتاب، ونفع الخلق، فسواء كان باسمي، أو باسم الثاني ما يهم، لكن الكلام على هؤلاء الذين نعتبرهم سراقًا، نقول: رويدكم، هذا الموضوع كتب فيه العلماء الكبار، في «التحقيق والإضافة» للشيخ عبدالعزيز بن باز -حفظه الله تعالى- يغني عن كثير من الكتب، وكذلك أيضًا ما كتبه آخرون، لكن كون الإنسان كلما عنَّ له أن يكتب ويؤلف، من أجل أن يقول: يا ناس هذا الكتاب أحسن الكتب مثلاً، هذا ليس بصحيح، نقول: انتظر، وإذا كان لديك علم، وقدرة؛ فاشرح، هذه الكتب الموجودة، اشرحها شرحًا لأن كلًّا منها لا يوجد فيه الدليل على وجه كامل، اشرحها وتبين للناس، المهم أنه كما قال الشيخ: «ينبغي لمن قامت أهليته واستكمل أدواته وتعددت معارفه، وتمرس فيه بحثًا، ومراجعة، ومطالعة، وجردًا لمطولاته، وحفظًا لمختصراته، واستذكارًا لمسائله، كل هذه شروط لا توجد الآن عند بعض المؤلفين.

ولا تنس قول الخطيب:[١]: من صنف، فقد جعل عقله على طبق يعرضه على الناس.

☆ الشـــــرح ☆

هذا صحيح، من صنف فقد جعل عقله على طبق يعرضه على الناس أما تعرفون الطبق؟ ما هو؟

الصحن، يعني: كأن الإنسان الذي يؤلف، ويقرأ من تأليفه، كأنه يقول: يا جماعة، انظروا إلى عقلي، عقلي في هذا الكتاب، وهذا صحيح.

٥٩- موقفك من وهم من سبقك:

إذا ظفرت بوهم لعالم؛ فلا تفرح به للحط منه، ولكن افرح به لتصحيح المسألة فقط، فإن المصنف يكاد يجزم بأنه ما من إمام إلا وله أغلاط وأوهام، لا سيما المكثرين منهم.

وما يشغب بهذا، وفرح به للتنقص، إلا متعالم «يريد أن يطب زكامًا، فيحدث به جذامًا»[٢].

نعم؛ ينبه على خطأ أو وهم وقع لإمام، غمر في بحر علمه وفضله، لكن لا يثير الرهج عليه بالتنقص منه والحط عليه فيغتر به من هو مثله.

☆ الشـــــرح ☆

هذا أيضًا مهم جدًا، وهو موقف الإنسان من وهم من سبقه، أو من عاصره أيضًا، هذا الموقف له جهتان:

الجهة الأولى: تصحيح الخطأ، وهذا أمر واجب يجب على من عثر على وهم إنسان، ولو كان من أكبر العلماء في عصره، أو في عصر من سبقه، يجب عليه أن ينبه على هذا الوهم، وعلى هذا الخطأ، [لأن] بيان الحق أمر واجب، ولا يمكن أن يضيع الحق لاحترام من قال بالباطل؛ لأن احترام الحق أولى بالمراعاة واضح؟

---

(١) انظر «تذكرة الحفاظ» (٣/ ١١٤١)، و«سير أعلام النبلاء» (١٨/ ٢١٨).

(٢) «مجمع البلاغة» للراغب. (الشيخ بكر).

لكن هل يصرح بذكر قائل الخطأ أو الوهم؟ أو يقول: توهم بعض الناس، فقال: كذا وكذا، هذا ينظر للمصلحة، ننظر لما تقتضيه المصلحة، قد يكون من المصلحة ألا يصرح، كما لو كان يتكلم عن عالم مشهور في عصره، موثوق عند الناس، محبوب إليهم، فيقول: قال فلان: كذا وكذا، خطأ، فإن العامة لا يقبلون كلامه، بل يسخرون به، ويقول: من أنت حتى ترد على فلان، ولا يقبلون الحق، ففي هذه الحال، ينبغي أن يقول: من الوهم أن يقول القائل: كذا وكذا، ولا يقول: فلان، وقد يكون هذا الرجل الذي توهم متبوعًا يتبعه شرذمة من الناس، وليس له قدر في المجتمع، فحينئذٍ يصرح؛ لئلا يغتر الناس به، فيقول: قال فلان: كذا وكذا، وهو خطأ.

الوجه الثاني: **في موقف الإنسان من وهم مَن سبقه أو مَن عاصره أن يقصد بذلك بيان معايبه، لا بيان الحق من الباطل، بيان المعايب، وهذه إنما تقع من إنسان حاسد والعياذ بالله، يتمنَّى أن يجد قولاً ضعيفًا أو خطأ لشخص ما، فينشره بين الناس؛ ولهذا نجد أهل البدع يتكلمون في شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- وينظرون إلى أقرب شيء يمكن أن يقدح به، فينشرونه، ويعيبونه، مثلاً يقولون: خالف الإجماع في أن طلاق الثلاث واحدة، فيكون هذا شاذًّا، ومن شذَّ شذَّ في النار، يحكم بأن الإنسان إذا قال لامرأته: إن فعلت كذا فأنت طالق. بأن يكفر كفارة يمين، مع أنه لم يتكلم باليمين إطلاقًا، وإنما قال: إن فعلت كذا؛ فأنت طالق. مثلاً.**

يقول بأن الله - تعالى - لم يزل فعَّالاً، ولم يزل فاعلاً، وهذا يستلزم أن يكون مع الله قديم؛ لأن هذه المفعولات الواقعة بفعل الله، إذن جعل فعل الله قديمًا لم يزل، لزم أن تكون هذه المفعولات قديمة فيكون قد قال بإلهين، وما أشبه ذلك من الكلمات التي يأخذونها على أنَّها زلة من زلاته، يشهرونَها بين الناس، مع أن الصواب معه، لكن الحاسد والناقد، -والعياذ بالله - له مقام آخر، فأنت في وهم من سبقك يجب أن يكون قصدك الحق ومن كان قصده الحق، وفق للقبول، أما من كان قصده أن يظهر عيوب الناس، فإن من تتبع عورة أخيه، تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته فضحه ولو في بيت أمه.

ثم يقول: «إذا ظفرت بوهم لعالم فلا تفرح به للحط منه، ولكن افرح به لتصحيح المسألة فقط»، والحقيقة أنِّي أقول: لا تفرح به إطلاقًا، إذا عثرت على وهم عالم، فحاول أن تدفع اللوم عنه، وأن تذب عنه، لا سيما إذا كان من العلماء المشهود لهم بالعدالة، والخير، ونصح الأمة، أما أن تفرح به، فهذا لا ينبغي حتى وإن كان قصدك تصحيح الخطأ؛ ولهذا لو كانت العبارة: إذا ظفرت بوهم لعالم فلا تفرح به للحط منه،

ولكن التمس العذر له وصحح الخطأ. هذا صواب العبارة، أما أن أفرح لأنه أخطأ، من أجل أن أصحح الخطأ، فهذا ليس بصواب.

ثم قال: «فإن المنصف يكاد يجزم أنه ما من إمام إلا وله أغلاط وأوهام، لا سيما المكثرين منهم»، والأفصح أن يقول: لا سيما المكثرون منهم، نعم، يقول: المنصف: يعني الذي يتكلم بالعدل، ويتتبع أقوال العلماء، «يعلم أنه ما من إمام إلا وله أوهام وأخطاء»، ولا سيما المكثر منهم، الذي يكثر الكتابة،أو يكثر الفتوى؛ ولهذا قال بعضهم: من كثر كلامه كثر سقطه، ومن قلَّ كلامه قلَّ سقطه؛ لأنه ما فيه كلام إلا يؤخذ عليه.

قال: «وما يشغب بِهذا -يعني: يتخذه شغبًا- ويفرح به للتنقص، إلا متعالم، يريد أن... يطب زكامًا فيحدث به جذامًا».

والحقيقة أنه لا يفرح به، وللتنقص إلا إنسان معتدٍ، ومتعالم، معتدٍ يريد العدوان على الشخص نفسه، ويريد العدوان على ما عنده من العلم الصحيح؛ لأن الناس إذا رأوا هذا العالم أخطأ في مسألة، ضعفت قوة قوله عندهم، حتى في المسائل الصحيحة، فالإنسان الذي يشغب بهذه الأشياء، ويتتبع زلات العلماء، ويفشيها بين الناس، لا شك أنه معتدٍ لا على الشخص نفسه، بل على الشخص وعلى ما يحمله من صحيح القول.

ولهذا قال: «يريد أن يطب زكامًا، فيحدث به جذامًا». يعني: يريد أن يستشفي به بالزكام، ولكنه يحدث بذلك الجذام، أيهما أشد؟ الجذام أشد - والعياذ بالله -،؛ لأن الجذام مرض قتال فتاك مُعدٍ.

٦٠- دفع الشبهات[1]:

لا تجعل قلبك كالإسفنجة؛ تتلقى ما يَرِدُ عليها، فاجتنب إثارةَ الشُّبه وإيرادَها على نفسك أو غيرك، فالشبه خطافة والقلوب ضعيفة، وأكثر من يلقيها حمالة الحطب - المبتدعة- فتوقهم.

☆ الشـــــرح ☆

هذه الوصية أوصى بها شيخ الإسلام ابن تيمية لتلميذه ابن القيم، قال: «لا تجعل قلبك كالإسفنجة، يشرب ويقبل كل ما ورد عليه، ولكن اجعله زجاجة صافية، تبين ما

(١) «مفتاح دار السعادة» (ص ١٥٣). (الشيخ بكر).

وراءها، ولا تتأثر بما يرد عليها». وهذا مثل جيد من شيخ الإسلام -رحمه الله -، الزجاجة الصافية، لو ورد عليها ماء قذر، أو غيره ما يكدر الذي فيها، لكن ما فيها من الماء النافع، ظاهر أم غير ظاهر؟ ظاهر واضح، فبعض الناس يكون قلبه كالإسفنجة، كل شيء يشكك فيه، وتأتي (أرأيت)؟، أرأيت اليمنية، التي قالها ابن عمر لأهل اليمن لما سألوه عن مسائل، قال له: يا أبا عبد الرحمن: أرأيت، قال: اجعل «أرأيت» في اليمن: ما في أرأيت، كثير من الناس يكون قلبه غير مستقر، ويورد شبهات، وقد قال العلماء -رحمهم الله - قولاً حقًّا: وهو أننا لو طاوعنا الإيرادات العقلية، ما بقي علينا نص إلا وهو محتمل، مشتبه، ولهذا كان الصحابة -رضوان الله عليهم- يأخذون بظاهر الأقوال، بظاهر القرآن، بظاهر السنة، ولا يوردون، لو قال قائل: نعم لو كان الإيراد قويًا، أو كان هذا الإيراد قد أورد من قبل، فحينئذٍ يبحثه الإنسان، أما أن يجعل يفكر، إذا نام على فراشه: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى» أفلا يحتمل أن المراد بالأعمال الصلوات الأم، كالصلاة والزكاة والصيام، والحج، والباقي له، يمكن فيه احتمال، عقليًا ممكن، ثم يبني على هذا الاحتمال الذي أورده على نفسه احتمالات أخرى، وما أكثر هذا في بعض الناس، تجده دائمًا يورد إيرادات، وهذا في الواقع ثلم عظيم في تلقي العلم، اترك هذه الإيرادات امش على الظاهر، فهو الأصل، ولهذا اقرءوا الآن سيرة النبي ﷺ وسير الصحابة والأحاديث تجدوا المسألة على ظاهرها «ما يوردون» لما حدث الرسول ﷺ أصحابه بأن الله ينزل إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، ماذا قالوا؟ هل قالوا: يا رسول الله كيف ينزل؟ وهل السماء تسعه؟ وهل يخلو منه العرش؟ هل؟ [ما] قالوا هكذا، أبدًا.

ولما قال بأنه رأى رؤيا: إن الله وضع يده على رسول الله ﷺ وقال: حتى شعرت ببرد أنامله، هل قالوا: يا رسول الله، كيف هذا؟ كيف هذا يكون؟ أبدًا.

لما حدثهم أن الموت يؤتى به يوم القيامة، على صورة كبش بين الجنة والنار، ويذبح أمام الجنة والنار، ويقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت؟ هل قالوا: كيف يكون الموت كبشًا؟ أو لا؟ ما قالوها أبدًا. ولهذا أنا أنصح نفسي وإياكم ألَّا توردوا هذا على أنفسكم، لا سيما في أمور الغيب المحضة؛ لأن العقل يحار فيها، ما يدركها، فدعها على ظاهرها، ولا تكلف نفسك، يأتي إنسان يقول: «سبحان الله يوم القيامة المؤمنون نورهم يسعى بين أيديهم، وبأيمانِهم، والكافرون في ظلمة، كيف هذا؟ والمقام واحد، كيف يكون، بعض الناس يصل العرق ويلجمه، وبعضهم إلى كعبيه، كيف يكون هذا؟

يأتي الملكان الإنسان في قبره إذا دفن ويقعدانه، وكيف يكون هذا؟ اللبن فوق

رأسه ما يقدر يقوم.

كل هذه إيرادات يوردها الشيطان، فلذلك سلم في الأمور الغيبية المحضة، ولا تقلق، قل: سمعنا وآمنا، وصدقنا، وما وراءنا أعظم مما نتخيل. فهذا مما ينبغي لطالب العلم أن يسلكه؛ ولهذا قال: «لا تجعل قلبك كالإسفنجة، تتلقى ما يرد عليها، فاجتنب إثارة الشبه في نفسك، أو لغيرك.

«وإيرادها على نفسك أو غيرك، فالشبه خطافة، والقلوب ضعيفة»؛ يعني: أنك ربما تورد شبهة، والشبه خطافة، كالسهم تمضي فيه وأنت لا تدري، والقلوب ضعيفة.

«وأكثر من يلقيها حمالة الحطب، المبتدعة فتوقهم».

حمالة الحطب: الذين يأتون بالغثاء والعيدان والقش، ويوردونه؛ ولهذا أكثر الناس في الكلام من أهل الكلام، ولهذا يسمون أهل الكلام، والمتكلمة[(١)]، لماذا؟ لأنَّهم ليس عندهم إلا الكلام، والإيرادات، وانظر إلى كتبهم، التي بين يديك، ومن ذلك مثلاً: «تفسير الرازي»[(٢)]، تجده إذا تكلم في الآية أورد ألف سؤال، عليها، أو أكثر، كل هذا لا ينبغي لطالب العلم، العلم -والحمد لله - ظاهر، وبيِّن وسهل، فاحذر الإيرادات أن توردها، على نفسك، أو على غيرك، وقل في أمور الغيب: آمنا وصدقنا.

٦١- احذر اللحن:

ابتعد عن اللحن في اللفظ والكتب، فإن عدم اللحن جلالة، وصفاء ذوق، ووقوف على ملامح المعاني لسلامة المباني:

فعن عمر - رضي الله عنه - قال: تعلموا العربية؛ فإنها تزيد في المروءة[(٣)].

وقد ورد عن جماعة من السلف أنَّهم كانوا يضربون أولادهم على اللحن[(٤)].

وأسند الخطيب[(٥)] عن الرحبي قال: سمعت بعض أصحابنا يقول: إذا كتب لحان،

---

(١) انظر: «فتاويشيخ الإسلام ابن تيمية» (١١/ ٣٦٦).

(٢) هو محمد بن عمر بن الحسين بن علي، أبو عبد الله، المشهور بفخر الدين الرازي، درس الفلسفة والفقه، وعلم الكلام، كان كثير الترحال، له مناظرات عديدة مع المعتزلة، كان شافعي المذهب، وأشعري الأصول، وقيل: إنه رجع إلى مذهب السلف آخر حياته، فالله أعلم. «وفيات الأعيان» (٤/ ٢٤٨).

(٣) «الجامع» للخطيب (٢/ ٢٥). (الشيخ بكر).

(٤) «الجامع» للخطيب (٢/ ٢٨، ٢٩). (الشيخ بكر).

(٥) «الجامع» للخطيب (٢/ ٢٨، ٢٩). (الشيخ بكر).

فكتب عن اللحان لحان آخر، صار الحديث بالفارسية.

وأنشد المبرد[١]

النحو يبسط من لسان الألكن والمرء تكرمه إذا لم يلحن
فإذا أردت من العلوم أجلها فأجلها منها مُقيم الألسُن[٢]

وعليه؛ فلا تحفل بقول القاسم بن مخيمرة -رحمه الله تعالى-: تعلم النحو: أوله شغل، وآخره بغي.

☆ الشـــــرح ☆

بغي، ما أعلم معناه، الحقيقة الشيخ بكر أبو زيد، لا تقرأ كتبه إلا وأنت كالقاموس.

ولا بقول بشر الحافي[٣]- رحمه الله تعالى-: لما قيل له: تعلم النحو، قال: أضل. قال: قل ضرب زيدٌ عمرًا. قال بشر: يا أخي! لم ضربه؟ قال: يا أبا نصر! ما ضربه، وإنما هذا أصل وضع. فقال بشر: هذا أوله كذب، لا حاجة لي فيه. رواهما الخطيب في «اقتضاء العلم العمل».

☆ الشـــــرح ☆

اللحن معناه: الميل سواء في قواعد التصريف أو في قواعد الإعراب، قواعد الإعراب: يمكن القيام بِها فيعرف الإنسان القواعد ويطبق لفظه أو كتابته عليه، قواعد التصريف: هي المشكلة أحيانًا يأتي ميزان الصرف على غير قياس، يأتي سماعيًّا بحتًا، وحينئذٍ لا يخلو الإنسان من الغلط فيه، إذن عندك جموع تكسير، تحتاج إلى ضبط، عندك أبيات المصادر، تحتاج إلى ضبط، ومع هذا لو ضبطتها، سوف تجد شاذًّا كثيرًا

---

(١) «الجامع» للخطيب (٢/ ٢٨). (الشيخ بكر).

(٢) لبعض العلماء تعقيب على ما أنشده المبرد من أجلِّ العلوم علم التوحيد، لكن الجلالة هنا نسبية إلى علوم الآلة (الشيخ بكر).

(٣) هو بشر بن الحارث بن عبدالرحمن بن عطاء، أبو نصر المروزي، المشهور بالحافي، الإمام المحدث الزاهد، فاق أهل عصره في الورع والزهد، كان في أول عمره يطلب العلم، ويمشي حافيًا فاشتهر بذلك، وُلد سنة (١٥٢هـ)، وتوفي سنة (٢٢٧هـ). انظر «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٧/ ٣٤٢).

عنها، لكن نقول: سددوا وقاربوا، المهم أن تحرص على ألا يكون في كلامك لحن في الإعراب، ولا في الصرف، وكذلك في كتابتك، وأنا من الذين يكرهون أن يسمعوا كلامًا ملحونًا، يكاد يكون كالصاعقة عندي لا سيما إذا كان لحنًا لا مبرر له إطلاقًا، أما اللحن الذي له وجه، فالإنسان يتصبر، ويقول: ما دام فيه وجه، ولو ضعيف فيدرأ، لكن لو قال إنسان: قام الرجلان فأكرمت الرجلان، ومررت بالرجلان، ماذا يقول في هذا؟ هذا لحن، لكن ما دام فيه لغة، بلزوم الألف المثناة تَهون عند الإنسان لكن أحيانًا لا مبرر إطلاقًا.

المهم عليك أن تعدل لسانك، وأن تعدل بنانَك، وألَّا تكتب إلا بعربية، أو لا تنطق إلا بعربية، فإن عدم اللحن جلالة وصفاء ذوق، ووقوف على ملامح المعاني؛ لسلامة المباني، كلما سلم المبنى، اتضح المعنى.

وعن عمر - رضي الله عنه - قال: «تعلموا العربية[1]؛ فإنَّها تزيد في المروءة». هذا يقوله في عهده، يأمر بتعلم العربية خوفًا من أن تغير بلسان الأعاجم بعد الفتوحات، لكن مع الأسف أننا في هذا الزمن الذي ليس لنا شخصية، وصرنا أذيالاً وأتباعًا لغيرنا، صار منا من يرى أن الذي يتكلم بالإنجليزية، أو الفرنسية هو ذو المروءة، ويفخر إذا كان يعرف الإنجليزية والفرنسية، بل إن بعضنا -نسأل الله الهداية- يعلم أولاده اللغة غير العربية، بعض الصبيان إذا قلت: مع السلامة، يقول ماذا؟ قال: «باي باي»، معناه عدل عن اللغة العربية إلى لغة أخرى، في الهاتف، إذا اتصل بإنسان، ماذا يقول؟ «ألوا»، إيش ألو هذه؟ لماذا لم تقل: السلام عليكم؛ لأنك الآن تستأذن، فهذه الأشياء مع الأسف، لما كنا ليس لنا شخصية، ويجب أن يكون لنا الشخصية العليا؛ لأننا -والحمد لله - أهل دين وشريعة، لكن صار بعضنا، أذيالاً.

عمر يقول: تعلموا العربية، فإنَّها تزيدكم مروءة. وبناءً على ذلك كلما كان الإنسان أعلم بالعربية، صار أكبر مروءة وأكثر.

قال: «وقد ورد عن جماعة من السلف أنهم كانوا يضربون أولادهم على اللحن».

واللحن قليل في ذلك الوقت، ومع ذلك يضربونهم عليه. عندنا الآن لا أحد يضرب على اللحن لا أولاده ولا تلاميذه ولا غيره، على الأقل بالنسبة للتلاميذ إذا أخطأ الإنسان في العربية فرد عليه حتى لا يكون أخطأ، وظن أن سكوتك يدل على صحة ما نطق.

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» برقم (٨٩)، والبيهقي (٢/ ١٨).

٦٢- الإجهاض الفكري:

احذر «الإجهاض الفكري»؛ بإخراج الفكرة قبل نضوجها.

☆ الشـــــرح ☆

هذا بمعنى ما سبق أنك لا تتعجل، من حين ما يتبين لك الشيء تخرجه، لاسيما إذا كان هذا الشيء الذي أنت تريد أن تخرجه مخالفًا لقول أكثر العلماء، أو مخالفًا لما تقتضيه الأدلة الأخرى الصحيحة؛ لأن بعض الناس يمشي مع بُنَيَّات الطريق، فتجده إذا مر بحديث، ولو كان ضعيفًا شاذًّا، أخذ به، ثم قام يتكلم به في الناس، فيظن الناس بهذا أنه أدرك من العلم ما لم يدركه غيره، فنقول: الذي بينك وبين الله إذا رأيت حديثًا يدل على حكم تعارضه الأحاديث الصحيحة التي هي عماد الأمة، والتي تتلقاها الأمة بالقبول فلا تتعجل، وكذلك إذا رأيته يدل على حكم مخالف لقول الجمهور فلا تتعجل، لكن إذا تبين لك الحق، فلابد من القول به، هذا سماه الشيخ بكر «الإجهاض الفكري» يعني: كأن امرأة وضعت حملها قبل أن يتم.

٦٣- الإسرائيليات الجديدة[١]:

احذر الإسرائيليات الجديدة في نفثات المستشرقين، من يهود ونصارى، فهي أشد نكاية، وأعظم خطرًا من الإسرائيليات القديمة، فإن هذه قد وضح أمرها، ببيان النبي ﷺ الموقف منها، ونشر العلماء القول فيها، أما الجديدة المتسربة إلى الفكر الإسلامي في أعقاب الثورة الحضارية، واتصال العالم بعضه ببعض، وكبح المد الإسلامي، فهي شر محض، وبلاء متدفق، وقد أخذت بعض المسلمين عنها سِنَة، وخفض الجناح لها آخرون، فاحذر أن تقع فيه. وقَى الله المسلمين شرَّها.

☆ الشـــــرح ☆

يريد بهذا الأفكار الدخيلة التي دخلت على المسلمين بواسطة اليهود والنصارى فهي ليست إسرائيليات إخبارية، بل إسرائيليات فكرية، دخل على كثير من الكُتَّاب الأدبيين وغير الأدبيين، أفكار دخيلة في الواقع، منها ما يتعلق بالمعاملات، ومنها ما يتعلق بالعبادات، ومنها ما يتعلق بالأنكحة، حتى أن بعض الكُتَّاب ينكر تعدد النساء

---

(١) «مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها» لعلال الفاسي (صفحة ب). (الشيخ بكر).

الذي ذهب كثير من العلماء إلى أن التعدد أفضل من الإفراد، وهو ينكر التعدد ويقول: هذا في زمن ولَّى وراح، ولم يدرِ أن التعدد في هذا الزمن أشد إلحاحًا منه فيما سبق، لكثرة النساء، وكثرة الفتن، واحتياج النساء إلى من يحصن فروجهن، كذلك أيضًا من بعض الأفكار ما يتعلق بحال النبي ﷺ وتعدد الزوجات في حقه، ومن الأفكار أيضًا ما يتعلق بالخلافة والإمامة، كيف كان أبو بكر يبايع له بدون أن يستشار له الناس كلهم حتى العجوز والطفل وما أشبه ذلك، المهم أن هناك أفكارًا جديدة واردة، اشتبهت على بعض الكُتَّاب المسلمين، فيجب على الإنسان الحذر منها، وأن يرجع إلى الأصول في هذه الأمور فإنَّها خير.

٦٤- احذر الجدل البيزنطي[١]:

أي: الجدال العقيم أو الضئيل، فقد كان البيزنطيون يتحاورون في جنس الملائكة، والعدو على أبواب بلدتهم حتى داهمهم.

وهكذا الجدل الضئيل يصد عن السبيل.

وهدي السلف : الكف عن كثرة الخِصام والجدال، وأن التوسع فيه من قلةِ الورع؛ كما قال الحسن إذ سمع قومًا يتجادلون: هؤلاء ملوا العبادة، وخف عليهم القول، وقل ورعهم فتكلموا. رواه أحمد في «الزهد» وأبو نعيم في «الحلية»[٢].

هذا أيضًا من المهم، الجدال البيزنطي، وهو الجدال العقيم، أو الضئيل، فقد كان البيزنطيون يتحاورون في جنس الملائكة، والعدو على أبواب مدينتهم حتى داهمهم، الجدل العقيم، الذي لا فائدة منه، أو الجدل الذي يؤدي إلى التنطع في المسائل والتعمق فيها بدون أن يكلفنا الله ذلك، دع هذا الجدل، اتركه؛ لأنه لا يزيدك إلا قسوة في القلب، وكراهة للحق، إذا كان مع خصمك وغلبك فيه؛ فلهذا دع هذا النوع من الجدل.

أما الجدل الحقيقي الذي يقصد به الوصول إلى الحق، ويكون جدلاً مبنيًّا على السماحة، وعدم التنطع فاعلم أنه مأمور به، قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ وذكر المؤلف -وفقه الله - مثالاً للجدل العظيم، جنس الملائكة ما هم؟ تجادل هؤلاء المتكلمون، يتجادلون.... جنسهم من كذا، وجنسهم من كذا، ونحن نعلم أنهم خلقوا من نور، وأنهم أجسام، وأنهم لهم

---

(١) «معجم التراكيب» (ص ٢٨٠). (الشيخ بكر).

(٢) وذكره الحافظ ابن رجب في «فضل العلم على السلف على الخلف». (الشيخ بكر).

أجنحة، وأنهم يصعدون وينزلون، إلى آخر ما ذكر الله تعالى في الكتاب، أو ذكره النبي ﷺ في السنة من أوصافهم، ولا نتعد في أمور الغيب غير ما بلغنا ولا نبحث كيف؟ ولم؟ لأن هذا أمر فوق العقول، وأيضًا سمعنا قصة ثانية مماثلة، كان العدو على أبواب المدينة، وكان الناس يتجادلون، أيهما خلق أولاً الدجاجة أم البيضة؟

قولوا لي: أيهما أول؟ الدجاجة الأولى، ومن أين تأتي الدجاجة؟ لا تأتي الدجاجة إلا من البيضة؟ ومن أين تأتي البيضة؟ إذًا حلقة مفرغة لا فائدة فيها، فمثل هذا الجدل يجب على الإنسان أن يترفع عنه؛ لأن الجدل كما أسلفنا يوجب قسوة القلوب، والتباغض، وكراهة الحق، إذا كان مع خصمك، وإضاعة الوقت بلا فائدة، وشحن النفوس؛ لأن الإنسان عندما يجادل، لا شك أن يشحن نفسه؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾. لأن الجدال سوف يصدك عما هو أهم؛ ولذلك تجدك إذا جادلت أحدًا، وانتهى الجدال، ثم خلوت بنفسك، قلت: لو قلت كذا لغلبته، وما أشبه ذلك.

إذن فالجدال العقيم لا خير فيه، أما الذي لابد منه، ويكون بأسلوب هادئ، فجيد، ومن ذلك أيضًا ما ابتلي به أهل الكلام فيما يتعلق بالعقيدة، وصاروا يتنطعون، ويقولون مثلاً: الكلام -كلام الله - هل هو صفة فعلية أو ذاتية، وهو حادث أو قديم؟ وما أشبه ذلك من الكلام.

وهل نزوله إلى السماء الدنيا حقيقة ومجاز؟ وهل أصابعه حقيقة أو مجاز؟[1]، وكم أصابعه؟ وما أشبه ذلك، والله إن هذا الحديث يا إخوان إنه يقسِّي القلب، وتنتزع الهيبة، [أعني] هيبة الله عزَّ وجلَّ وتعظيمه وإجلاله من القلب، إذا كان الإنسان يريد أن يتكلم عن صفات الله كأنما يشرح جثة ميت، سبحان الله، الإنسان قبل أن يدخل في هذا الأمر تجده إذا ذكر الله اقشعر جلده من هيبة الله وعظمته، لكن إذا جعل يفصل في هذه الأمور قسي قلبه، وزالت هيبة الله من قلبه وعظمته، وصار الرب عزَّ وجلَّ كأنه جسد يجزَّأ -والعياذ بالله - فإياك إياك، احذر هذا، فإنه مجرب، إن الإنسان إذا دخل في هذه المعمعة قسا قلبه، ولم يخشع لعظمة الله وجلاله، العجائز الآن عندها في قلوبها ما هو أعظم من مثل هؤلاء الذين يتكلمون في هذه الأمور.

الرب عزَّ وجلَّ يتكلم وكفى، كلامه حق، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾، إما صفة فعلية، أو أحادية، أو محدثة أو غير محدثة، هذا أحدثه أهل الكلام، وأضلوا به

(١) انظر كتاب «التوحيد» لابن جزيمة (١/ ٢٨٩، ٢٩٠).

الناس وشغلوهم، وعلم الكلام، كلام فارغٌ لا قيمة له، هل الصحابة لما أخبرهم الرسول ﷺ بأن الله تعالى إذا تكلم بالوحي أخذت السماوات منه رجفة... إلخ، هل قالوا: يا رسول الله كلام الله آحاده مخلوقة؟ هل هو حادث؟ أبدًا. إنما صار في قلوبهم هيبة لكلام الله عزَّ وجلَّ حيث إن السماوات ترتجف منه على عظمتها، ولما أخبر الرسول ﷺ أن الله ينزل إلى السماء الدنيا فيقول: «من يدعوني فأستجيب له» علموا أن الله يقرب من عباده كيف شاء تشجيعًا لهم على دعائه، واستغفاره، وسؤاله، أما كيف ينزل؟ وإذا مضى ثلث الليل هنا، وفي بلد آخر، ما في ثلث ليل؟ وما أشبه ذلك، كل هذا عقيم البحث فيه عقيم.

كن كما كان الصحابة - رضوان الله عليهم - لا يسألون عن مثل هذه الأمور؛ لأنَّهم إذا سألوا ونقَّبوا وبحثوا، فإن الضريبة هي قسوةُ القلب، [وهو شيء] مؤكد، لكن إذا بقي الرب عزَّ وجلَّ محل الإجلال والتعظيم في قلبك، وعدم البحث في هذه الأمور، صار هذا أجل وأعظم، فاستمسك به، فهذا -إن شاء الله - هو الحق، نعم إذا ابتليت بشخص يريد أن يلجئك إلى الكلام في هذا، فلابد أن تتكلم؛ لئلا تدع المجال له، يهيج ويموج، مع أنه هناك قنبلة تصده عما قال، أن تقول له: هل أنت أفضل من الصحابة، أو لا؟ لن يقول: أنا أفضل.

قل له: هل الصحابة بحثوا عن هذا مع رسولهم ﷺ وهم أحرص منك على العلم وعندهم مَن يجيبهم على ما سألوا وهو الرسول ﷺ يجيبهم بأصوب الجواب وأصحه، كيف تسأل الآن من لا يستطيع أن يجيبك بالصواب؟! من يجيبك إن أجابك بخطأ، أو صواب، كيف تسأل الآن، فعندنا مانع يمنع من إصابة الصواب وهو أن الإنسان المجيب قد يخطئ وقد يصيب، وعندنا أيضًا الداعي، ما الداعي إلى هذا الكلام؟ أَحُبّ الله؟ أو تعظيم الله؟ أبدًا، بل هذا مما يقلل عظمة الرب عزَّ وجلَّ، إذا تكلمت بِهذا الكلام، قل: آمنا وصدقنا واجعل عظمة الرب عزَّ وجلَّ وهيبته أكبر من [كل] شيء، ودع التفاصيل في هذا واسلك مسلك من سبقك. قد يقول قائل: إن علماء السنة، ألفوا في هذا المؤلفات. نقول: نعم، لأنَّهم ابتلوا بمن يقول، وإذا ابتلوا بهذا ماذا يصنعون؟ يتركون المجال لهؤلاء المبطلون يتكلمون كما شاءوا ويتركون ما جاءت به السنة؟ لا.. ما يصير، لابد أن يتكلموا، لكن اجعل قلبك مملوءًا بهيبة الله -عز وجل-، وعظمته، وأنه أجل من أن تأخذ صفة من صفاته، وتمزقها، فهذا ما ننصحكم به وننصح أنفسنا، ونسأل الله أن يعيننا، ونحن رأينا أن الخوض في هذا التعمق ضرره أكثر من نفعه بكثير، فهذا يشبه ما قاله الشيخ في عدم الجدال، وأن نترك الجدال

العقيم الذي لا فائدة منه.

٦٥- لا طائفية، ولا حزبية يعقد الولاء والبراء عليها[١]

أهل الإسلام ليس لهم سمة سوى الإسلام والسلام، فيا طالب العلم بارك الله فيك وفي علمك، اطلب العلم، واطلب العمل، وادع إلى الله تعالى على طريقة السلف.

ولا تكن خرَّاجًا، ولَّاجًا في الجماعات، فتخرج من السعة إلى القوالب الضيقة، فالإسلام كله لك جادةً، ومنهجًا، والمسلمون جميعهم هم الجماعة، وإن يد الله مع الجماعة فلا طائفية ولا حزبية في الإسلام.

وأعيذك بالله أن تتصدع، فتكون نهابًا بين الفرق والطوائف والمذاهب الباطلة، والأحزاب الغالية، تعقد سلطان الولاء والبراء عليها.

فكن طالب علم على الجادة، تقفو الأثر، وتتبع السنن، تدعو إلى الله على بصيرة، عارفًا لأهل الفضل فضلهم وسابقتهم.

وإن الحزبية ذات المسارات والقوالب المستحدثة التي لم يعهدها السلف من أعظم العوائق عن العلم، والتفريق عن الجماعة، فكم أوهنت حبل الاتحاد الإسلامي، وغشيت المسلمين بسببها الغواشي.

فاحذر- رحمك الله - أحزابًا وطوائف طاف طائفها، ونَجَمَ بالشرِّ ناجمها، فما هي إلا كالميازيب، تجمع الماء كدرًا، وتفرقه هدرًا؛ إلا من رحمه ربك، فصار على مثل ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم.

☆ الشـــــرح ☆

هذا الفصل مهم، وهو تخلي طالب العلم عن الطائفية والحزبية، بحيث يعقد الولاء والبراء علي طائفة معينة، أو على حزب معين، فإن هذا لا شك آثم، فإن هذا لا شك خلاف منهج السلف، فالسلف الصالح ليس عندهم حزب، كلهم حزب واحد، كلهم ينطوون تحت قول الله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾، فلا حزبية، ولا تعدد، ولا موالاة، ولا معاداة إلى على حسب ما جاء في الكتاب والسنة، فمن الناس مثلًا من يتحزب إلى طائفة معينة، يقرر منهجها، ويستدل عليه بالأدلة، التي

---

(١) انظر «فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (٣/ ٣٤١- ٣٤٤، ٤١٥، ٤١٦، ٤١٩، ٤٢١) فهو مهم، و(٤/ ٤٦- ١٥٤) مهم أيضًا، و(١١/ ٥١٢، ٥١٤، ٥١٥)، و(٣٦/ ١٧٩، ١٨٠، و٣٧/ ٢٨). (الشيخ بكر).

قد تكون دليلًا عليه، وقد تكون دليلا له، ويحامي دونَها، ويضلل من سواها، حتى وإن كانوا أقرب إلى الحق منها يضلله، ويأخذ بمبدأ «من ليس معي فهو علي»، وهذا مبدأ خبيث، أي إن بعض الناس يقول: إذا لم تكن معي، فأنت علي، من قال هذا؟

هناك وسط بين أن يكون لك أو عليك، وإذا كان عليك بالحق، فليكن عليك، وهو في الحقيقة معك؛ لأن النبي ﷺ قال: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»[١]. ونصر الظالم أن تمنعه من الظلم، فلا حزبية في الإسلام، ولذلك لما ظهرت الأحزاب في المسلمين، تنوعت الطرق، وتفرقت الأمة، وصار بعضهم يضلل بعضًا، ويأكل لحمَ أخيه ميتًا، فالواجب عدم ذلك، الآن مثلا يكون بعض الناس طالب علم عند شيخ من المشايخ، ينتصر لهذا الشيخ بالحق وبالباطل، ويعادي من سواه ويضلله ويبدعه، ويرى أنه -أي: شيخهِ هو العالم المصلح ومن سواه إما جاهل وإما محسن وهذا غلط كبير، خذ الحق من أي إنسان وإذا استروحت نفسك إلى شخص من الناس فالزم مجلسه، لكن لا يعني ذلك أن تكون معه على الحق والباطل، وأن تُضَلِّل من سواه أو تزدريه أو ما أشبه ذلك، فإن هذا غلط.

يقول الشيخ: أهل الإسلام ليس لهم سمة سوى الإسلام والسلام».

صحيح: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾، كلنا مسلمون، فهذه سمة المسلم، وعلامته أن يكون مسلمًا لله، مستسلمًا له، قائمًا بأمره، وتابعًا لرسوله ﷺ هذه هي سمة المسلم.

فيا طالب العلم بارك الله فيك وفي علمك، اطلب العلم، واطلب العمل، لا تكن مثل بعض الناس، ليس له إلا كتب مجموعة، يحفظ كثيرًا ويفهم كثيرًا، لكنه يعمل قليلًا، فهذا لا ينتج، كن طالبًا للعلم، عاملًا به، داعيًا إلى الحق، ثلاثة أشياء؛ [الأول]: صدق الطلب. والثاني: العمل. والثالث: الدعوة، لابد من هذا، أما مجرد أن تحشو العلوم، ولكن لا ينتفع الناس بعلمك، فهذا نقص كبير، وادع إلى الله تعالى على طريقة السلف، وما هي طريقة السلف في الدعوة إلى الله؟ هي التي أرشدهم الله إليها في قوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ لين في موضع اللين، وشدة في موضع الشدة.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى- عند علامة أهل العبودية[٢]:

العلامة الثانية: قوله: و«لم ينسبوا إلى اسم»، أي: لم يشتهروا باسم يعرفون به

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٤٤٣، ٦٩٥٢)، وعبد بن حميد (١٤٠١) من حديث أنس.

(٢) «مدارج السالكين» (٣/ ١٧٢). (الشيخ بكر).

عند الناس من الأسماء التي صارت أعلامًا لأهل الطريق.

وأيضًا، فإنهم لم يتقيدوا بعمل واحد يجري عليهم اسمه، فيعرفون به دون غيره من الأعمال؛ فإن هذا آفة في العبودية، وهي عبودية مقيدة.

☆ الشـــــرح ☆

هذا هو الصحيح؛ العبودية المطلقة أن يعبد الإنسان ربه على حسب ما تقتضيه الشريعة، مرة من المصلين، ومرة من الصائمين، ومرة من المجاهدين، ومرة من المتصدقين، حسب ما تقتضيه المصلحة؛ ولهذا تجد النبي ﷺ هكذا حاله لا تكاد تراه صائمًا إلا وجدته صائمًا، ولا مفطرًا إلا وجدته مفطرًا، ولا قائمًا إلا وجدته قائمًا، ولا نائما إلا وجدته نائمًا، يتبع المصلحة، أحيانًا يترك الأشياء التي يحبها من أجل مصلحة الناس، فإياك أن تكون قاصرًا على عبادة معينة، بحيث لا تتزحزح عنها، ولو كان غيرها أفضل منها. تجد مثلاً بعض العباد يلزم المساجد، ونعم البيوت مساجد الله عزَّ وجلَّ، لكنه لا يحدث نفسه يومًا من الأيام أن يطلب العلم، وكذلك أيضًا طالب العلم يأخذ بالعلم، ويحرص عليه، ويذاكر، ويبحث، ولكن لا تكاد تجده يصلي في الليل، ولا يصلي الضحى، ولا يتعبد بالتسبيح والتهليل أو التكبير، فيحصر نفسه على شيء واحد، والإنسان العابد هو الذي تنتقل به العبادة حسب ما تقتضيه المصلحة، وحسب ما يكون أخشع لله تعالى، وأذل له وأعبد له، ولهذا سماها ابن القيم -رحمه الله -: العبادة المطلقة، العبادة المقيدة.

وأما العبودية المطلقة؛ فلا يعرف صاحبها باسم معين من معاني أسمائها، فإنه مجيب لداعيها، على اختلاف أنواعها، فله مع كل أهل عبودية نصيب يضرب معهم بسهم؛ فلا يتقيد برسم ولا إشارة، ولا اسم، ولا بزي، ولا طريق وضعي اصطلاحي، بل إن سئل عن شيخه؟ قال: الرسول، وعن طريقه؟ قال: الاتباع. وعن خرقته؟ قال: لباس التقوى، وعن مذهبه؟ قال: تحكيم السنة. وعن مقصده ومطلبه؟ قال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾. وعن رباطه وعن خانقاه؟ قال: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ وعن نسبه؟ قال:

أبـي الإسـلام لا أب لـي سـواه ... إذا افـتـخـروا بـقـيـس أو تـمـيـم

☆ الشـــــرح ☆

قاله النبي ﷺ في ضالة الإبل لما سئل عن التقاطها، غضب ﷺ وقال: «مالك ولها، معها سقاؤها وحذاؤها، ترد الماء، وترعى العشب، حتى يجدها ربُّها»[1] ابن القيم، نقلها إلى هذا المعنى الجميل؛ يعني: أن هؤلاء العباد الذين تفننوا في العبادة. وأخذوا من كل نوع منها بنصيب، لو سئلوا من أين يجري عليك الرزق؟ من أين يأتيك الرزق؟ يجيب بها، ما لك ولي، دعني يرزقني الله عزَّ وجلَّ، لكنه -رحمه الله - أتي بلفظ الحديث «معها حذاؤها وسقاؤها، ترد الماء، وترعى الشجر حتى تلقي ربَّها» والحديث.. حتى يجدها ربُّها، ولكن هو يريد بهذا العابد الذي تتنوع عباداته، حسب ما يكون أرضى لله عزَّ وجلَّ، يقول هكذا حتى يلقَى ربه عزَّ وجلَّ.

وعن مأكله وشرابه؟ قال: ما لك ولها؟ معها حذاؤها وسقاؤها، ترد الماء، وترعى الشجر، حتى تلقى ربَّها.

واحسرتاه تقضَّى العمر وانصرمت ساعاته بين ذلٍّ العجز والكسل
والقوم قد أخذوا درب النجاة وقد ساروا إلى المطلب الأعلى على مَهَلِ

ثم قال: قوله: أولئك ذخائر الله حيث كانوا، ذخائر الملك: ما يخبأ عنده، ويذخره لمهماته، ولا يبذله لكل أحدٍ، وكذلك ذخيرة الرجل: ما يذخره لحوائجه ومهماته، وهؤلاء؛ لما كانوا مستورين عن الناس بأسبابِهم، غير مشار إليهم، ولا متميزين برسم دون الناس، ولا منتسبين إلى اسم طريق أو مذهب أو شيخ أو زي؛ كانوا بِمنْزلة الذخائر المخبوءة.

وهؤلاء أبعد الخلق عن الآفات، فإن الآفات كلها تحت الرسوم، والتقيد بِها، ولزوم الطرق الاصطلاحية، والأوضاع المتداولة الحادثة.

هذه هي التي قطعت أكثر الخلق عن الله، وهم لا يشعرون.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٥٩٢)، ومسلم برقم (١٧٢٢)، وأبو داود برقم (١٧٠٨)، والترمذي برقم (١٣٧٣)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه برقم (٢٥٤٩)، والنسائي في «الكبرى» برقم (٥٧٧٤).

☆ الشـــــرح ☆

صحيح لا شك أن الأمر كما قال الشيخ ابن القيم -رحمه الله -، هؤلاء الذين لهم مراسم معينة، وأشكال معينة، وطقوس معينة، هؤلاء لا شك أنهم منقطعون عن الله عزَّ وجلَّ، بحسب ما معهم من هذه الرسومات الاصطلاحية، وما أشبهها، تجد الواحد منهم إذا رأيته، قلت: من هذا الرجل؟ من هذا العالم؟ لكنه عالم بالزي والشكل فقط، وليس عنده علم راسخ، بل وربما تقول: وإيمانه ضعيف أيضًا، وإلا لكان يعتمد على ما عنده من العلم، والإيمان والدعوة والإصلاح.

والعجيب أن أهلها هم المعروفون بالطلب والإرادة، والسير إلى الله، وهم- إلا الواحد بعد الواحد- المقطوعون عن الله بتلك الرسوم والقيود.

☆ الشـــــرح ☆

العجب يعني أن الإنسان يستغرب أن يكون هؤلاء الذين أخذوا العلم بالرسوم والاصطلاحات الحادثة هم المعروفون بالطلب والإرادة؛ لأنَّهم يغرُّون الناس بلباسهم، وهيئاتهم، ونبرات كلامهم، وغير ذلك.

لكن يقول: «وهم إلا الواحد بعد الواحد المقطوعون عن الله بتلك الرسوم والقيود».

ومعلوم أن هذه بلية عظيمة أن يقطع الإنسان عن الرب عزَّ وجلَّ، ويكون بين الناس مغرورًا ومغترًّا به، وأهم شيء للإنسان أن يكون وجيهًا عند الله عزَّ وجلَّ، هذا أهم شيء، وأنت إذا كنت وجيهًا عند الله، فستكون وجيهًا عند الخلق، أصلح ما بينك وبين الله يصلح الله ما بينك وبين الخلق، أما مراعاة الناس، ومراءاة الناس، فهذا غلط، عليك بالإخلاص في النية وإن جئت على غير الهيئات التي يأتي عليها بعض الناس في غير هذه البلاد، تجد أن العلماء لهم لباس خاص، وأن العباد أيضًا لهم حلية معينة، كل هذا من أهل الاغترار والغرور، إلا من شاء الله مثل ما قال ابن القيم: «الواحد بعد الواحد»، فعليك أن تجمِّل باطنك بتقوى الله عزَّ وجلَّ، فإن لباس التقوى ذلك خير.

وقد سئل بعض الأئمة عن السنة؟ فقال: ما لا اسم له سوى «السنة». يعني أن أهل

السنة ليس لهم اسم ينسبون إليه سواها[١] .

فمن الناس من يتقي بلباس غيره، أو بالجلوس في مكان لا يجلس في غيره، أو مشية، لا يمشي غيرها أو بزي وهيئته لا يخرج عنهما، أو عبادة معينة لا يتعبد بغيرها وإن كانت أعلى منها، أو شيخ معين لا يلتفت إلى غيره، وإن كان أقرب إلى الله ورسوله منه.

☆ الشـــــرح ☆

هذا معنى ما قلنا قبل قليل: إن بعض الناس يتقيد وهذا غلط، الواجب أن الإنسان يكون مع الخير حيثما كان.

فهؤلاء كلهم محجوبون عن الظفر بالمطلوب الأعلى، مصدودون عنه، قد قيدتْهم العوائد، والرسوم، والأوضاع، والاصطلاحات عن تجريد المتابعة، فأضحوا عنها بمعزل، ومنزلتهم منها أبعد منزل، فترى أحدهم يتعبد بالرياضة، والخلوة، وتفريغ القلب، ويعد العلم قاطعًا له عن طريق، فإذا ذكر له الموالاة في الله والمعاداة فيه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عد ذلك فضولاً وشرًا، وإذا رأوا بينهم من يقوم بذلك؛ أخرجوه من بينهم، وعدوه غيرًا عليهم، فهؤلاء أبعد الناس عن الله، وإن كانوا أكثر إشارة. والله أعلم. اهـ.

☆ الشـــــرح ☆

قوله: «يتعبد بالرياضة» ليس المراد بالرياضة، الرياضة البدنية، بل الرياضة القلبية، على زعمهم، فتجدهم منعزلين عن الناس، بعيدين عن الناس، لا يأمرون بالمعروف، ولا ينهون عن المنكر، ولا يتعلمون ظنًا منهم أن هذا هو الخير لكن هم في الواقع ضلوا، فالخير أن تتبع الخير حيثما كان، فتارة في مجالس العلم، وتارة في مصاف الجهاد، وتارة في الحسبة، وتارة في الصلاة، وتارة في القرآن، حسب ما تراه أنه أنفع لعباد الله، وأخشع لقلبك، لكن من الناس، من لا يتحمل، فتجده يركن إلى شيء معين من العبادة يدعي أن بها صلاح قلبه، ويستمر عليها.

---

(١) رواه ابن عبد البر في «فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء (ص٣٥)، ونسبه للإمام مالك، والقاضي عياض في «ترتيب المدارك» (١/ ١٧٢).

٦٦- نواقض هذه الحلية:

يا أخي! -وقانا الله وإياك العثرات- إن كنت قرأت مثلاً من «حلية طالب العلم» وآدابه، وعلمت بعضًا من نواقضها، فاعلم أن من أعظم خوارمها المفسدة لنظام عقدها:

١- إفشاء السرِّ.
٢- ونقل الكلام من قوم إلى آخرين.
٣- والصلف واللسانة.
٤- وكثرة المزاح.
٥- والدخول في حديث بين اثنين.
٦- والحقد.
٧- والحسد.
٨- وسوء الظن.
٩- ومجالسة المبتدعة.
١٠- ونقل الخطَى إلى المحارم.

فاحذر هذه الآثام وأخواتها، واقصر خطاك عن جميع المحرمات والمحارم، فإن فعلت: وإلا فاعلم أنك رقيق الديانة، خفيف، لعاب، مغتاب، نمَّام، فأنَّى لك أن تكون طالب علم يُشار إليك بالبَنان، منعمًا بالعلم والعمل.

سدد الله الخطى، وامنَح الجميع التقوى وحسن العاقبة في الآخرة والأولى. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

بكر بن عبد الله أبو زيد
في ٢٥/ ١٠/ ١٤٠٨هـ

☆ الشـــــرح ☆

هذه النواقض والخوارم التي ذكرها هي في الحقيقة خدش عظيم لطالب العلم، بل وللعامة أيضًا.

١- إفشاء السرِّ محرم: لأنه خيانة للأمانة، فإذا استكتمك إنسان حديثًا، فإنه لا يحل لك أن تفشيه لأي أحد كان، واحذر أن يخدعك أحد؛ لأن بعض الناس يظن أنه أفشى إليك بحديث، ثم يأتي إليك، كأن الأمر مسلم أنه علم بذلك، فيقول مثلاً: ما شاء الله، ما الذي أدراك عن كذا وكذا؟ فيبهت الأخ، فيظن أنه قد علم، ثم يفضي إليه السر، وهذا طريقة تجسس من بعض الناس، إذا آتاهم شخص بشيء، جاء إليه وقال: ما شاء الله ما أدراك عن فلان، قلت: فيه كذا وكذا، وهو ما علم أحد، وهذا أيضًا ليس عنده علم، لكن يريد أن يحقق التهمة، فاحذر هذا فما دمت قد استكتمت صاحبك، فإذا جاء أحد يبغتك بمثل هذا الأسلوب، فلا تخف، قل: أبدًا ما صار هذا وتبرأ إلى الله منه وتقصد منه؛ أي من هذا الكلام الذي أنت قلته: لأنه تجسس، قال

العلماء: وإذا حدثك إنسان بحديث والتفت، فقد استأمنك فهو أمانة وسرّ، فلا يجوز أن تفشيه حتى ولو لم يقل: لا تخبر أحدًا. لأن التفاته يعني أنه لا يريد أحدًا يسمعه، فإذا أفشيته، فهذا من إفشاء السرِّ.

٢- ونقل الكلام عن قوم إلى آخرين: وهذه هي النميمة، وقد قال النبي ﷺ: «لا يدخل الجنة قتات»[١] أي نمام: ومرَّ بقبرين يعذبان[٢]، وذكر أن أحدهما كان يمشي بالنميمة، فهي من كبائر الذنوب، يأتي الشخص إلى آخر يقول: قال فلان فيك كذا وكذا، لكن إذا كان المقصود بذلك النصيحة، كيف النصيحة؟

يعني: أن هذا الرجل مغتر بالشخص؛ ويفضي إليه أسراره، ويستشيره في أموره، فجاء إنسان وقال: يا فلان أنا رأيتك تفضي سرك إلى فلان، وتثق به، والرجل ليس بأمين، الرجل يفشي كل ما تقول، فهل يعتبر هذا نميمة؟

هذه نصيحة، وكثيرًا ما يكون بعض الناس سليم القلب يثق بكل أحد، فإذا بأسراره، وأحواله معلومة عند الناس، فيأتي إنسان يحب الخير، يقول: يا فلان رأيتك تفضي إلى فلان بسرٍّ، والرجل ليس بثقة، هذا لا يعد نميمة، بل هذا من باب النصيحة، وفرق بين من يريد النصيحة، ومن يريد الإفساد.

٣- والصلف واللسانة: الصلف يعني: التشدد في الشيء، يكون إنسان غير لين، لا بمقاله، ولا بحاله، بل هو صلف ولَسِنٌ؛ يعني: رفيع الصوت، أو يعني أن عنده بيانًا يبدي به الباطل، ويخفي به الحق، وأما قوة الصوت، وارتفاع الصوت، فإنه ليس إلى اللسانة هذه من خلقه الله عزَّ وجلَّ، ولما أنزل الله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ كان ثابت بن قيس رضي الله عنه، وهو من أحد الشعراء، ومن أحد الخطباء أيضًا، كان جهوري الصوت، فلزم بيته يبكي، ولم يكن له وجه يخرج إلى الناس، ففقده النبي ﷺ فسأل عنه، فأرسل إليه رسولاً، فقال: إن الله أنزل هذه الآية، وإني خفت أن يحبط عملي وأنا لا أشعر، انظر الخوف من الله عزَّ وجلَّ من هؤلاء، فأرسل النبي ﷺ فقال له: «إنه يحيا سعيدًا، ويقتل شهيدًا، ويدخل الجنة» فحيا الرجل سعيدًا،

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٢٣٢٤٧)، ومسلم برقم (١٠٥، ١٧٠)، وأبو داود برقم (٤٨٧١) والبغوي في «شرح السنة» برقم (٣٥٦٩، ٣٥٧٠).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٢١٨)، ومسلم برقم (٢٩٢)، وأبو داود برقم (٢٠)، والترمذي برقم (٧٠)، والنسائي (١/ ٢٨، ٣٠)، وابن ماجه برقم (٣٤٧).

وقتل شهيدًا في اليمامة، وسيدخل الجنة؛ لقول النبي ﷺ «وتدخل الجنة»؛ ولهذا كان ثابت بن قيس بن شِماس - رضي الله عنه - من الناس الذين يشهد لهم بأنَّهم من أهل الجنة[١].

إذًا اللسانة معناها التطاول باللسان على بني الإنسان هذا اللسن، وليس معناه رفيع الصوت.

كثرة المزاح: ولم يقل: المزاح؛ لأن المزاح في الكلام كالملح للطعام، إن أكثرت منه فسد الطعام، وإن لم تجعل فيه الملح، لم يشتهِ الطعام فكثرة المزاح تذهب الهيبة، وتنْزل مرتبة طالب العلم، هذه الكثرة، أما المزاح القليل، الذي يقصد به إدخال السرور على صاحبك، فهذا خير، وهو من السنة، فقد كان النبي ﷺ يمزح، ولا يقول إلا حقًّا ﷺ، جاءه رجل مرة يريد أن يحمله على بعير يجاهد عليها في سبيل الله، فقال النبي ﷺ «إنا حاملوك على ولد الناقة؟» الرجل: كيف يحمل على ولد الناقة؟ تعرفون ولد الناقة؛ يعني: الصغير، فقال النبي ﷺ: «وهل تلد الإبل إلا النوق»[٢]، فسُرِّي عن الرجل، هذه مزح، أو غير مزح؟ هذا مزح، لكنه حق، وكان النبي ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقًّا، ومع ذلك مزحه قليل، قال لأبي عمير، غلام صغير معه طير يلعب به، فمات الطير، وتعرفون الصبي إذا مات طيره، يحزن حزنًا عظيمًا، فدخل النبي ﷺ ذات يوم فقال له: «يا أبا عمير ما فعل النغير؟»[٣]. يمزح عليه، فمثل هذا المزح، لا بأس به؛ لأنه قليل وحق، أما ما يفعل بعض الناس، كل كلمة فهو مزح، فهذا كما أنه لا يليق بالرجل العاقل فضلًا عن طالب العلم، فإنه يجعل كل كلامه مزحًا، حتى إن المخاطبين يقولون: أنت صادق أم تمزح؟ لأنه يكثر المزاح.

٥- الدخول في حديث بين اثنين: فإن بعض الناس إذا رأى اثنين يتحدثان دخل

---

(١) والحديث أخرجه الحاكم (٣/ ٢٦٠) ولمعمر بن راشد في «الجامع» (٢٠٤٢٥)، والطبراني (١٣١٠) بلفظ: «يا ثابت ألا ترضى أن تعيش حميدًا وتقتل شهيدًا...» الحديث، وأخرجه أحمد برقم (١٢٤٢٢)، ومسلم برقم (١١٩) مختصرًا بقوله ﷺ: «بل هو من أهل الجنة».

(٢) أخرجه أحمد (١٣٨١٧)، والبخاري برقم (٢٦٨)، وأبو داود برقم (٤٩٩٨)، والترمذي برقم (١٩٩١).

(٣) أخرجه أحمد (٢١٣٧)، والبخاري برقم (٦١٢٩، ٦٢٠٣)، والترمذي برقم (١٩٨٩)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه برقم (٣٧٢٠)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» برقم (٣٣٢، ٣٣٣).

بينهما، وهذا كالمتسلق للجدار، لم يأت البيوت من أبوابها، ولهذا كان من آداب حاضر صلاة الجمعة ألا يفرق بين اثنين كما جاءت به السنة، فالتفريق بين اثنين في الكلام وفي الحديث من خوارم المروءة وكذلك أيضًا لا ينبغي إذا رأيت اثنين يتحدثان أن تقترب منهما بل الأدب والمروءة أن تبتعد، لأنه ربما يكون بينهما حديث السر ويخجلان أن يقولا لك ابعد فالحديث سر، أو إذا كانا لا يستطيعان ذلك عَدَلاَ عن حديث السرِّ فقطعت حديثهما.

٦- الحقد: الحقد يعني الكراهية، والبغضاء فإن بعض الناس إذا رأى أن الله أنعم على غيره نعمة، حقد عليه، مع أن هذا الذي أنعم عليه، لم يتعرضه بسوء، لكن حقد عليه، وما قصة ابني آدم بغريب علينا، قربا قربانًا، فتقبل من أحدهما، ولم يتقبل من الآخر، فقال الذي لم يتقبل منه للذي تقبل منه: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾، كرهه وحقد عليه إلى حد أنه أَوْدَى بحياته، فقال له ذلك: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وليس يريد تزكية نفسه، أو الثناء عليها، وإنما يريد أن يحث ذلك على التقوى، حتى يقبل منه، كأنه قال له: اتق الله فيقبل منك، ولكن طوعت له نفسه قتل أخيه فقتله، فلا يجوز للإنسان أن يحقد على أخيه المسلم، ولا سيما إذا كان سبب الحقد ما مَنَّ الله به عليه من النعمة، سواء دينية أو دنيوية.

٧- الحسد: من أخلاق اليهود، وبئس الخلق، خلق الحسد، فما هو الحسد، الحسد قيل: هو أن يتمنى زوال نعمة الله على غيره، يتمنى فقره إن كان الله أنعم عليه بمال، ونسيانه وجهله إن كان الله أنعم عليه بعلم، وفقد أولاده وعقم زوجته إذا كان الله مَنَّ عليه بأولاد، وما أشبه ذلك، فقيل: هذا هو الحسد، أن يتمنى الإنسان زوال نعمة الغير.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: الحسد كراهة نعمة الله على غيره؛ يعني: ما يتمنى زوالها، لكن يكره أن الله أنعم على هذا الإنسان بهذه النعمة، فأما لو تمنى أن يرزقه الله مثلها، فليس هذا من الحسد، بل هذا من الغِبطة، التي أشار إليها النبي ﷺ بقوله: «لا حسد إلا في اثنتين»[1]. ومصادر الحسد إحدى عشرة وهي:

١- أنه من كبائر الذنوب.

٢- أنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب. والحديث ضعيف.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٣)، ومسلم برقم (٨١٦) من حديث ابن مسعود، وهو أيضًا في الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

٣- أنه من أخلاق اليهود.
٤- أنه ينافي الأخوة الإيمانية.
٥- أنه فيه عدم الرضا بقضاء الله وقدره.
٦- أنه سبيل للتعاسة.
٧- الحاسد متبع لخطوات الشيطان.
٨- يورث العداوة والبغضاء بين الناس.
٩- قد يؤدي إلى العدوان على الغير.
١٠- فيه ازدراء لنعمة الله على الحاسد.
١١- يشغل القلب عن الله.

٨- سوء الظن: أن يظن بغيره ظنًّا سيئًا، مثل أن يقول: لم يتصدق هذا إلا رياءً، لم يلق هذا الطالب السؤال إلا رياء، ليعرف أنه طالب. وكان المنافقون، إذا أتى المتصدق من المسلمين بالصدقة -إن كنت كثيرة- قالوا: مراءٍ، وإن كانت قليلة، قالوا: إن الله غني عن صدقة هذا، فهم يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات، ويلمزون الذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم. فإياك وسوء الظن.

فالواجب إحسان الظن بمن ظاهره العدالة، أما من ظاهره غير العدالة فلا حرج أن يكون في نفسك سوء الظن به، لكن مع ذلك عليك أن تتحقق حتى يزول ما في نفسك من هذا الوهم. لأن بعض الناس قد يسيء الظن بشخص ما بناءً على وهم كاذب لا حقيقة له.

قال الله تعال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ [الحجرات: ١٢]. ولم يقل كل الظن، لأن بعض الظنون لها أصل ولها مبرر، ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، وليس كل الظن، فالظن الذي يحصل فيه العدوان على الغير هذا لا شك أنه إثم، والظن الذي لا مستند له، هو أيضًا إثم.

٩- ومجالسة المبتدعة: وليته عمم؛ مجالسة كل من تخرم مجالستهم المروءة سواء كان ذلك لابتداع أو سوء أخلاق أو انحطاط رتبة عن المجتمع أو ما أشبه ذلك، فينبغي لطالب العلم أن يكون مترفعًا عن مجالسة من تخدش مجالستهم المروءة أو تخدش الدين، لكن كأنه خص ذلك بالمبتدعة لأن المقام مقام تعليم، فإذا وجدنا مبتدعًا عنده طلاقة في اللسان، وسحرٌ في البيان، فإنه لا يجوز أن يجلس إليه، لأنه مبتدع. لماذا لا يجوز؟

[الجواب في نقاط]:

أولاً: لأننا نخشى من شره، فإن النبي ﷺ قال: «إن من البيان لسحرًا»[1]، قد

(١) أخرجه البخاري برقم (٥١٤٦).

يسحر عقولنا حتى نوافقه على بدعته.

ثانيًا: أن فيه تشجيعًا لهذا المبتدع، أن يكثر الناس حوله أو أن يجلس إليه فلان وفلان من الأشراف والوجهاء، والأعيان، هذا يزيده رفعة واغترارًا بما عنده من البدعة، وغرورًا في نفسه.

ثالثًا: إساءة الظن بهذا الذي اجتمع إلى صاحب البدعة، وقد لا يتبين هذا إلا بعد حين.

١٠- نقل الخطى إلى المحارم: يعني: أن يمشي الإنسان إلى الأمور المحرمة، فإن هذا من خوارم هذه الحلية، إذ أن الذي ينبغي لطالب العلم أن يتجنب هذا، بل إن بعض العلماء يقول: يتجنب حتى الخطى إلى أمر ينتقده الناس فيه، كما لو ذهب طالب العلم إلى مبيع النساء، النساء لها أسواق للبيع، فذهب طالب العلم لأسواق النساء، هل هذا مما يحمد عليه، أو مما يذم عليه؟ نعم مما يذم عليه، يقال: فلان طالب العلم يروح لأسواق النساء. حتى لو قال: أنا أريد أن أذهب إلى أسواق النساء، حتى أشتري لأهلي من هذه الأثواب التي تباع بالأسواق. قلنا: وكُل من يشتري عنك، أما أنت طالب علم ينتقد عليك هذا الفعل، ويقتدى بك من نيته سيئة.

ثم قال: «فاحذر هذه الآثام وأخواتها، واقصر خطاك عن جميع المحرمات والمحارم، فإن فعلت: وإلا فاعلم أنك رقيق الديانة، خفيف، لعاب، مغتاب، نمَّام، فأنَّي لك أن تكون طالب علم، يشار إليك بالبَنان، منعمًا بالعلم والعمل»؟

يعني: ينبغي للإنسان أن يُنزِّل (نفسه) منزلتها وألا يدنسها بالأخلاق (الرديئة)، لأن طالب العلم شرفه الله تعالى بالعلم وجعله قدوة، حتى إن الله تعالى ردَّ أمور الناس عند الإشكال إلى العلماء فقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

فالحاصل: أنك يا طالب العلم، محترم، فلا تَنزِل بنفسك إلى ساحة الذلِّ والضعة، بل كن كما ينبغي أن تكون.

نسأل الله تعالى أن يختم لنا ولكم بصالح الأعمال، وأن يوفقنا للعمل بما يرضيه.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة الناشر	٣
نبذة مختصرة عن الشيخ بكر أبو زيد	٥
مقدمة المؤلف	٨
مقدمة الشارح	٨
الفصل الأول	
آداب الطالب في نفسه	
١- العلم عبادة	١٣
٢- كن على جادة السلف الصالح	١٩
٣- ملازمة خشية الله تعالى	٢٣
٤- دوام المراقبة	٢٦
٥- خفض الجناح ونبذ الخيلاء والكبرياء	٢٧
٦- القناعة والزهادة	٣١
٧- التحلي برونق العلم	٣٣
٨- تحلٍّ بالمروءة	٣٧
٩- التمتع بخصال الرجولة	٤٣
١٠- هجرة الترفه	٤٤
١١- الإعراض عن مجالس اللغو	٤٨
١٢- الإعراض عن الهيشات	٤٩
١٣- التحلي بالرفق	٥١
١٤- التأمل	٥١
١٥- الثبات والتثبت	٥٣
الفصل الثاني	
كيفية الطلب والتلقي	
١٦- كيفية الطلب ومراتبه	٥٩
١٧- تلقي العلم عن الأشياخ	٧٩

الفصل الثالث
آداب الطالب مع شيخه

١٨- رعاية حرمة الشيخ ٨٠
١٩- رأس مالك أيها الطالب من شيخك ٨٨
٢٠- نشاط الشيخ في درسه ٨٩
٢١- الكتابة عن الشيخ حال الدرس والمذاكرة ٩١
٢٢- التلقي عن المبتدع ٩٢

الفصل الرابع
أدب الزمالـــــــــة

٢٣- احذر قرين السوء ١٠٦

الفصل الخامس
آداب الطالب في حياته العلمية

٢٤- كبر الهمة في العلم ١٠٩
٢٥- النهمة في الطلب ١١١
٢٦- الرحلة للطلب ١١٤
٢٧- حفظ العلم كتابةً ١١٧
٢٨- حفظ الرعاية ١٢٢
٢٩- تعاهد المحفوظات ١٢٦
٣٠- التفقه بتخريج الفروع على الأصول ١٢٨
٣١- اللجوء إلى الله تعالى في الطلب والتحصيل ١٣٩
٣٢- الأمانة العلمية ١٤١
٣٣- الصدق ١٤٣
٣٤- جنة طالب العلم ١٥٠
٣٥- المحافظة على رأس مالك «ساعات عمرك» ١٥١
٣٦- إجمام النفس ١٥٤
٣٧- قراءة التصحيح والضبط ١٥٥
٣٨- جرد المطولات ١٥٧
٣٩- حسن السؤال ١٥٨
٤٠- المناظرة بلا مماراة ١٦١
٤١- مذاكرة العلم ١٦٣

٤٢- طلب العلم يعيش بين الكتاب والسنة وعلومها ١٦٣
٤٣- استكمال أدوات كل فن ١٦٤

الفصل السادس

التحلي بالعمـــــــــل

٤٤- من علامات العلم النافع ١٦٦
٤٥- زكاة العلم ١٦٨
٤٦- عزة العلماء ١٧١
٤٧- صيانة العلم ١٧٣
٤٨- المداراة لا المداهنة ١٧٥
٤٩- الغرام بالكتب ١٧٦
٥٠- قوام مكتبتك ١٧٧
٥١- التعامل مع الكتاب ١٨١
٥٢- ومنه ١٨٣
٥٣- إعجام الكتابة ١٨٣
الفصل السابع المحاذير ١٨٦
٥٤- حلم اليقظة ١٨٦
٥٥- احذر أن تكون أبا شبر ١٨٦
٥٦- التصدر قبل التأهل ١٨٧
٥٧- التنمر بالعلم ١٨٨
٥٨- تحبير الكاغد ١٨٩
٥٩- موقفك من وهم من سبقك ١٩١
٦٠- دفع الشبهات ١٩٣
٦١- احذر اللحن ١٩٥
٦٢- الإجهاض الفكري ١٩٨
٦٣- الإسرائيليات الجديدة ١٩٨
٦٤- احذر الجدل البيزنطي ١٩٩
٦٥- لا طائفية، ولا حزبية يعقد الولاء والبراء عليها ٢٠٢
٦٦- نواقض هذه الحلية ٢٠٨
فهرس الموضوعات ٢١٤